

الموسم غير الشامي

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

المجلد السابع والثلاثون

دار الفكر

الطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والصليبية

مشاريع ما بعد الحملة السابعة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق ١٤٢٠ / ١٩٩٩

الجزء السادس والثلاثون

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١ — استرداد الأرض المقدسة لبييردوبوا

٢ — من كتاب الأسرار لمارينوسانوتو

١

استرداد الأرض المقدسة

تأليف بيير دوبوا

بسم الله الرحمن الرحيم توطئة

كان للحروب الصليبية أبعداً أثار على أوروبا الغربية بشكل خاص، وقد فتحت هذه الحروب آفاق المعارف العقلية والجغرافية أمام الأوروبيين، وأخرجتهم من الواقع الإقليمي الضيق، إلى الانفتاح العالمي، ومن ظلام العصور الوسطى إلى نور المعرفة، والاستعداد إلى دخول عصور النهضة، ومن الصراع بين الامبراطورية والبابوية إلى قيام مشاريع الدول القومية وتراجع البابوية، وقاد هذا كله نحو تأسيس الجامعات وانتشار الثقافة، وظهور عدد كبير جداً من الفلاسفة والمحامين والمفكرين السياسيين الذين تأثروا كثيراً بمعطيات الحضارة العربية، عن طريق الترجمة والاحتكاك المباشر، وعن طريق الذين هاجروا من إسبانيا وسواها إلى فرنسا نتيجة لحروب الاستغلاب ومحاكم التفتيش.

وترافق هذا مع النشاط الهائل للدول الإيطالية، وبوادر مشاريعها الاستعمارية الاقتصادية، التي تجلت باحتلال القسطنطينية، واقطاع الطليان أحياء خاصة في مدن الشام، ذات امتيازات واعفاءات، أي ما يشبه المستعمرات والمستوطنات، وكانت أوروبا قد تفوقت بحريا على كل ماسواها، واستحوذت على البحر المتوسط، بعد الاستيلاء على جزيرة صقلية وبعض شواطئ المغرب، وذلك بالإضافة إلى ما كان بيد الفرنجة من شواطئ الشام.

وتزامن هذا كله مع ظهور المغول كقوة فاعلة في المشرق العربي، ومع هذا كله، ظلت الوحدة التي تأسست أيام نور الدين بين مصر والشام تؤتي أفضل الثمار، فجيوش الوحدة تحقق النصر في دمياط ثم في

المنصورة، وبعدها في عين جالوت وحررت أنطاكية ثم طرابلس، وأخيراً عكا عام ١٢٩١م، وهنا بدأت العقول الأوربية تحاول استيعاب الدروس المستفادة من قرني الحروب الصليبية، وظلت الأصوات عالية تنادي بحملة صليبية جديدة، لكن الآن حلت العقلانية في التخطيط محل الانفعال و التحريض والإثارة، وشرع بعض رجال الفكر من علمانيين وكهنة في تقديم دراسات ومذكرات من أجل عمل صليبي أوربي موحد، وفي سبيل تحويل احتلال الأرض في الشام إلى احتلال دائم، ولتحويل العرب إلى الكاثوليكية أو أفنائهم، واهتمت هذه الدراسات بمصر، وآمنت أن الطريق إلى القدس لا بد وأن يمر عبر مصر، وأراد الأوربيون احتلال مصر، لكن بحملات جانبية، بعد اخفاق الحملات الجبهوية، وكثيرة هي الكتابات الأوربية التي خرجت إلى النور في مطلع القرن الرابع عشر حول هذا الموضوع، وأبرزها وأهمها جميعاً كتابي «استرداد الأرض المقدسة» للمحامي الفرنسي بيير دوبوا، وكتاب «الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدسة» للايطالي مارينو سانوتو.

ففي الوقت الذي جرى فيه تصنيف هذين الكتابين، كان جوانفيل قد كتب كتابه عن حياة لويس التاسع، ولأهمية مطلع القرن الرابع عشر، هناك مدخل دراسي واسع حول هذا الموضوع في مطلع كتاب «الاسترداد» لدوبوا، ونجد في هذه الدراسة وفي نصي الكتابين، صورة عقلية الغرب الأوربي، هذه العقلية التي استمرت على المنهج ذاته حتى القرن العشرين، وتساور المرء الشكوك حول تغييرها في القرن المقبل.

والمناداة بدمج المنظمات العسكرية، وبالقيام بأعمال تبشيرية منظمة وبالاهتمام بالعربية، وبالعمل على تحويل المسلمين عن دينهم، التي نجدها في الكتابين هي الأمور التي طبقتها أوروبا تحت عناوين التبشير

والاستشراق والاستعمار، وهي الأفكار التي على أساسها قامت الحركة الصهيونية، ولنتذكر دوماً أن الغرب هو الذي أوجد إسرائيل، وما برح يمدّها بأسباب الحياة.

ومهما تحدثت عن محتوى هذين الكتابين في هذه التوطئة، سيكون ذلك قاصراً لا يفي بالغرض، والذي يفي بالغرض هو قراءة النصين بتمعن، ومن ثم استعراض ما وقع منذ القرن الرابع عشر حتى الآن، وليس غرضي هنا كربلاوياً فيه التحيب والشكوى من الاستعمار ومن الغرب، بل الغرض المعرفة، والقول بأن حوادث التاريخ هي حوادث صراعات بين الشعوب، والمسألة ليست مسألة عدل وظلم، لكنها قضية قوي وضعيف، ودائم مصدر القوة الوحدة، ومصدر الضعف التمزق، فقد أخفقت كل مشاريع أوربا مجتمعة قبل القرن الرابع عشر، بفضل وحدة مصر والشام، هذه الوحدة التي شكلت المكافئ لكل أوربا، وشكلت المرجعية العلمية والشرعية، فقد كانت الخلافة العباسية في القاهرة تشكل رمز الشرعية، وعمل الأزهر وشغل دور المرجعية العلمية، وسبيل الحفاظ — الآن — على مصالح الأمة العربية ومعها الشعوب الإسلامية، مرتبط بإعادة بعث هذه الوحدة وهذه المرجعية، فإذا اتحدت مصر والشام أمكن للعرب أن يتلاقوا، ولقاء العرب وتوحيد إرادتهم هو السبيل الوحيد أمام المسلمين في قرن مقبل، القول الفصل فيه، والانتماء إلى الثقافات، فالثقافة الآن هي التي تحدد الهوية، وكانت مصر والشام قد اتحدتا أيام نور الدين لغايات جهادية عربية إسلامية، وبالفعل حققت هذه الوحدة العديد من المعجزات، والجهاد في سبيل البقاء العربي، وفي سبيل تحرير الأرض، وفي سبيل رفع الضيم عن المسلمين، وفي سبيل إنسانية أفضل وأكثر سعادة، وأقل سفكاً للدماء، يستدعي الحال الآن بإلحاح كبير، إعادة الوحدة ما بين الشام — كل الشام — وأرض الكنانة.

ويثير الكتابان عدة أمور تتعلق بشكل رئيسي بطائفتي الداوية والاسبتارية وبالشؤون العسكرية، ولهذا عازمت على أن ألحق بموسوعتنا ثلاث دراسات حديثة : عن الحروب الصليبية المتأخرة، أي حتى معركة وادي المخازن، وعن فن الحرب حتى تحرير عكا، وعن طائفتي الداوية والاسبتارية.

والله المعين والموفق إلى السداد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق ٤ — ربيع الأول ١٤٢٠ هـ / ١٧ — حزيران ١٩٩٩ م

مدخل

ترجمة مختصرة لبيير دوبوا

معلوماتنا عن حياة بيير دوبوا Pierre Dubois وأعماله قليلة جداً، فلم يترك لنا مجلد مراسلات شخصية أو رسمية، مثلما فعل بيروديلافينا Vigna الذي كان سكرتيراً ومستشاراً لفردريك الثاني، وما من أحد سواه من بين الأسرة الرسمية للملك فيليب الجميل، بقي تقريباً من دون ذكر داخل كتلة مواد الوثائق، التي مكنت هولتزمان بأن ينشر مجلداً حول وليم أوف نوغاريت Nogaret ، وقد جرى نشر أوراقه الكثيرة في الغالب مجهولة بين منتجات قلمه المتنوعة التي بقيت لنا، وظهر اسمه بمثابة كاتب معروف في عمل واحد فقط، أما ملاحظات أعماله القليلة المتفرقة فقد ظهرت في مدونات رسمية جرى تمحيصها بشكل جيد من قبل س.ف لانغلويس Langlois ، والاحتمال ضعيف بوجود المزيد من المواد الهامة لم يتم اكتشافها، ولهذا يتوجب أن نضيف هذه المعلومات القليلة إلى ما أخبرنا به عن نفسه في أوراقه وما يمكن أن نستخلصه مصادفة من خلال البيانات المقدمة هناك.

ونعرف من هذا كله بأنه قد ولد في شمال فرنسا، وربما في، أو على مقربة من كوتانسيز Coutances في نورماندي، وهذا واضح من أسلوبه الكتابي والأدبي، ومن معرفته بأعيان تلك المنطقة من أمثال: هنري دي ري Rie فيزكونت كين Caen، ورتشارد لينيفو Leneveu ومن حقيقة أن سكان كوتانسيز الذين كانوا أبناء منطقته قد عبروا عن ثقتهم به مرتين لتمثيلهم في مجلس الأعيان العام Estates General ، ويرجح أنه كان من أصل برجوازي، ويدل على هذا اختياره لمهنته، وانعدام أية إشارة في كتاباته إلى أنه من أصل

نبيل أو فلاحى، ولقد أخبرنا أنه فى أيام تلمذته فى باريس استمع إلى محاضرات ألقاها توماس الأكوينى وسيغر دى برانت Brabant ، وكان توماس يحاضر فى باريس فى ١٢٦٩ — ١٢٧٢، وسيغر فى حوالى ١٢٦٦ إلى ١٢٧٦ ، وبناء عليه يمكننا القول بأن تاريخ ميلاده كان فى ما بين ١٢٥٠ و ١٢٥٥ حين جرى تنظيم جامعة باريس أممياً، ويحتمل أن دوبا اصطنع لنفسه معارف خلال أيام دراسته مع عدد من أبناء منطقته النورمانديين، الذين صاروا فيما بعد أصدقائه فى المحكمة، وتشير معارفه بالقانون المدنى الرومانى إلى أنه لابد قد درس هذا الموضوع فى مكان آخر غير باريس، ولعل ذلك كان فى أورلين، لأن باريس لم يكن فيها كلية قانون كافية.

ومن الممكن أن نفترض، أنه بعدما أكمل دراسته، بدأ بممارسة مهنته فى كوتانسيز، والحقبة المؤكد معرفتها فى حياته، والتالية لهذه هى الفاجعة التى نزلت بفيليب الثالث فى حملته ضد أرغون سنة ١٢٨٥، وقد توفى الملك لإصابته بالمرض فى أثناء تراجعه، وكان دوبا الآن ناضجاً بما فيه الكفاية، وصاحب خبرة كى يعمل بالمسائل العامة، ويبدو أن هذه الحادثة قد تركت تأثيراً عظيماً عليه، هذا وتوفر صداقته مع هنرى دى ري، والأعيان الآخرين فى بلاط فيليب الرابع توضيحاً لمعرفته بقضايا الدولة، وتمكن من التعمق فى أحوال المملكة، فى الخمس عشرة سنة التالية، التى أصبح فيها ثرياً تماماً، واحتل منصب المحامى الملكى فى منطقة مسقط رأسه، وكانت نتائج هذه الخبرات والتأملات جهوده البكر فى الحصول على الانتباه الشعبى لأفكاره الإصلاحية، حيث وجه سنة ١٣٠٠ مذكرة إلى فيليب الرابع تحت العنوان الصارخ التالى: «خطة مختصرة ودقيقة من أجل الحملة السعيدة، ولاختصار الحروب، ومقاضاة ملك فرنسا»، ولانتملك أى دليل على أن مقترحاته كان لها أى تأثير على السياسة الملكية.

ومهما كان نوع الاستقبال الذي تلقته هذه المذكرة لعام ١٣٠٠ (هناك نسخة خطية منها وحيدة تعود إلى القرن الخامس عشر) فإن شهيته للشهرة العامة قد شحذت، وقد أعطاه تفجر الصراع بين فيليب وبونيفيس الثامن الفرصة، فقد أرسل في اليوم الذي تقدم على نشر مرسوم *Ausculta Fili* بشكل رسمي، مذكرة مختصرة إلى صديقه في باريس رتشارد لينيفو، بعنوان «مناقشات لا تقبل الجدل»، ولم تعد هذه المذكرة موجودة، وأمكننا التعرف إلى محتوياتها من خلال ملخص دقيق قدمه دوبوا نفسه، في كتابه «استرداد الأرض المقدسة» (الفصل الحادي عشر)، ولا يوجد دليل على أن هذه المذكرة قد وصلت إلى الملك، ووجه في ١٥ شباط ١٣٠٢ فيليب دعوة لاجتماع الأعيان، وكان هذا أول مجلس أعيان عام نمتلك عنه سجلاً أصيلاً، وتأكدت سمته الوطنية بضمه — للمرة الأولى — ممثلين من الدرجة الثالثة، كان بينهم المحامي النورماندي الطموح بيير دوبوا، فقد اختير ليمثل بلدته كوتانسيز.

وقام واحد من الأذكياء في حاشية فيليب بتقديم نص مكثف لـ *Ausculta Fili* مع افتتاحية *Deum Time*، واقتبس اصطلاحات مسيئة لفيليب، وعرض الادعاء البابوي وقدمه بلغة أكثر إثارة من الأصل، وتوقف دوبوا عند واحد من المقاطع المتناقضة بسبب التزييف، وقام بسرعة بكتابة رد بعنوان: «تقدير لمعايير ينبغي تبنيها»، ولا نمتلك بينة بأن هذا الرد قد جرى توزيعه بين الأعيان، لكن أن يكون قد وصل إلى علم البلاط، فهذا مبرهن عليه من خلال حقيقة أنه قد عثر عليه، مع بعض المناشير الأخرى التي كتبها دوبوا، داخل مجموعة من الردود الجدلية القاسية، جرى نسخها لصالح الوثائق الملكية بتوجيه من بيير دي ايتامبز *Etampes*، حافظ الوثائق من سنة ١٣٠٧ حتى ١٣٢٤.

ولانعرف شيئاً عن نشاطات دوبوا كعضو في مجلس الأعيان، فقد كان في ذلك الحين «محامي القضايا الملكية في وكالة كوتانسيز والمحامي

الرسمي عن الجماعة في تلك المنطقة»، ومن المعقول أن نفترض أنه كان له دوره في إثارة أعضاء منطقته للقيام بتبني قرارات لصالح «الأهداف الملكية»، وهناك بيئة حول هذا الاسهام قد ظهرت سنة ١٣٠٤، داخل منشور آخر، جاء هذه المرة بصيغة وطنية هي: «التماس الشعب الفرنسي إلى الملك ضد البابا بونيفيس الثامن»، ويشير استخدامه للغة الشعبية إلى جهد التماس موجه بشكل خاص إلى الأعيان من المرتبة الثالثة.

ولم يوقف تعليق مجلس الأعيان العام نشاطاته، فقد ذكر دوبروا في (الفصل ١١٧) من كتاب الاسترداد، أنه عهد في كانون الثاني ١٣٠٤ إلى جين دي لي فوريت برسالة عنوانها: «حول تقصير الحروب والتكتيكات المتعلقة بها»، كان من المفترض تسليمها إلى فيليب، عندما كان ذلك الملك في طولوز، وتحتوي اقتراحاً من أجل غلبة الامبراطورية الإغريقية من قبل شارل أوف فالويس Valois ، بمساعدة الملك الفرنسي ، وخطة مفصلة حول السياسة العسكرية المتوجب اتباعها، وهذه الرسالة، رسالة سنة ١٣٠٤ قد فقدت، ولعلها صياغة جديدة لمذكرة «الخطة المختصرة» لسنة ١٣٠٠.

وكتابه الرئيسي هو «استرداد الأرض المقدسة»، وقد كتب في وقت ما فيما بين تكريس كليمنت الخامس، ووفاء إدوارد الأول، وكان كليمنت قد توج بابا في الخامس من حزيران سنة ١٣٠٥، ومات إدوارد يوم ٧ تموز ١٣٠٧، ولن نكون مخطئين كثيراً إذا ما قلنا بأن سنة ١٣٠٦ كانت السنة التي ألف فيها كتاب الاسترداد، فقد توجه في مطلع الكتاب بالخطاب إلى إدوارد الأول، ووصف المؤلف هنا نفسه بقوله: «المحامي المتواضع لقضايا» (إدوارد) اللاهوتية في تلك الدوقية» (أكوتين)، ويبدو أن التعارض بين مركزه كمحامي لفيليب وخدمته لصالح إدوارد، لم يسبب له مصاعب كبيرة. على الرغم من العداوة المبررة التي كانت قائمة آنذاك بينه وبين فيليب، وبحكم كون إدوارد دوقاً لأكوتين فقد

كان من أتباع فيليب، ومما لاشك فيه، أنه في وقت ما بعد إبرام الصلح في سنة ١٢٩٩ بين ادوارد وبين فيليب، عمل دوبوا مستشاراً لادوارد في بعض من قضاياها الكثيرة التي أثارت صراعاً فيما بين القضاء المدني والقضاء اللاهوتي في أكوتين، ويبدو أن استخدامه من قبل ادوارد كان في مناسبات كثيرة، وقام س. ف لانغلويس بالتحري الدقيق لوثائق الممالك الغسكونية لادوارد الأول، فلم يعثر على أي ذكر لدوبوا كعامل ملكي في أكوتين، هذا ولم تكن الخدمة المزدوجة فريدة في بابها بأي حال من الأحوال، فقد قام محامون آخرون من ذلك العصر بمثل هذه الأعمال ومن هؤلاء كان غليوم دي بريول Breuil .

وبعد ظهور «الاسترداد» بقي قلمنا الكاتب للمناشير بدون نشاط لمدة عامين، ويبدو أنه كان قد عاد إلى نورماندي، ليبارس مهنته وليرعى مصالح جماعته المحلية، وقد ورد ذكره في رسائل ملكية تاريخها شهر أيار عام ١٣٠٧، فيها تخلى فيليب، بناء على طلب بيير دوبوا، محاميه الملكي في وكالة كوتانيسيز عن بعض الاستحقاقات العائدة له عند كهنة تلك البلدة، وسعى رينان إلى التعرف على وجوده مع بطرس دي بوسكو Bosco ، الذي ورد ذكره بتاريخ ١٣ شباط لعام ١٣٠٧ ، فوق ألواح من الشمع حول الحسابات الملكية، لقيامه بشراء منازل للفريق الملكي، أثناء زيارة فيليب لنورماندي، وهذا أمر مشكوك به كثيراً، فواحد بمكانة دوبوا في ذلك الحين، كان من الصعب توجيه الدعوة إليه للعمل بمثل هذا العمل المتواضع.

ومنحه الهجوم على الداوية فرصة جديدة، فقد جرى اختياره مع واحد فريزي ثانية ليمثل منطقته في مجلس عام للأعيان، عقد في تور في سنة ١٣٠٨ ، وجاء وصفه في وثيقة انتخابه: «محامي للقضايا اللاهوتية الملكية في وكالة كوتانيسيز»، وقد أنتج في ذلك العام خمس رسائل، في اثنتين منهن حملة مختصرة على الداوية، وكانت إحداهن عامية، أما الثالثة

فكانت نسخة جديدة من الاسترداد، وهي مفقودة الآن، وكانت قد قدمت إلى الملك في شينون Chinon في ٢٣ أيار ١٣٠٨ ، بعد تعليق المجلس، وجاءت معرفتنا بها من خلال إشارات قام بها دوبوا في مذكرات تالية، ووجهت هذه بشكل رسمي إلى البابا، مثلما جرى توجيه النسخة الأصلية من الاسترداد إلى الملك أدوارد الأول، وجاء صلب الموضوع هو نفسه إلى أبعد الحدود، والخلاف هنا عن النص الأصل هو اقتراح تقدم به من أجل تمتين المنظمات العسكرية وتعيين ملك قبرص في القيادة.

وكان الدافع لكتابة الرسالة الرابعة لعام ١٣٠٨، ذات عنوان «مشكلة الأرض المقدسة»، هو أحداث ألمانيا، فقد جرى اغتيال الامبراطور ألبرت الأول في ١ - أيار، وانتهز كاتبنا المتشوق للشهرة الفرصة ليقتراح على فيليب الرابع أن يطلب من البابا تعيينه امبراطوراً، وقد أباح دوبوا هنا واحدة من انعدام التزامه المتكرر، وتغييره لمواقفه، فقد كان معروفاً أنه خلال النزاع بين ألبرت صاحب النمسا وأدولف صاحب ناسو Nassau من أجل العرش، قد راج اقتراح بأن يتولى البابا بونيفيس الثامن عملية تعيين الامبراطور، وكان دوبوا قد أنكر آنذاك امتلاك البابا لمثل هذه السلطة، لكن الآن، عندما بدت الظروف وهي تقدم فرصة لزيادة حجم مملكة الملك الفرنسي مع سمعته، اقترح أن يقوم كليمنت الخامس باستخدام السلطة نفسها التي رفضها في حالة بونيفيس الثامن، ويبدو أن دوبوا قد عدّ البابا فرداً عادياً بلا سلطة عندما كان إيطالياً معادياً لفرنسا، لكن عندما كان فرنسياً، له عواطف جيدة نحو الملك، فهنا عدّه دوبوا صاحب سلطات رسمية غير محدودة، ولم يقيم فيليب بأي عمل جدي في هذا المنحى، لكنه اتخذ خطوات لضمان انتخاب أخيه شارل أوف فالويس.

وكان الانتاج الأخير لهذا العام رسالة وجهت إلى فيليب، اقترح فيها

إيجاد مملكة في الشرق الأدنى من أجل ابنه الثاني، فيليب الطويل، وتسوغ محتوياتها عدّها بمثابة ملحق «للاسترداد» ولهذا ترجمت وألحقت بترجمة المجلد الحالي.

وبعد هذا النشاط المثير لعام ١٣٠٨، أخلد دوبوا إلى الراحة لمدة خمس سنوات، فالمصادر لا تشير إلى أي أثر من النشاط الأدبي قام به من جانبه، لكن هل أنتج رسائل أخرى لم تبق لنا ولم يتم التعرف عليها؟ وهل شعر بالاحباط لأن جهوده لم تأت بأي استجابة من الملك؟ أم أن سياسات فيليب حققت ما يكفي من نجاحات حتى لم تبق هناك حاجة إضافية للتوجه نحو الرأي العام؟ ولقد استمر وليم نوغاريت No-garet في خضم المعركة ينشر منشوراً لتسويغه، لكن المحاكمة المخففة لبونيفيس في سنة ١٣١٠ أخفقت في إثارة المحامي النورماندي لانتاج أي أثر أدبي، ولم يثر مجمع فينا، الذي حلّ منظمة الداوية أية ردات فعل من قلمه.

واستطاعت عين س . ف . لانغلويس الثاقبة، والخبرة تماماً بالخصوصية الأدبية لدوبوا، التعرف إلى أنه مؤلف رسالة صغيرة، كتبها فيما بين تشرين أول ١٣١٣ وأيام الصوم الكبير في سنة ١٣١٤، بعنوان «مبارزات ومنازلات»، ولم تنظر الكنيسة قط بعين الرضا إلى المعارك الصورية، التي أحببها قلوب الفرسان كثيراً، وكانت الملكية أيضاً تميل نحو التقطيب تجاهها لأن عدداً كبيراً من الرجال ومن الخيول هلكوا مما سبب صعوبات في الحفاظ على قوات فرسان إقطاعية كافية، وقبل القيام بالصليبية المقترحة، قام كليمنت الخامس في ١٤ — أيلول سنة ١٣١٣ بإصدار مرسوم *Passiones Miserabiles* ، الذي أدان بشدة المبارزات والمنازلات، وفي تشرين الأول قام النائب البابوي في فرنسا بشكل رسمي بتحريم جميع المبارزات مع التهديد بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي والتكفير، وجاء الاعتراض من النبلاء الذين احترموا

المؤسبة القديمة التي كان يمكنهم من خلالها إظهار براعتهم وشجاعتهم، ومن حشد الموظفين الصغار، الذين كانت المبارزات بالنسبة إليهم مصدراً للدخل، وكذلك من العامة الذين وجدوا في مثل هذه المشاهد خروجاً مرحباً به على رتبة حياتهم، وجاءت مذكرة دوبوا مجرد طلب غير رسمي إلى البابا حتى يعلق المرسوم، وأمام مختلف الاعتراضات من الأسرة المالكة جرى تعليق المرسوم، ومن ثم ألغي أخيراً.

وعبر دوبوا في بعض رسائله عن الخوف من الأعداء الذين من الممكن قيامهم بازعاجه بسبب الأفكار التي نشرها، وبهذا أعطى مسوغاً لإبقاء اسمه مجهولاً، ويبدو أنه توفر القليل من الأساس الفعلي لمثل هذا الخوف، وعاش دوبوا بعد سيده الذي ابتغى برغبة شديدة خدمته، لكن لم تكن هناك محاولة للنيل منه، وكان الذين تعرضوا لثقل عاصفة النقد الشديد هم بعض موظفي فيليب ومستشاريه، وخاصة انغراند دي ماريني Enguerrand de Marigni ، الذي كان وزير ماله، فهذا أيضاً كان ممن تحمل عاصفة النقد التي ثارت بعد وفاة الملك، وازدادت الكراهية الشديدة لماريني بإثارة النورمان لتدبر انتخاب ابن عمه نيقولا ليكون بابا، وغياب نقد دوبوا فيه بينة إضافية على أن جهوده لنصح فيليب لم تترك اعترافاً رسمياً.

وأصبح دوبوا بعد سنة ١٣١٤ شخصية مغيبة في الظل، ومن المحتمل أنه تابع نشاطه بمثابة محامي للتاج، إنما في منطقة أرتوا، وجاء في سجلات برلمان باريس لدورة كانون الأول ١٣١٩ اسم «المعلم بيير دوبوا» بين أصحاب تقارير التقصي، وجرى تعريفه على أنه وكيل الكونتيسة ماهوت صاحبة أرتوا، ويبدو أنه قبل وفاة فيليب (٢٩ تشرين الثاني ١٣١٤) دخل دوبوا في خدمة الكونتيسة، وقد أعدت في يوم فصح ١٣١٤ من أجل الشراء في باريس لتسعة أذرعة من القماش من أجل

مستشارها «المعلم بيير دوبوا»، وكان آخر ظهور لدوبوا في التاريخ — إذا كان في الحقيقة هو — في مادة في وثائق باس — دي — كاليس Pas - de - Calais ، حيث ورد ذكره مع آخرين شاركوا في التحقيق في بثيون Bethune في ٢٣ شباط سنة ١٣٢٠ ، وكان قد وصل آنذاك إلى سن السبعين أو ما يقارب ذلك، ولا شك أنه توفي بعد ذلك بوقت ليس طويلاً.

الاحتكام إلى الرأي العام

من الصعب الحديث عن وجود رأي عام — حسب الاصطلاح الحديث — في العصور الوسطى، ومع ذلك ثارت اهتمامات الرأي العام بين آونة وأخرى إلى حيث لجأ المتنافسون من على الجانبين، وابتغوا الحصول على شيء من التأييد الشعبي، وجرى بالضرورة توجيه مثل هذا الاحتكام إلى جزء صغير جداً من مجموع السكان، وتكون السواد الأعظم من الناس من فلاحين جهلة، الذين لم يكن لهم وزن، حتى لو افترضنا أن أحد الناس قد امتلك الوسائل، في إثارة هذا السواد نحو موقف ما.

وكان الالتجاء الجدي إلى الرأي العام يمكن توجيهه نحو فئات من المرغوب نيل مساندتها لسبب أو لآخر، وذلك من أمثال أعضاء المجلس الاستشاري الملكي، وأشخاص يفترض أن لهم نفوذهم وتأثيرهم على أعمالهم، وأعضاء من البلاط البابوي، أو أعيان من الهيئة اللاهوتية أدنى منزلة، ونزولاً من هؤلاء إلى مؤيد يدهم من الأدنى مكانة، ومع قيام الطبقة البورجوازية العليا وارتقائها إلى المكانة الهامة سياسياً واقتصادياً، صار من الممكن إضافة مجموعة ثالثة، من الممكن الاحتكام إليها مع بعض الأمل بالنفع.

وفي غياب اجتماعات مجالس منتظمة تضم أعضاء متمكنين من

الشعب، أخذ الاحتكام إلى الرأي العام شكل مذكرات ونشرات أو رسائل، تمت كتابتها أحياناً من قبل وكلاء جرى تعيينهم لهذه المهمة، وأحياناً من قبل متطوعين، وبالطبع لم تكن هناك وسائل تقنية للنسخ السريع، ولا خدمات للتوزيع، وحققت الأفكار التي حوتها المذكرات الانتشار بواسطة الفم في الغالب، أو بوضع المذكرة في مكان معروف، مثل أبواب الكنائس، ووصلنا عدد كبير من هذه المنشورات بنسخ خطية فريدة، تم حفظها في بعض دور الوثائق الرئيسة أو اللاهوتية، أو تم نسخها كلياً أو جزئياً من قبل بعض المؤرخين، الذين عدّوا القضية جديرة بالتدوين.

ومن الممكن القول بأن المنشورات من هذا النوع في العصور الوسطى تعود إلى ثلاث حقبة، أو ربما أربع حقبة متميزة، وجاءت الحقبة الأولى وولدت من خلال الصراع حول تقليد المناصب، التي بدأت مع محاولات البابا غريغوري السابع لإصلاح الكنيسة في ألمانيا، ولتأكيد الاستقلال اللاهوتي عن الإشراف الذي فرض من قبل الامبراطور هنري الرابع، واتسع الصراع وتطور إلى مشكلة تعلقت بادعاءات التنافس على السلطة بين القوى الروحية والقوى المادية، واستمر هذا الخلاف طويلاً بعد اختفاء الذين أثاروه على مسرح الأحداث، وأخيراً تم الوصول إلى تسوية في وفاق وورمز Worms (١٢٢٢)، وظهر في أثناء الصراع عدد من المناشير، حاول فيها مؤيدو كلاً من الفئتين المتنازعتين الاستناد على نصوص مقتبسة من الكتابات المقدسة، ومن آباء الكنيسة، ومن تقاليد الكنيسة، ومن القوانين الكنسية، واكتشف مؤيدو الامبراطورية مخازن من الذخائر متوفرة في مناقشات القانون المدني الروماني، الذي كانت دراساته المنبعثة قد بدأت في المدارس، وكانت المناقشات من هذا المصدر قوية جداً إلى حد جعلت فيه من الكونتيسة ماتيلدا صاحبة توسكانيا — وكانت من الحزب البابوي —

أداة في إيجاد مدرسة للدراسات القانونية حيث يمكن دراسة القانون الروماني من الوجهة الصحيحة، أي من وجهة النظر البابوية، ووجهت أعمال الاقتباس للقوانين أحياناً، بتهمة بأن القانون المنقول لم يكن أصيلاً، وغالباً ما تم تبادل هذا الاتهام من على الطرفين، وبدأ المفكرون من الناس يسألون: «أين يمكن إيجاد الحقيقة؟» و«هل هناك حقيقة مطلقة»؟.

وتغطي الحقبة الثانية الصراع فيما بين أباطرة أسرة هوهنشتوفن والبابوات، ولا سيما جهود الامبراطور فردريك الثاني للحفاظ على منصبه في وجه العداء المرير من جانب البابوين: غريغوري التاسع، وانوسنت الرابع، وكان فردريك الثاني كرجل دولة أكثر وضوحاً بالرؤية من كل من هنري الرابع أو هنري الخامس، وقد رأى أن خير سبيل أمامه هو نيل تأييد الملوك الأوربيين الآخرين، ومن أجل هذا بعث برسائل متوالية إلى الحكام وإلى مرؤوسيهم الرئيسيين، لكن ذلك كان بلا فائدة، وقد ترك لنا سكرتيره ومستشاره بيروديل فينا — وكان معلماً في الأسلوب اللاتيني الرفيع — مجموعة من الرسائل اتخذت نماذج في تدريس الـ *Ars dictaminis*، وطبعاً قد تضمنوا إشارة إلى مشاكل فردريك، وكانت هذه المجموعة متوفرة في دار الوثائق الملكية، ومن المؤكد أنه كان بإمكان رجال الدعاية البارعين لدى فيليب استخراج إشارات نافعة من محتوياتها المقنعة، وهذا أمر لم يبرهن عليه بشكل قاطع، لكن يمكن للانسان أن يتعرف إلى توفر تطور واضح المعالم لأفكار الامبراطوريين الذين كانوا في خدمة فردريك، وذلك من خلال الذين كانوا في حاشية فيليب، ومن ثم إلى الوضع الدفاعي الذي اتخذته المدافعون عن لويس صاحب بافاريا في القرن الرابع عشر.

وتقع الحقبة الثالثة خلف النطاق الزمني لهذا المجلد، ذلك أنها بدأت مع تفجر الخلاف حول الانتخاب الامبراطوري في سنة ١٣١٤، وعندما

هزم لويس صاحب بافاريا خصمه في سنة ١٣٢٢، اتخذ البابا جون الثاني موقفاً أفاد أنه وحده امتلك الحق ليقرر الخلاف حول الانتخاب، ودعا لويس إلى عرض دعواه أمام مجلس الكرادلة في روما، ورفض لويس ذلك، وحرم كنسياً، وتعقد الصراع المتجدد بين الامبراطورية والبابوية بصراع البابا جون وخصومته مع الفرنسيين الروحيين، الذين انضموا إلى صف لويس، وكانت عروض كلا الطرفين عالية الصوت، لكن عندما يقارن هذا مع الصراع الأبعد، نجد أن هذا كان معركة أقزام، والذي جعل هذا الصراع هاماً هو أنه دفع بجهود بعض الكتاب مثل : وليم أوف أوكهام Ockham وجين أوف جاندون Jandun، ومرسيلوس أوف بادوا Padua ، إلى توجيه ضرباتهم نحو أسس البابوية بالذات.

وأوضحت الدراسات المنشورة في مجال السياسات الفرنسية خلال حكم فيليب الرابع، أنه توفرت آنذاك حقبة واضحة رابعة للمنشورات، قد عادت من حيث التأريخ إلى ما بين الحقتين الثانية والثالثة المشار إليهما أعلاه، وقد كتبت الأعداد الكبيرة من المنشورات التي دبجها قلم وليم أوف نوغاريت وقلم بيير دوبوا، لغاية محددة هي كسب التأييد الشعبي لسياسات فيليب، وظهرت المحاججات التي التمسست تأييد وعطف الطبقة الوسطى بشكل أكثر تعاضفاً وتكراراً مما كانت عليه في الحقب الأبعد، وسبب ذلك أن البرجوازية قد صعدت الآن إلى مكانة بات من المرغوب فيه كثيراً نيل تأييدها، وهذه حقيقة أدركها الملوك الوطنيون، ففي أيام الامبراطورية، حتى في أيام لويس صاحب بافاريا، كانت هناك دواعي أقل لمثل هذه التوجهات بالالتماسات، لأن الامبراطورية حافظت على التنظيم الاقطاعي الذي ترك فرصة صغيرة للطبقة الوسطى للقيام بدور سياسي من هذا القبيل، وعلى العكس كان فيليب الرابع بارعاً بما فيه الكفاية لإدراك أهميتها، وهكذا طور آلية

أعطى فيها أعضاء الطبقة البورجوازية قدراً من الاعتراف السياسي، مثلما حدث بالنسبة لمجلسي أعيان سنة ١٣٠٢ وسنة ١٣٠٨، فهنا حوضر عليهم من قبل عملاء فيليب، ووزعت عليهم المنشورات التي تؤيد القضية الملكية، وكان بيير دوبوا حاضراً في كلا المجلسين، وقد كان أيضاً قد تولى كتابة بعض المنشورات، وظهرت الرسالة التي نتولى الآن ترجمتها فيما بين اجتماعي المجلسين العامين.

خلفية تاريخية

ظهر بيير دوبوا على مسرح الأحداث التاريخية في لحظة حاسمة في الصراع فيما بين البابوية والدول الوطنية البطيئة الظهور آنذاك، وفي الوقت الذي انحصر فيه دور دوبوا في هذا الصراع في فرنسا إلى أبعد الحدود، كانت المشكلة نفسها أوسع بكثير، حيث تورط فيها بالفعل كل ملك وطني قد حاول أن يحكم ممتلكاته بمثابة سلطان متحرر من جميع أنواع التدخل من قبل سلطة خارجية، وحقق الوضع الجغرافي وحقائق أخرى في انكلترا، درجة من الوحدة الوطنية كانت أبكر مما حصل في فرنسا، وقد كانت مشكلة السيادة هذه قد انبعثت من قبل من وقت إلى آخر، لكن نادراً ما كانت حادة الشكل مثلما كانت عليه أثناء حكم ادوارد الأول (١٢٧٢ — ١٣٠٧)، وبناء عليه إن الصراع بين فيليب والبابوية، الذي نشط دوبوا خلاله، وكان له دوره فيه، هو وإن كان متواضعاً، ينبغي على هذا النظر إليه بمثابة جزء من صورة أكبر، وحوث هذه الصورة، أكثر من الصراع حول السيادة، لقد شملت الروح المتوثبة وغير القانعة بالأشياء حسبما بدت مؤشراتنا في القرن الرابع عشر، وعمل دوبوا باهتماماته المتنوعة بمثابة واحد من أكثر المتحدثين فصاحة حول هذه التوثبات وعدم الرضا والقناعة، ومن أجل فهم مناسب لأفكاره ولأهميتهم من الضروري تقديم عرض وإن كان مختصراً عن الخلفية المباشرة للعصر الذي عاش فيه وكتب.

ولقد وصلت الاسمية الحسنة التنظيم للحياة في العصور الوسطى ذروتها في القرن الثالث عشر، وشهد هذا القرن فرض الواجهة المدرسية التي حققت كمالها الأعظم في عمل القديس توماس الأكويني، وشهدت شارة انتصار البابوية في الصراع الطويل والمتداخل ضد خصمها الرئيسي، أي الامبراطورية الرومانية المقدسة، وكانت الجامعات في الشمال والجنوب تقوم ببلورة تنظيماتها الإدارية في أشكال استمرت بلا علامات تغيير لمدة قرون، ووصل الأدب الفردي للفروسية والملحمة، والرومانسية، إلى ذروته، وكان هناك نمط من الأدب الأقرب إلى العامة، وفي الغالب اسطوري سفيه، قد بدأ يحقق ظهوره.

واحتوى القرن الثالث عشر هذا نفسه في داخله بذور حركات تولت في النهاية تدمير كثير مما بدا أنه قوي التأسيس، فالحماسة التقوية التي دفعت بآلاف للقيام بالرحلة المرهقة لإنقاذ الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين، بدأت بالزوال، ليحل محلها السعي وراء المطامح التي بدأت بالظهور منذ أيام الحملة الصليبية الأولى، والوصول أخيراً إلى شعور بالخيبة بسبب اخفاق الحروب الصليبية، وصحيح أن الناس تابعوا الحديث والتخطيط لصليبيات جديدة، وهذا هو الموضوع الأساسي في مذكرة دوبوا الرئيسية، التي جاءت بمثابة نداء لصليبية جديدة، واحتوت على اقتراحات تفصيلية لبرنامج اصلاحي جديد يمكنه أن يضمن نجاحها، صحيح هذا لكن صحيح أيضاً أن النداءات من البابوات ومن القادة العلمانيين قد وقعت على آذان صماء، ذلك أن أوروبا الغربية كانت مهتمة أكثر بمسائل مادية، فقد ربحت المدن الايطالية مرباح هائلة من الاتصالات التجارية مع الشرق الأدنى، وقد ضمن لها موقعها الجغرافي احتكاراً فعلياً لهذه التجارة المربحة، وهناك دليل على رفض احتكارهم هذا من قبل الذين توجب عليهم دفع ما اختاره الايطاليون وطلبوه ثمناً لبضائعهم، من تعليقات دوبوا على

جشع التجار (الفصل ٦٧)، فهل ياترى اهتم التجار الايطاليون بأمر أن الذين زدوهم بالبضائع كانوا كفاراً؟ لا، ذلك أنه حتى الكافر التركي كان من الممكن أن يبرهن أحياناً على أنه حليف مفيد.

وكانت الآفاق العقلية لأوروبا الغربية آخذة بالاتساع، وسيكون من الخطأ أن نعزو سبب ذلك كله إلى الحروب الصليبية، أو أن نعزو إليها النصيب الأوفى في عملية التغيرات التي كانت قائمة، ولقد كانت الحروب الصليبية حقيقة هامة في تحريك الأوربيين الغربيين، ونقلهم من الواقع المقاطعاتي الضيق، وكانوا قد تعلموا الدرس الثمين في أن ما كل ما علموه كان صحيحاً، ومن الأدلة على ذلك ما قاله ستيفن أوف بلوا، الذي كان من قادة الحملة الصليبية الأولى، حيث كتب إلى زوجته وقال وهو يشعر بشيء من اليأس: «إن ما قاله بعضهم حول استحالة تحمل حرارة الشمس في أرجاء سورية غير صحيح، لأن الشتاء هناك مشابه جداً لشتائنا في الغرب».

وكان الأفق الجغرافي آخذ أيضاً بالاتساع، فمع نهاية القرن كان ماركو بولو قد عاد من الشرق الأقصى، بعد غياب هناك امتد حوالي العشرين سنة، عاد وقد حمل معه حكايات عن ثروات للتمتع بها، وعن مناظر رائعة تستحق أن تشاهد، ولم يكن ماركو بولو وحده هو الذي قام بمثل هذه الرحلة الطويلة والمرعبة، فقد قام عدد كبير من الأفراد، بعضهم كان مجهولاً، وبعضهم الآخر كان مشهوراً، بالارتحال مثل ماركو بولو، وعدد قليل منهم تركوا لنا روايات مدونة حول مغامراتهم، وكانت البابوية تحلم حول إقامة حلف مع الخان الكبير، الذي ينبغي عليه تدمير المسلمين، لأنه كان حاكماً عملاقاً، وجرى إرسال المزيد من البعثات إلى الشرق لتعميق المشروع، وتم بالفعل تأسيس رئاسة أساقفة في بكين سنة ١٣٠٧.

وهناك أدلة واضحة حول وجود شغف ثقافي، فقد كتب روجر

بيكون بشيء من الازدراء عن كتابات علماء كبار، قدموا إلى الانسانية طرائق جديدة للمعرفة، التي ادعى أنه كان شخصيا المعلم فيها، وجعل المترجمون في اسبانيا وفي جنوبي إيطاليا المعارف الاسلامية متوفرة إلى العالم الغربي، وكان خصوم المعارف الجديدة، من أمثال سيغندي برابنت، يثيرون المناقشات الحية في قاعات المحاضرات في باريس، ومراكز التعليم الأخرى.

أما في مجال الادارة الحكومية، فقد شرعت حقائق جديدة بالظهور، ربما كانت أقل بداهة، لكن لها أهمية قصوى بالنسبة للآفاق السياسية، فقد دخلت الامبراطورية المقدسة في مرحلة كسوف بعد وفاة فردريك الثاني في سنة ١٢٥٠، ثم انتعشت فيما بعد في ظل أسرة هابسبورغ، لكنها ظلت قائمة على القواعد الاقطاعية القديمة، وكانت أهم التغيرات قائمة وأخذة بالحدوث في المملكتين الاقطاعيتين القديمتين، أي في انكلترا وفرنسا، وعوضاً عن أن يكون الملك في أي منهما مجرد «الأول بين قرناء»، بدأ الملوك فيهما في تأكيد الحقوق والامتيازات الملكية، وكان هذا يختلف تماماً عن السيادة القديمة المعترف بها على الأتباع، وبدأ في انكلترا نظام جديد يتعلق بالقانون العام، تولت ممارسته المحاكم الملكية، وكان هذا الذي بدأ في أيام حكم هنري الأول (١١٠٠ — ١١٣٥) قد أخذ شكله النهائي في ظل حكم هنري الثاني (١١٥٤ — ١١٨٩)، وقد تقلص هذا في ظل سلوك رتشارد قلب الأسد، ثم في ظل أخيه الضعيف الملك جون، وتوقف ذلك كله بشكل فعلي بسبب ثورات البارونات أيام هنري الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢)، غير أن هذا النظام جرى توسيعه وإتمامه من قبل ادوارد الأول (١٢٧٢ — ١٣٠٧)، الذي يدعى أحياناً باسم جستنيان الانكليزي، ومع سنة ١٣٠٠ كان الملك والشعب يحكمان معاً من قبل القانون، وقد أصبحت انكلترا أمة.

وفي فرنسا سعدت أسرة كاييه بشكل منفرد، وذلك منذ وصول هيو كاييه إلى العرش في سنة ٩٨٧ حتى وفاة لويس العاشر في سنة ١٣١٦، فما من ملك فرنسي قد مات دون أن يترك وريثاً ذكراً مباشراً ليخلفه، وخلال الحقبة نفسها أخذ كل اقطاع فرنسي هام، يدخل في وقت أو آخر، في الاملاك الملكية، ومع وصول فيليب الرابع إلى العرش في سنة ١٢٨٥، كانت المناطق التي حافظت على استقلالها الاقطاعي هي: كونتيه فلاندرز، ودوقيات: بريتاني، وبيرغندي، وأكوتين، وكانت دوقية أكوتين مملوكة من قبل ادوارد الأول ملك انكلترا.

وترافق تأسيس السلطة المركزية الملكية مع قيام الطبقة الوسطى، التي وجدت بشكل عام أن مصالحها تتوفر أكثر بوجود ملك واحد قوي، بدلاً من وجود مجموعة متداخلة من السادة الاقطاعيين، ووجد الملوك بدورهم في الطبقة الوسطى حليفاً راعياً وثنياً لجهودهم في سبيل تأسيس سيطرة على النبلاء الاقطاعيين، أما في فرنسا فقد توفر اسهام ملحوظ قامت به الطبقة الوسطى في سبيل هذه الغاية، وتم هذا على أيدي طبقة جديدة من المحامين المحترفين الذين تدرّبوا على القانون المدني الروماني، في احدى مالايقل عن ست جامعات، وبدأ ظهورهم كطبقة مع إعادة التنظيمات القانونية التي تولّاها لويس التاسع، وازداد رواج القانون الروماني، الذي دعمت أسسه بقوة المطالب الملكية، وانتشر إلى الشمال من بولونا Bologna ومن الجامعات الإيطالية الأخرى، وقام بشكل تدريجي — لكن لامفر منه — بتدمير النظام القضائي الاقطاعي القديم، وقدم الاختصاص الجديد فرصاً لمهن حياتية مربحة، وكان من الممكن لمحام قدير، أن يأمل حتى — كما فعل دوباوا — في أن يدخل إلى الوسط المغربي لمستشاري فيليب الرابع المقربين، الذي كان من بين أعضائه قانونيين لامعين من أمثال ماريني، وبلازيان Plasian، ووليم أوف نوغاريت.

وكان فردريك بربروسا قد استخدم علماء من مدرسة الحقوق في بولونا من أجل التوسع بسياسته الايطالية، وقدمت مدارس الحقوق في أورلين وفي أماكن أخرى أدوات مماثلة إلى لويس التاسع، الذي أضاف إلى إدارتي الوكيل والنائب القديمتين إدارة جديدة هي ال-en-quetuers، وقد حل هؤلاء محل الرهبان المتسولين كأداة للإشراف على الوكالتين القديمتين، وكان هؤلاء الموظفين الجدد علمانيين من أصل برجوازي، أصبحوا ليس قضائياً فقط بل رجال دولة أيضاً، وساعدتهم معرفتهم الدقيقة بالقانون المدني على تليفق الأسلحة للدولة الوطنية الصاعدة، وقد أصبحوا بشكل فعلي أيام فيليب الرابع نبلاء للقانون، وقد أشير إليهم بمثابة milites legum أو Milites regis، وكان هذا نوعاً من نبالة الثوب، وبحكم كونهم خدماً لمخلصين وأقوياء للملكية عارضوا حكم الدولة من قبل كل من النبلاء الاقطاعيين أو الكنيسة، ووقف ضدهم وتحزب رجال الشريعة الكنسية، مع مفهومهم وتصورهم لدولة دينية ينبغي أن تكون ذات سلطة عليا.

وأسهمت الطبقة الوسطى بدور هام في المسائل العسكرية، لأن الجيوش الاقطاعية لم تعد كافية لتلبية الحاجات المتزايدة للملكيات الوطنية، والتي كانت منذ زمن طويل تتزود بالدعم من قبل جيوش مرتزقة تشكلت بشكل رئيسي من غيرالنبلاء، ومع أن جيوش المرتزقة هذه دفع لها بشكل سيء، لكن توجب على كل حال اطعامها، وألقى الاستخدام المتزايد لوحدات مدفوع لها ثقلاً عظيماً على كاهل خزائن المال المختنقة لتلك الأيام، ولكي يواجه الملوك الطلب المتزايد على السيولة النقدية لجأوا إلى زيادة الضرائب، وجميع الأشكال المالية الموائمة، الأمر الذي قادهم أحياناً إلى صراعات مع الطبقة الوسطى، الممتكدة لثروة قد فرضت عليها الضرائب، وأحياناً مع الكنيسة التي كانت أغنى مؤسسات العصور الوسطى.

ومع وجود ملك أجنبي مثل ادوار الأول مسيطر على أكوطين بمثابة تابع للملك الفرنسي، كان لابد لسياسة التوسع لفليب الرابع من إثارة صراع معه، وفي سنة ١٢٩٤ تفجر الخلاف بالمصالح هذا وتطور إلى حرب مفتوحة، وبحث كل فريق عن حلفاء، وعرض فيليب تقديم العون على سكوتلندا، وبذلك أرسى أساس الروابط بين سكوتلندا وفرنسا التي استمرت حتى أيام ماري ملكة السكوتلنديين في القرن السادس عشر، وبرهن أدولف أوف ناسو، حليف ادوارد، أنه قليل النفع، وأعظم أهمية منه كان كونت فلاندرز، الذي رأى في التحالف الانكليزي فرصة لصد هجوم فرنسي ممكن، واستمرت الحرب لعدة سنوات، ومالبثت أن أنهكت المصادر المالية للفريقين المتصارعين، ولجأ الفريقان وهما في حالة يأس إلى فرض الضرائب على رجال الدين في ممالكهم المحترمة، وجرتها هذه السياسة الى صراع مع البابا بونيفيس الثامن.

الخلاف مع بونيفيس الثامن

شعر بونيفيس الثامن عندما أصبح بابا، بعد استقالة سيلستين الخامس بأنه مدعو إلى إعادة البابوية إلى سالف قوتها ومجدها الذي تمتعت به في ظل حكم إنوسنت الثالث، عندما عبر كل رأس متوج في الغرب المسيحي عن خضوعه إلى ذلك البابا القوي، وكان بونيفيس، وهو ما يزال كاردينالا، قد اصطدم وتخاصم مع اثنين من الكرادلة من أسره كولونا Colonna ، وهما جيمس وبيتر، وكانا قد أنكرا صحة انتخابه، وبناء عليه جردا من منصبيهما وحرما كنسيا، وكان بونيفيس، مثله مثل أسلافه، يأمل بقيام حملة صليبية يتولاها العالم المسيحي المتحد، وعمل في سنة ١٢٩٥ في سبيل إنهاء الحرب فيما بين ادوارد وفليب عن طريق إعلان هدنة، الأمر الذي تجاهله الفريقان، ولهذا أصدر بونيفيس مرسوم Clericis Laicos (شباط ١٢٩٦) حرم فيه على العلمانيين

فرض الضرائب على رجال الدين.

ومن حيث الواقع النظري كان الافراد من اللاهوتيين مع ممتلكاتهم معفيين من المحاكمات العلمانية، ومن الضرائب، وفي الحقيقة سمح البابا في عدد كبير من المناسبات للسلطات العلمانية بفرض ضرائب على رجال الدين في أيام الطوارئ، وقيام التاج بجبايتها، وكانت هذه المبالغ بعيدة عن مقاصدهم الأصلية، ولقد قام كل من ادوارد وفيليب بفرض ضرائب ثقيلة على رجال الدين المحليين دون الحصول على إذن بابوي، وقد وجد المحامون البارعون مع وزراء المال طرقاً لتمويه هذه الضرائب من أجل تجنب الصدام مع حرفة القانون.

وعدّ بونيفيس — الذي كان جيد المعرفة بشرعية القوانين — هذه الضرائب غير عادلة، وأنها تتولى سلب الكنيسة، وقرر إيقاف هذه الممارسة، ولم يحرم المرسوم جميع الضرائب من هذا النوع، لكنه وضع شرطاً أساسياً هو الحصول المسبق على الموافقة البابوية، وجرى تحريم فرض الضرائب غير الموافق عليها من قبل البابا، على رجال الدين، وأرفق ذلك بتهديد الحرمان الكنسي وبفرضه على كل من الدافع والجابي، وجرى بشكل محدد وواضح منع جميع الأساقفة ورجال الدين من دفع مثل هذا النوع من الضرائب، مهما كان اللون الذي تموهت به.

وكانت النتيجة واضحة، هل كانت الدولة الوطنية ذات سيادة؟ وهل يمكن للبابوية المنتصرة في صراعها مع الامبراطورية تحقيق نصر مماثل على الدولة الوطنية الناهضة؟ وكان الخيار أمام ادوارد وفيليب إما الانحناء لإرادة البابا بونيفيس العجوز المتصلب، أو الرفض ومواجهة قوة يمكنها الافتخار بتحقيقها سلسلة لا يمكن مقارنتها من الانتصارات في صراعات مماثلة، وكانت النتيجة من حيث المبدأ محصلة قديمة، لكن خصم البابوية لم يكن هذه المرة الامبراطورية الاقطاعية الضعيفة، بل كانت الدولة الوطنية الصاعدة، المدركة تماماً لشخصيتها،

ويقودها ملك كان يعمل في سبيل الوصول إلى مقاصد عليا، وله مستشارين بارعين، ورجال فيهم مضاء، لا يمكنهم التردد في الوصول إلى غاياتهم، وعمل فيليب الرابع على حشد الرأي العام لتأييده، من خلال وساطة مجالس الأعيان العامة، والمجالس الأدنى مرتبة، ودعمت هذه الجهود بمناشير تطوعية كتبت في الغالب من قبل مجهولين، لا بد أن دوبوا كان من بين أبرز الممثلين.

ورد إدوارد بسرعة، فعندما عرض رئيس أساقفة كانتبري مرسوم Clericis Laicos وطالب بتطبيقه، وأقنع رجال الدين برفض الضرائب المفروضة، أمر إدوارد مسؤول العدالة لديه بأن يرفع بشكل رسمي حماية القانون المدني عن رجال الدين، وتجاهل الملك تهديد رئيس الأساقفة له بالحرمان الكنسي، ولم يكتف بذلك، بل طلب من المخاترة لديه الاستيلاء على بعض الممتلكات الكنسية العائدة لرئيس أساقفة كانتبري، وعندما تشكى رجال الدين إلى المحاكم، جرى إخبارهم أنه بناء على الأمر الذي صدر عن المسؤول الأعلى عن العدالة، ليس لهم مكان في المحكمة ولا يمكن الاستماع إليهم، وانحنى رجال الدين ورضخوا — مع استثناءات — إلى ما لا بد منه، وربح إدوارد الجولة الأولى.

وكانت ردات فعل فيليب أيضاً فورية وقوية، فقد أمر المحامين لديه بوضع مشروع أمرين، يمنع أولهما جميع الأجانب من دخول فرنسا، وبذلك منع أي مندوبين من قبل بونيفيس، قد يرسلهم لفرض مرسومه، وحظر الثاني تصدير أي ذهب أو فضة أو خيول، أو مؤن، أو ذخائر حربية من دون الحصول على إذن حربي مكتوب، واستهدف الحظر على الأعتدة والمؤن إنكلترا، وسدد منع تصدير المعادن الثقيلة ضربة شديدة إلى الموارد المالية للبابوية، التي كانت فرنسا مصدراً هاماً لها.

وواجهه بونيفيس حزب كولونا القوي في روما، ووجدت انكلترا غير الصديقة في الخارج، أنه عملاً سياسياً غير مفيد القيام بتشجيع معارضة ملك فرنسا الحازمة، هذا الملك الذي كان مدعوماً من قبل عدد كبير من رجال الدين الفرنسيين، وبعد مراسلات حادة مخفقة مع فيليب، أصدر البابا مرسوم Inefabilis amor (٢٥ - ايلول ١٢٩٦) اعترف فيه بمشاعر الصداقة العظيمة نحو فرنسا، وأعلن أنه ليس لديه اعتراض على فرض الضرائب على رجال الدين أثناء الطوارئ الوطنية، وذلك إذا ما تم الحصول على موافقته أولاً، وأعقب هذا تنازل آخر ورد في مرسوم Romana mater (٧ شباط ١٢٩٧) الذي أبطل مرسوم Clericis laicos بالسماح بتقديم هبات تطوعية من قبل رجال الدين إلى الملك قبل الحصول على الموافقة البابوية، وجاء التنازل الأخير في مرسوم Etsi de statu (٣١ تموز ١٢٩٧) الذي أعطى فيليب الحق في تقرير وجود طوارئ وطنية تسوغ فرض ضرائب على رجال الدين دون الحصول على موافقة سلفية من البابا، وجاءت خطوة مصالحة أخرى بتطويب الملك لويس التاسع، جد فيليب الرابع (١١ - آب ١٢٩٧).

وبهذه التنازلات أصبح فيليب أكثر انفتاحاً نحو الجهود التي تولاهها بونيفيس للتوسط في الحرب مع ادوارد، وحرص المتصارعان على عد الوسيط الحكم بينهما، أنه شخص بلا منصب وأنه هو بينيديتو كايثاني Benedetto caetani وليس البابا بونيفيس الثامن، ووضعاً أخيراً حداً للحرب بينهما وأنهاها في سنة ١٢٩٩.

وكان كل شيء على السطح نقياً، لكن كانت هناك عاصفة هوجاء تحتتمر وتشكل، ذلك أن المشكلة الأساسية المتعلقة بالسيادة، وهي نقطة الخلاف الأولى بين فيليب وبونيفيس كانت ماتزال معلقة دونها حل، ولقد رحب فيليب بالكاردينالين كولونا، اللذين نفاهما بونيفيس، ولقد

توليا نشر مختلف حكايات القذف والنيل من البابا، واحتجا ضد قانونية انتخابه، وطالبا بعنف بعقد مجمع كنسي للحكم عليه، وانتقم في الوقت نفسه فيليب لنفسه من كونت فلاندرز، بتأمين اعتقاله شخصياً عن طريق الخيانة، وبناء عليه أعلن أن الاقطاع يخص العرش (١٣٠٠)، وقام بعد ذلك بزيارة المنطقة المتملكة حديثاً للمرة الأولى، وازداد نهمه وارتفع شرهه لدى رؤية الثروات والأبهة التي عرضها البرجوازيون الفلمنك الأثرياء مع زوجاتهم، وقد وجد هناك مصدراً غير مستغل حتى الآن لتأمين الموارد للخزينة الملكية.

ومهما كانت الشكوك التي ساورت نفس بونيفيس بشأن قدرته على التعامل مع الملكين الحرونيين، فقد استطاع ضبط الأمور والحصول على التهدئة. من خلال النجاح الكبير الذي تحقق في الاحتفالات الدينية التي تمت في سنة ١٣٠٠، وأعطى تدفق آلاف الحجاج على المدينة الخالدة لنيل المباركة البابوية، بونيفيس الانطباع بأنه يتمتع بالتأييد الجماعي للعالم الكاثوليكي، وكان لكميات الهبات الهائلة التي انصبت فوق المذابح الرومانية، الفضل بدعم الخزينة البابوية، وهكذا، إذا كان المتوجب وضع حد لقوى الملوك الوطنيين، فالآن حل الوقت الموائم.

ويبدو أن فيليب قد اعتمد على التعديلات المتنوعة لمرسوم Clericis Laicos، وبذلك تشجع ومن ثم لم تتوفر لديه نية في إيقاف سياسة بفرض الضرائب على رجال الدين، وعندما تشكى رجال الدين الفرنسيون إلى روما، قرر بونيفيس العمل، لكنه أثار أن يرسل في البداية رسالة انذار إلى الملك، وقد وقع اختياره على أن يكون حامل الرسالة غير المرحب بها، شخصية كانت هي الأسوأ سمعة، لقد اختار برنارد ساسيت Saisset، أسقف بامير Pamiers، وكان عدواً لدوداً لفيليب، وجرى في سنة ١٣٠١ اعتقال برنارد، وألقي به في السجن

بتهمة الخيانة.

وكان هذا بالنسبة لبونيفيس إهانة لا يمكن التغاضي عنها، وقد أصدر في الرابع والخامس من كانون الأول ثلاثة مراسيم، وكان المرسوم الأول هو Salvatos mundi، وقد ألغى فيه التعديلات التي تناولت مرسوم Clericislaicor، وكان المرسوم الثاني وهو الأهم هو مرسوم Ausculata Fili، وفيه تم التأكيد فيه بعبارات واضحة على أن سيادة البابا هي سيادة عالمية على جميع الملوك والممالك، وأطلق عبارة هرطقي على كل واحد يغامر بالرفض، وأضاف ثبناً عدد فيه كثيراً من الاعتداءات التي اقترفها فيليب ضد الكنيسة، واستدعى المرسوم الثالث الأساقفة الفرنسيين إلى الاجتماع والتشاور في روما، لإيجاد الوسائل لإصلاح كل من ملك ومملكة فرنسا ووجهت الدعوة إلى فيليب للحضور.

وقابل فيليب هذا التحدي بمنع رجال الدين الفرنسيين من الذهاب إلى روما، وذلك عن طريق تحديد الحظر على توجيه الأموال إلى روما، ولكي يتصدى لمؤثرات اقتراح عقد المجمع الكنسي في روما، توجه نحو ارضاء العواطف الفرنسية بدعوة مجلس الأعيان العام إلى الاجتماع، وجرى توزيع منشور هوجم فيها لبونيفيس بين النواب، واستمع هؤلاء إلى خطب رنانة ألقاها عملاء فيليب، ويبدو أن جهوداً واعية قد بذلت لتجاوز مرسوم Deum Time المزيف، والقول بأنه أصيل، فقد تولى بيار فلوت Flotte، الذي كان واحداً من كبار مستشاري فيليب، قراءة الوثيقة المزيفة إلى مجلس الأعيان.

وكانت محصلات مؤثرات هذه الجهود لصالح فيليب إلى أبعد الحدود، فقد تبنى النبلاء وأعيان الدرجة الثالثة قرارات حماسية أيدوا فيها القضية الملكية، ووجه رجال الدين رسالة إلى لبونيفيس، لصالح فيليب، يرجون فيها البابا أن يقوم، في سبيل الصالح العام والوثام،

بسحب الدعوة للمؤتمر في روما، ثم كان أن نزلت مصيبة بفيليب من جهة غير متوقعة، فقد وصلت المكوس المالية التي فرضها على البورجوازية الفلمنكية إلى حد ما عاد من الممكن تحمله، ولذلك قام الفلمنكيون في صيف عام ١٣٠٢ بالثورة، ولكي يسحق هذه الثورة بعث فيليب بقوة مرعبة من الفرسان الاقطاعيين، ورفض رجال المدينة الشجعان الانهزام لدى اقتراب الفرسان، وسحبوا صف قتالهم الموجود عند كورتراي Courtrai إلى ما وراء المستنقع، وفي ١١ تموز حمل الفرسان وفقاً لعاداتهم على صف أهل المدينة، وغرقت خيولهم وغاصت في المستنقع، واضطر الفرسان إلى الترحل، وبهذا تمكن رجال المدينة بكل سهولة من تمزيق أعدائهم الغائضين بالوحل.

وكانت هذه الهزيمة الماحقة، وهي أولى الهزائم التي تلقاها فيليب، بالفعل انتكاسة خطيرة، واحتاج فيليب إلى وقت طويل لتعويض الجيش المباد في كورتراي، وكان بيرفلوت، الذي كان أفضل مستشارية وأعظمهم قدرة بين القتلى، وبات هكذا السلم الصعب المعقود مع ادوارد الأول من الممكن خرقه في أي لحظة، وألقى بونيفيس قفاز التحدي، وبات جاهزاً للعمل في كل اتجاه لنيل المنافع.

واجتمع المجمع الكنسي الذي دعا بونيفيس إليه في ٣٠ - تشرين أول لعام ١٣٠٢، وعلى الرغم من الحظر الذي فرضه فيليب، كان عدد كبير وهام من الأساقفة الفرنسيين بين الحضور، وصادق المجمع على اصدار مرسومين، أمر أولهما باصدار الحرمان الكنسي بحق كل واحد يقوم بالتدخل مع الأشخاص الذاهبين إلى روما أو الآيين منها، وكان المرسوم الآخر هو مرسوم unam Sanctam الشهير وتاريخه ١٨ - تشرين الثاني ١٣٠٢، وهو الذي أرسى حق الادعاء البابوي بالسلطة الروحية والدينية، بعبارات واضحة تمام الوضوح، ولم يحدث من قبل قط مثلما حدث الآن في عرض الموقف البابوي بمثل هذا الوضوح

اللغوي، «ولهذا فإن كل من السيفين الروحي والديني، هما تحت سلطة الكنيسة وفي يدها.... زيادة على هذا، من الضروري أن يكون أحد السيفين تحت السيف الآخر، وأن تكون السلطة الدنيوية تحت السلطة الروحية.... ولهذا نحن نعلن، ونقول، ونؤكد على أن الخضوع من قبل كل انسان إلى أسقف روما هو كله ضروري من أجل خلاصه»، وفي نيسان ١٣٠٣، أخبر بونيفيس فيليب بأنه قد حرم كنسياً لمنعه رجال الدين الفرنسيين من حضور المجمع.

وعند الوصول إلى هذه الحالة جرى ابداع استراتيجية في البلاط الفرنسي، وهذه الاستراتيجية تشير إلى أن الملكية قررت أن لاترك حجراً إلا وتقلبه في جهودها لإلغاء تأثير المراسيم البابوية، ولاندرى في عقل من جرى تصميم الخطة، ولعل ذلك كان في عقل فيليب نفسه، لابل من المرجح أكثر في عقل وليم أوف نوغاريت، وقضت الخطة الأصيلة باعتقال بونيفيس، وأن يقوم النائب البابوي بالدعوة إلى عقد مجمع يتولى محاكمة السجين، وبما أن المتأمرين كانوا واعين تماماً ومدركين لأهمية تأييد الطبقات الثلاث في فرنسا، جرى تعديل الخطة، إلى واحدة يرغم فيها بونيفيس نفسه على الدعوة إلى عقد مجمع، وهذه سابقة كان من الممكن أن تنال تأييد رجال الدين الفرنسيين، وكذلك الطبقات العلمانية، لأنه كان من الممكن أن يتردد رجال الدين في الاعتراف بمجمع يدعو إليه انسان آخر لا يحمل اللقب البابوي، وبدأ العمل بالمؤامرة في آذار ١٣٠٣، وللحيلولة دون أي تدخل من قبل ادوارد الأول، جرى إبرام معاهدة معه في ٢٠ - أيار أعاد إليه بموجبها فيليب أكويتين، وكانت الخطوة الثانية هي تحضير الرأي العام، ودشن هذا في اجتماع باريس لمجلس مستشاري الدولة في ١٢ أيار، ففيه أطلع نوغاريت بهجوم حاد على بونيفيس، وقد تبنى الحجة التي أعلنها المنفيان من أسرة كولونا، في أن بونيفيس، لم يكن بابا حقيقياً، لأن لقبه

يعتمد على قانونية استقالة سيلستين الخامس، وكانت النظرية تقول بأن أصوات الكرادلة أثناء الانتخابات البابوية تملئها بالعادة الروح القدس، وعلى هذا كان من معاني استقالة البابا القول بأن الروح القدس قد أخطأ، وهذا وضع لاهوتي لا يمكن تقبله.

وتم التوسع بالاتجاه نحو الرأي العام خلال اجتماع عقد في اللوفر في ١٣ - حزيران ١٣٠٣، وجرى أمام هذا الاجتماع الموسع والجمهور العريض تجديد الهجوم على بونيفيس، وقد قرأ بلازيان لائحة فيها تسعاً وعشرين تهمة مؤكدة ضد البابا، وأعلن فيليب عن قناعته شخصياً بضرورة عقد مجمع عام، وتبنى رجال الدين قراراً أعلنوا فيه عن تأييدهم للعرش ضد جميع الخصوم، وأيدوا أيضاً مطلب عقد المجمع.

ولم يكن بونيفيس خصماً جباناً على الرغم من تقدمه بالسن، وجاء رده في عقد مجلس في أناني Anagni في آب، أصر فيه بشكل مهيب على براءته من التهم التسع والعشرين التي أثّرت ضده بشكل عدواني، من قبل الفرنسيين، وهناك جرى الاعلان أنه يمكن فقط للبابا الشرعي أن يدعو إلى عقد مجمع عام، وتم توجيه الانذار إلى فيليب أنه ما لم يتب ويقطع عن أعمال عصيانه، سوف يتحمل أقصى عقوبة من الكنيسة.

ووصل بالوقت نفسه نوغاريت، مسلحاً برسالة اعتماد من فيليب ومزوداً بمبالغ ضخمة، إلى إيطاليا، حيث شكل تجمعاً مع حزب كولونا، وفي ٧ - إيلول ١٣٠٣، دخل المتآمرون إلى أناني، بمساعدة أعضاء من الحرس البابوي تمت رشوتهم، وشقوا طريقهم إلى حجرة النوم البابوية، ورفض البابا المسن التنازل وقبول مطالبهم، وأصر على موقفه، وفي اليوم الثالث جرى طرد المتآمرين من قبل سكان المدينة.

وصحيح أن حياة البابا حفظت، لقد برهنت صدمه الهجوم أنها كبيرة جداً بالنسبة إلى هذا البابا العجوز، ولقد وجد هذا الرجل الذي

خيل إليه قبل ثلاث سنوات أن العالم راعع عند قدميه، نفسه مطوقاً من قبل الأعداء، فقد تدمرت معنوياته، وفقد أعصابه والقدرة على التحمل، وهنا التمس المساعدة من أسرة الكاردينال أورسيني Orsini في روما، وهكذا جرت مرافقته إلى هناك، ولقد كان متعطشاً للانتقام من فيليب، وسببت جهوده في سبيل الحصول على حلفاء لتحقيق هذه الغاية معادة أسرة الأورسيني، فاحتفظ هؤلاء به سجيناً بشكل فعلي في الفاتيكان، وهناك في الفاتيكان لفظ أنفاسه الأخيرة في ١٢ تشرين أول ١٣٠٣.

وترك موت بونيفيس البابوية في وضع حرج، فهل سيكون هناك خلاف طويل في الاجتماع السري للكرادلة، وهل سيعطي هذا فيليب الفرصة لتقوية أوضاعه من دون تدخل؟ وهل سينتخب الكرادلة رجلاً سوف يتابع الأخذ بالسياسة المتصلبة لبونيفيس التي تبرهن على أنها مأساوية جداً، أم أنهم سوف يختارون واحداً سوف يتبع سياسة المصالحة، ويتولى التسوية مع فيليب؟ وعمل مجلس الكرادلة بسرعة، واختاروا في ٢٢ - تشرين الأول الرجل صاحب الأخلاق اللطيفة، والذي كان القائد العام لطائفة الدومنيكان، وكان البابا الجديد هو الحادي عشر الذي اتخذ لنفسه لقب بندكت، ولعله رغب من وراء ذلك أن يقدم إيماءة بأنه يخطط لاتباع سياسة مصالحة.

وتركت المحاولة المخففة لاعتقال بونيفيس نوغاريت في وضع خطير، فقد صدر بحقه حرمان كنسي فرضته الواقعة بسبب محاربته البابا شخصياً، ولم يكن وضع فيليب بالأحسن، فهو كان ما يزال محروماً كنسياً، كما ما برحت مراسيم بونيفيس المتعددة ضده قائمة وقوية، ولكي يمارس الفرنسيون الضغط على بندكت الحادي عشر، تبناوا استراتيجية تجديد التهم ضد بونيفيس، وهي التهم التي رفعت في حزيران المنصرم، وأصروا على أن حادثة أناني قد نتجت عن تصلب بونيفيس ورفضه المستمر للمطلب القانوني لعقد المجمع، وبات الحال إذا ما أمكن اقناع

بندكت بالقيام بالدعوة إلى مجمع، فلا بد من الاستماع للقضايا والتهم المرفوعة ضد بونيفيس، وإذا ما تمكن الفرنسيون من البرهنة على صحة التهم التي رفعوها، فهذا كان سيعني تبرئة كاملة لكل من فيليب ونوغاريت، الذي سوف يكون في وضع انسان مسيحي جيد، قد حاول تحريك آلية الكنيسة ضد مغتصب شرير، وكان من معاني إدانة بونيفيس إلغاء جميع قراراته ومراسيمه، وكون بونيفيس كان قد توفي ودفن، ما كان له ليغير المسألة القانونية ذات الشأن، وهكذا بدأت الحملة على ذكرى بونيفيس.

وكانت خطوة فيليب الأولى ضرورية لتدبير مصلحة مع البابا الجديد، بندكت الحادي عشر، ومن أجل هذا الهدف عين فيليب بعثة مؤلفة من أربعة أشخاص، كان نوغاريت فيها، هو العضو الرابع، وأعطى إلى أعضاء هذه البعثة لائحتين من التعليمات، وكانت أول التعليمات التي أعطيت إلى الأعضاء جميعاً باستثناء نوغاريت هي أن «يتلقوا» ولا «يطلبوا» التحليل للملك من كل حرمان كنسي قد فرض عليه في الماضي لأي سبب كان، وكانت هذه مسألة بسيطة لا تحتاج إلى عقل نوغاريت البارع، وخولهم التباحث بشأن جميع القضايا القائمة فيما بين فيليب وبونيفيس، ذلك أن مهمة نوغاريت الماكرة كانت الحاجة ماسة إليها، بعد وفاة بيير فلوت، الذي كان أكثر مستشاري فيليب موثوقة.

واستجاب بندكت بسرعة للمطلب الأول، ففي ٢٥ — آذار ١٣٠٤ جرى تحليل الملك وأسرته بشكل رسمي من كل حرمان موجود، وكان الآن بندكت حراً للتباحث مع فيليب دون مضايقة لنفسه وإحراج بالتعامل مع شخص محروم كنسياً، وعندما ظهر نوغاريت أمام البابا، رفض بندكت الاعتراف به، بما أنه كان تحت الحرمان، وقام نوغاريت بالطلب من خلال زملائه منحه «تحليل مشروط»، وجدد طلبه من أجل

عقد مجمع للحكم على بونيفيس، ولكي يتجنب بندكت المضايقة بالقيام بالحكم على سلفه، قدم تنازلات اضافية، فقد ألغى في سلسلة من المراسيم أصدرها في ١٨ - نيسان، و١٣ - أيار، مراسيم بونيفيس ضد الجامعات الفرنسية والكنائس، ومحا جميع المراسيم القائمة ضد حقوق الملك الفرنسي، وحل الأساقفة الفرنسيين، الذين أطاعوا أوامر فيليب بعدم حضور المجمع الروماني لعام ١٣٠٢، وعلن الحرمان الذي أعلنه بونيفيس ضد ليون وبامير، وبالإضافة إلى ذلك منح فيليب العشر لمدة عامين، مع حق التعيين في الوظائف الكنسية التي ستشغر في السنوات الثلاث المقبلة.

وبعدما تنازل بندكت لفيليب واستجاب لكل مطالبه، قرر أن يجعل مثلاً من الذين شاركوا شخصياً في عملية الاقتحام في أناني، فقد أصدر في ٧ حزيران ١٣٠٤ مرسوم *Flagitiosum scelus*، الذي أدانهم فيه بجميع العبارات القاسية جداً، ووضعهم تحت الحرمان، وجرى استدعاء المجرمين للظهور أمامه، لسماع الحكم بحقهم.

ما الذي كان لفيليب أن يفعله؟ فقد كان نصره الشخصي تقريباً كاملاً، وكان نوغاريت الوكيل الملكي الهام، الوحيد الذي ترك خارج التسوية، فهل سيفسد الملك التسوية التي صنعها مع البابوية باستمراره في دعم نوغاريت، أم أنه سيرميّه إلى الذئاب؟ وعمل فيليب بسرعة قصوى وبشكل حاسم، فقد جرى الاحتفاظ بنوغاريت في الخدمة، ومنح جائزة مالية كبيرة «من أجل خدماته المخلصة في قضايا ذات أهمية قصوى للعرش وللدولة»، وقبل أن يتمكن بندكت من اتخاذ المزيد من الخطوات الاجرائية ضد نوغاريت والمتورطين معه، توفي في ٢٧ تموز ١٣٠٤، كما يقال لأكله كميات كبيرة من التين الناضج.

وكان من الممكن تأمين المزيد من المنافع بانتخاب بابا مطواع للارادة الفرنسية الملكية، وكان هذا في ذهن فيليب، فقام بممارسة الضغط على

الكرادلة الفرنسيين، وقام الاثنان من أسرة كولونا بممارسة بعض التأثير على زملائهما المتقدمين، وذلك على الرغم من عدم اعادتها بعد إلى مجلس الكرادلة، وكان المؤيدون لتوجيهات بونيفيس الثامن كثر إلى حد قدرتهم على منع الاختيار الفرنسي، لكنهم لم يكونوا قادرين فيما بينهم على الاتفاق حول مرشح، ومضى شهر تلو شهر بدون أمل في الوصول إلى اتفاق، وأبدع أخيراً الكاردينال نابليون أورسيني خطة، اتفق بموجبها عشرة من الكرادلة على اختيار واحد من ثلاثة مرشحين يتولى تسميته، والذي جرت تسميته من بين هؤلاء كان برتراند دي غوت Got، رئيس أساقفة بوردو، وكان على هذا من الرعايا الانكليز، وكان يدين بترفيعه إلى بونيفيس الثامن، وكان قد تخاصم مع أخي فيليب، شارل أوف فالويس Valois، وقد حضر المجمع الروماني لعام ١٣٠٢، على الرغم من رغبات، الملك.

ثم ما الذي تبع هذا ليس واضحاً تمام الوضوح، وقد جاءت من عند فيلاني Villani حكاية ذكرت أن واحداً من عملاء فيليب أسرع متوجهاً نحو الشمال حاملاً الأخبار، وأن فيليب قد عقد اجتماعاً سرياً مع برتراند وعده فيه بالبابوية مقابل بعض التعهدات المحددة، وبعض الخدمات الأخرى سيكشف عنها فيما بعد، هذا وهناك حاجة إلى بينات مقنعة لحكاية فيلاني هذه، وفي الحقيقة هناك بعض الأدلة التي تقول العكس، إنما مما لاشك فيه أن برتراند يدين بانتخابه إلى نفوذ الملك، وكان فيليب رجلاً دسلياً، وكان من غير الممكن له شخصياً أن يقدم مثل هذا التأييد، من دون نوع من التفاهم معه، ومهما كانت حقائق الأمور، لقد جرى اختيار برتراند بابا في ٥ — حزيران ١٣٠٥، وقد اتخذ لنفسه اسم كليمنت الخامس، وعلى الرغم من هلع الكرادلة الطليان الكامل، دعا مجلس الكرادلة إلى الاجتماع في ليون من أجل تنويجه (١٤ — تشرين الثاني ١٣٠٥) واتخذ أخيراً سكناً له في أفينون في عام

١٣٠٩، وهكذا بدأ السبي البابلي.

قضية الداوية

عندما وصلت مشكلة بونيفيس إلى هذه المحطة، تمازجت مع الهجوم على طائفة الداوية، وكانت علاقات فيليب بالداوية علاقات حميمة حتى سنة ١٣٠٥، وكان مقرهم الحصين في باريس قد اتخذ مستودعاً للموارد الملكية المالية حتى بعد تأسيس الخزنة الملكية في اللوفر، وجرت العادة لدى مواجهة الملك الفرنسي لمشاكل مالية ومصاعب (وكانت هذه هي الحالة الطبيعية للملكية الفرنسية) اقراضه المال، وقد أيد الداوية الملك فيليب ودعموه في صراعه مع بونيفيس الثامن سنة ١٣٠٢م، لابل إنه عندما سادت الفوضى العامة، اتخذ لنفسه ملاذاً في احدى قلاع الداوية.

لكن لماذا انقلب فجأة ضدهم، هذا أمر ليس من السهل تأكيده، ومن الصعب أن نصدق أن انسانا امتلك سمات فيليب وعبقريته وفطنته كان من الممكن أن يصدق الحكايات التي أشيعت حول الداوية، فيما يتعلق بانحطاطهم الخلقي، لابل فيما يتعلق باتهامهم بالهرطقة، ومهما يكن الأمر، لقد أمسك الملك بلهفة بمثل هذه الاشاعات، واتخذها ذريعة من أجل تدميرهم، ويتوصل الانسان إلى نتيجة أنه عندما انتشرت هذه الاشاعات المشوهة للسمعة والتأمرية، ووصلت إلى الانتباه المباشر، إما انتباه فيليب أو انتباه واحد من العقول اليقظة بين مستشاريه، رأى الفرصة المناسبة لربح التاج مالياً بمهاجمة هذه الطائفة الشاذة القابلة للمهاجمة، وفي الوقت نفسه إزالة عقبة كبيرة في وجه السلطة الملكية المطلقة، ولم يكن من الممكن من حيث المنطلقات للقيام بمثل هذا الهجوم تقديم سبب قانوني عادي من التاج، فذلك لم يكن له من وزن، وكان ذلك ممكناً فقط كاثوليكية عن طريق البابا، فهذا كان من الممكن لفيليب أن يأمل بشيء من النجاح لحملة ضد مؤسسة بدت بالمعايير المعاصرة آنذاك معصومة تماماً.

وتم إعداد المؤامرة ضد الداوية وتأصل ذلك في سنة ١٣٠٥، حيث يقال، كما يبدو، بأن فرداً مجهولاً اسمه اسكوي دي فلويرانو أوف بيزير Esquieu de Floyrano of Beziers قد قدم إلى جيمس الثاني صاحب أراغون بعض البراهين حول ممارسات شاذة يمارسها الداوية، وكان يأمل من وراء ذلك الإخبار نيل جائزة مالية، وقد برهن جيمس الثاني على حذره، فذهب اسكوي إلى فرنسا حيث قدم الصراع بين الملك والبابوية فرصة أفضل له، وحملت هنا اتهاماته لتوضع أمام الملك فيليب الرابع، الذي عمل هو ونوغاريت على تحويلهم لصالح العرش.

وكان كليمنت الخامس، مثله مثل بابوات ذلك العصر، مهتماً في تجديد مشاريع الحروب الصليبية، ففي خلال إقامته في ليون من أجل التتويج جرى التباحث حول حملة صليبية بينه وبين فيليب، وحمل الملك معه الاشاعات التي سمعها، وكان من البديهي إذا أريد بالفعل التخطيط لحملة صليبية، من الضروري التشاور مع المنظمات العسكرية، وبناء عليه استدعى كليمنت للاجتماع به في سنة ١٣٠٦ المقدم الأعلى للاستشارة مع جاك دي مولي مقدم طائفة الداوية، ولعقد مؤتمر في بواتيه، وفي نيسان ١٣٠٧، وضع فيليب الاتهامات ضد الداوية أمام المجلس الملكي، بهدف نيل تأييد أعضاء المجلس في حملة تشن ضد الطائفة.

وفي الوقت الذي كان فيليب فيه متظاهراً بالبحث في مسألة الحملة الصليبية مع كليمنت ودي مولي، ويعبر عن اهتمامه بشأن الاشاعات المتعلقة بالطائفة، كان نوغاريت يعد الأرضية من أجل هجوم مكشوف ضد الداوية، وكان أن يقوم التاج بالمبادرة في تقديم الاتهامات، يمكن أن يعرض فيليب لاتهامات مضادة، من أنه كان يقوم بعمل تأمري، ولهذا قام نوغاريت في ١٣٠٥ بهدوء بالإعداد لاعتقال اثنين من أعضاء الداوية السالفين، وذلك بدون أدنى ضجة، وكان من المفترض تقديم

هذين الداويين السالفين في اللحظة المناسبة للشهادة، وبذلك يوفران على فيليب حرج المبادرة بتقديم التهم.

ومارس فيليب في صيف ١٣٠٧ المزيد من الضغط على البابا ليتخذ اجراءً في قضية الداوية، وكان الملك منذ وقت انتخاب كليمنت يطالب أن يقوم البابا باستدعاء مجمع كنسي عام ليتولى محاكمة بونيفيس الثامن المتوفى، بتهم كان نوغاريت مع رجال الملك الآخرين يقومون بإعلانها ونشرها على رؤوس الأشهاد، هذا ولم يكن كليمنت قط قوي الارادة جداً، ولم يكن أيضاً بصحة جيدة، ولهذا أمل بتجنب هذا الوضع المخرج بتقديم المزيد من التنازلات لفيليب، وبناء عليه وافق في آب على البحث في قضية الداوية، وبذلك ربح فيليب نقطته الأولى.

وكان القيام بالبحث والتقصي بشكل بطيء ومنظم من قبل البابوية لايلمي الرغبات الملكية، وكانت التهم الموجهة للداوية تتضمن شكوكاً بالهرطقة، الأمر الذي يعني احضار المتهم أمام محكمة للتفتيش، ولم تكن محاكم التفتيش ذات حظوة في فرنسا، وكان فيليب نفسه قد نال بعض الشعبية باصداره مرسوماً في كانون الثاني سنة ١٣٠٤، عين بموجبه لجنة ملكية توجب عليها فحص قضايا جميع المسجونين من قبل محكمة التفتيش، وتحرير كل من توفرت أرضية كافية لتحريره، وكان إذا ماتضمنت الشكوى ضد طائفة الداوية وأفرادها تهمة الهرطقة، فان الاجراء القانوني يتوجب أن يكون تحت ادارة محكمة التفتيش التي كان على رأسها همبرت كاهن فيليب، وكان من المؤكد أن واجب الملك المسيحي القيام بإزالة الهرطقة من ممالكه، ويمكن للانسان أن يتخيل رؤية فيليب ونوغاريت وهما يضحكان مرحاً باللسان وبالتعابير، لتمكنهما بوسائلهما وخداعهما من تحويل الاجراءات القضائية للعصور الوسطى لصالح مقاصدهما المظلمة.

وأخذت الاشاعات تنتشر وتقول بأن أعضاء طائفة الداوية سوف

يمثلون أمام محاكم التفتيش، وهكذا قيل بأن عدداً قليلاً من الداوية قد بادروا إلى الفرار، ولهذا بات من الضروري اتخاذ إجراء سريع، وجرى ترفيع نوغاريت إلى مرتبة الحافظ للختم العظيم، وذلك من أجل هذا المقصد، وقد أدى دوره بشكل جيد، وختم بتاريخ ٢٢ - أيلول ١٣٠٧ صياغة (فعلياً قبل اسبوع) تعليمات وزعت على جميع السلطات المسؤولة، قضت باعتقال جميع أفراد الداوية في فرنسا، ووقعت الضربة في الصباح الباكر ليوم ١٤ تشرين أول، وكان هناك قليل من الفارين، ولم تتوفر أعمال مقاومة، وسجن المعتقلون من الداوية في سجون منفردة مغلقة، دون توفر الفرصة للتشاور مع بعضهم بعضاً أو مع رؤسائهم، وكان من بين المعتقلين دي مولي، المقدم الأعلى، الذي كان قبل يومين بصحبة فيليب، حاضراً مأتماً أقيم من أجل زوجة شارل أوف فاليوس.

وأوجدت المفاجأة في العمل وأثارت دقته غضباً عاماً، ولكي يطمئن الجمهور الشعبي، ومن أجل إثارة مواقف معادية ضد الداوية، دعا فيليب في اليوم نفسه الذي جرى فيه الاعتقال إلى اجتماع في نوتردام ضم أعيان رجال الكهنوت والعلمانيين، حيث جرى استعراض المشكلة كلها، وتم الاعلان عن التهم، وعقد في اليوم التالي اجتماع مماثل في اللوفر كان أكثر شعبية بشخصيات الحضور.

وكان استخدام التعذيب لانتزاع الاعترافات، في أثناء محاكمات الهرطقة أمراً قانونياً تماماً، وهكذا توجب على ذوي الحظ السيء من الداوية، الذين كانوا مضرب المثل بأنفتهم وبتكبرهم، أن يخضعوا إلى آلام مجريات محكمة التفتيش، وفي ظل هذه الضغوط، أو بمجرد التهديد باستخدامها اعترفوا بكل نوع من أنواع الجرائم، من ذلك مثلاً أنه لدى قبول المرشح الجديد كان عليه إنكار المسيح ثلاث مرات، وأن يبصق على الصليب، كما كان العضو القديم يتعانق مع المرشح الجديد بشكل

غير لائق، يضاف إلى هذا كان الحزام الذي يلبسونه كجزء من لباسهم النظامي، مكرساً للكفر، لأنه كان يلف حول رأس صنم كانوا يتولون عبادته في بيعهم، ومعنى هذا كان رهبان الداوية لا يؤمنون بقداسة المذبح، وكان مطلوباً منهم جميعاً الحصول على الأملاك لصالح الطائفة بأية وسيلة من الوسائل، عادلة أو ظالمة، وأعلن بعضهم البراءة شخصياً، ومع هذا اعترفوا بأن الانتهاكات المذكورة أعلاه كانت عامة وشأننا عادياً داخل الطائفة.

وكان كليمنت قد استبد به الرعب، ليس بسبب لائحة الانتهاكات، التي كان يعرفها من قبل من خلال مؤتمرات كان قد عقدها مع الملك، بل بسبب السرعة في استخدام السلطات المدنية وبشكل عنيف جداً ضد طائفة كانت من الناحية الشرعية تحت الاشراف القضائي للبابا، ولا شك أنه حين وافق مكرهاً على التحقيق مع الطائفة، لم يكن يتوقع مثل هذه الاجراءات القاسية جداً من قبل التاج، ولهذا علق في أوائل عام ١٣٠٨ أعمال محاكم التفتيش، ونقل المتهمين من الداوية ليكونوا تحت سلطانه القضائي المباشر، وأمر كذلك بنقل بعض الشخصيات الرفيعة من الداوية ليكونوا تحت حفظه الخاص في بواتييه، ولسوء حظ كليمنت، تعرضت استراتيجيته الأخيرة هذه إلى انتكاسة، فقد تمكن واحد من الداوية من الفرار من بواتييه في شباط، وبات إذا كان البابا عاجزاً عن الاحتفاظ بحفنة من رجال الداوية خلف الباب والقفل، فكيف له أن يسوغ مطلبة باعتقال المئات وسجنهم، وهم الذين كان فيليب ملقياً بهم في سجن لا أمل بالخلاص منه؟ وأمر كليمنت بسرعة بالبحث عن الفار، وقدم جائزة قدرها عشرة آلاف فلورين من أجل اعتقاله.

والآن وقد باتت قضية الداوية تحت الاشراف المباشر للبابوية، كانت الخطوة الثانية التي اتخذها فيليب هي توجيه استفسار إلى جامعة باريس،

سائلاً: تحديد صلاحيات السلطات المدنية في قضايا هرطقية صارخة، وسأل أيضاً عما إذا كان الجرم المعترف به من قبل الداوية يشمل امتيازاتهم اللاهوتية، وهل يجوز السماح للطائفة بالبقاء في حالة العثور على عدد ضئيل من أفرادها أبرياء في مقابل المئات الذين اعترفوا بجرمهم، وما الذي ينبغي فعله بالنسبة لممتلكاتهم، فهل يتوجب تكريسها لهدفها الأصلي، أي الأرض المقدسة، أو من الممكن في ظل الظروف القائمة مصادرتها من قبل السلطة العلمانية، وردت الجامعة برد حذر، حيث ذكرت فيليب بأن طائفة الداوية كانت طائفة دينية، وهي على هذا تحت الاشراف القضائي اللاهوتي، أي أنه يمكن للسلطات المدنية في حالات الطوارئ اعتقال هرطقة، لكن مع النية بتسليمهم إلى محكمة لاهوتية، أي أن الاعترافات كلها تسوغ تحقيقاً داخل الطائفة نفسها، أي أن الذي ينبغي القيام به هو اتخاذ اجراءات للتأكد من أن الذين اعترفوا بالجرم لم يفسدوا الرهبان المحتملة براءتهم، وهذا يعني أنه بات من الضروري حراسة ممتلكات الطائفة، لضمان تطبيق الأهداف التي من أجلها كرست بالأصل.

وكان هذا كافياً بالنسبة إلى فيليب، ففي اليوم نفسه الذي تسلم فيه الجواب من الجامعة، وجه الملك الدعوة لاجتماع مجلسه العام الثاني للأعيان في تور في أيار ١٣٠٨، ومثلما كان عليه الحال بالنسبة لمجلس ١٣٠٢، جرى استدعاء هذا المجلس للاجتماع ليس من أجل تقديم النصيحة إلى الملك، ولا من أجل تأمين موارد مالية، بل كانت مهمة المجلس الآن أن يعمل بمثابة صوت دعائي عريض لتمجيد الملكية، التي هي المدافع عن الإيمان، ولحشد تأييد وطني من أجل الهجوم على الداوية، ومعلوماتنا عن مجريات أعمال الاجتماع ضئيلة، والذي نعرفه أن الطبقة الثالثة كانت حسنة التمثيل، وكان رجال الدين مكرهين بالمشاركة في الهجوم على طائفة دينية، لكنهم خافوا من معاداة الملك،

وكان عدد كبير منهم ممثلاً بالتفويض وبالنيابة، وأخبر نوغاريت، الذي عمل وكيلاً لعدد من رجال الدين، الملك فيليب بأن المجلس قد أيد الموقف الملكي بالاجماع تقريباً.

وكان من بين أعضاء الطبقة الثالثة الذين كانوا حضوراً في تور، بيير دوبوا، وكان قد صار أكبر جرأة، وذلك بتقدم السنوات، وقد أمسك بسرعة حقيقة أن أمل فيليب بالنجاح في قضية الداوية قائم في ارغام كليمنت، فكتب رسالة باللغة العامية بعنوان «احتجاج الشعب الفرنسي»، وكان صلب هذه الرسالة مجرد هجوم على كليمنت بسبب موقفه المعيق في قضية الداوية، وأشفع ذلك بنقد حاد لموقف المحاباة الذي اتخذته البابا، وهاجم في منشور آخر كتبه في السنة نفسها، حمل عنوان «قضية الداوية» طائفة الداوية بعبارات قاسية جداً، ودعا الملك لاتخاذ اجراءات شديدة جداً ضدهم.

ومن جديد تراجع كليمنت أمام الضغط، ففي اجتماع كنسي عام عقد في القصر الملكي في بواتيه يوم ٢٩ - أيار ١٣٠٨، بحضور الملك، وأعيان الكنيسة والدولة، جرى عرض الموقف الملكي بشكل رسمي ضد الداوية، وتولى عرضه بلازيان، ووقف نوغاريت المخطط الاستراتيجي الرئيسي في الخلف لأنه كان مايزال تحت الحرمان البابوي، واستعرض بلازيان القضية كلها، وأوضح أن فيليب كان مكرهاً في تصديق التهم، ولذلك اضطر لأن يطلب من محكمة التفتيش التحقيق بالقضية، وأعلن أن فيليب الذي هو الملك الأقوى على وجه الأرض، قد عمل بموجب دوافع سامية، ومقاصد عليا، فلقد كان واجبه المسيحي يملي عليه اتخاذ اجراءات ضد الطائفة، التي تبرهن على إجرامها بالاعترافات التي أداها أفرادها، وليست لديه نوايا نحو ممتلكات الداوية، بل تولى بكل بساطة المسؤولية حتى يتم التوصل إلى حل مناسب بشأنها، وختم بلازيان كلامه بتهديد مبطن لكليمنت، فيما

إذا تقاعس بالعمل، وعندما تولى كليمنت الرد، استعرض أخبار السمعة الجيدة التي تمتع بها الداوية من قبل، ووعد بإقامة محكمة خاصة من أجل محاكمة الداوية، لأنه ليس من عادة الكرسي المقدس العمل بتهور، فعندما تنهي المحكمة تحقيقاتها، سوف يصدر الحكم، ويعلنه شخصياً.

وتم تشكيل المحكمة وأعطيت الصفة الشرعية، وشرعت في تفحص المزيد من الداوية، وبما أن فيليب كان يستهدف إدانة الطائفة، وليس الأعضاء فيها فقط، جدد اصراره على تجريم بونيفيس، وطالب باخراج جثته من القبر حتى توضع بالعراء ومن ثم تحرق، ويلقى رمادها بالهواء، وطالب أيضاً بتحليل نوغاريت، مع تعهد من كليمنت بعدم مغادرة فرنسا، وازداد الضغط على كليمنت برفع قضية ملكية ضد الأسقف غوشارد Guichard أسقف تروي Troyes، وتم العثور على شاهد اتهم الأسقف بالمسؤولية (في ٢ نيسان ١٣٠٥) عن موت الملكة الفرنسية جين أوف نافار، وقد ذكر هذا الشاهد بأنه رأى الأسقف، يقوم بمساعدة ساحر، بصنع تمثال من الشمع عمده على أنه جين، وقام الساحر بعد ذلك بطعن التمثال ومن ثم جرى رميه في النار، وقد قيل بأن هذا الحادث قد وقع قبل وقت قليل من وفاة الملكة في ١٥ - آب ١٣٠٨، وجرى اعتقال غوشارد من قبل رئيس أساقفة باريس، الذي بعث به إلى الملك.

وقام كليمنت بتقديم المزيد من التنازلات، بأمل ارضاء فيليب، وذلك مع أنه حافظ على اجراء يتعلق باستقلاليته بإصراره على أن مصير الطائفة نفسها، يمكن أن يتقرر فقط من خلال مجمع كنسي، وافتتحت محكمة لسماع الاتهامات ضد بونيفيس في أفينون يوم ١٦ - آذار ١٣١٠، حيث استنفد المحامون طاقاتهم وعبقرياتهم، في استئنافات واستئنافات معاكسة لمدة سنة كاملة، ووافق فيليب أخيراً على اسقاط التهم، التي جاءت بمثابة مجرد وسائل ضغط على كليمنت، وفي المقابل

أصدر كليمنت يوم ٢٧ نيسان ١٣١١ مرسوم Rex gloriae ، وهو مرسوم أكد فيه بالتحديد براءة فيليب وحسن نواياه، وأمر بالغاء جميع العقوبات المتعلقة بواقعة أناني، وشطبها من السجلات البابوية، وتلقى نوغاريت absolutio adcautelam مشفوع بـ Poenitentea ad Cautela ، وقد توجب عليه حتى يكسب الشرعية لتحليله المشاركة في الحملة الصليبية التي كان يجري التخطيط لها، وأن يبقى في فلسطين حتى يتم الافراج عنه بعفو بابوي، وبالإضافة إلى هذا كان عليه، أو على ورثته القيام ببعض رحلات الحج المحددة .

وجرى بعد مرور عدة أيام التوصل إلى تسوية سياسية، فقد جرى عقد تحالف بين الامبراطور هنري السابع، وروبرت صاحب نابل Na- ples ، وكان هذا الحلف معاديا للمصالح الفرنسية، فبموجبه كان روبرت سيتسلم الأرليت Arelate ، وهو الإجراء الذي عطله كليمنت بتحريمه التنازل عن الأرليت لأي جهة إلا للكنيسة، وقبل أن يغادر كليمنت أفنون دفع مبعوثو الملك إليه مائة ألف فلورين، مقابل جهوده.

وتقرر مصير طائفة الداوية من قبل مجمع فينا، الذي افتتح في يوم ١٦ تشرين أول ١٣١١، وألغى مرسوم Vox in excelso (٢٢) — آذار ١٣١٢) بشكل رسمي الطائفة، وقد تلي أمام المجمع في ٣ — نيسان، وكان وقتها فيليب جالسا على يمين البابا، وما من أحد تجرأ على الجهار بالمعارضة، وقد بقي أربعة من كبار رجالات الداوية، بما فيهم دي مولي وكارناي Charnai في السجن حتى ١٩ — آذار ١٣١٤، عندما جرى تعيين لجنة بابوية لتقرير مصيرهم ، وحكمت اللجنة عليهم بالسجن مدى الحياة، وتلقى اثنان من الداوية الحكم عليهما بصمت، بينما احتج دي مولي وكارناي بصوت مرتفع، وأعلنا عن براءتهما، وأوضحا أن اعترافتهما قد انتزعت منهما بالتهديد بالموت، وبدا الأمر وكأن اللجنة قد تأثرت، فقررت معاودة الاجتماعات بنية تفحص

القضية بشكل أعمق في اليوم التالي، وأعيد الداوية بشكل مؤقت إلى السجن لدى عمدة باريس، وجرى إخبار فيليب بهذا التطور الجديد، وبعد التشاور مع مجلسه الاستشاري الملكي، بغياب أعضائه اللاهوتيين، أمر بإحراق الداويين المتمردين، وجرى تنفيذ الأمر في ذلك المساء بالذات قبل أن تتمكن اللجنة البابوية من اتخاذ أي إجراء إضافي.

وربحت الملكية الوطنية في صراعها مع البابوية نصراً ساحقاً مثلما كانت البابوية قد حققت ونالت من الامبراطورية منذ مضي نصف قرن، فالآن لم يقتصر الأمر على تقرير حل كل نقطة من القضية لصالح الملكية، بل جاءت ترقية الكرادلة الفرنسيين لتضمن — كما بدا — استمرار خط التعاطف البابوي تجاه الفرنسيين، ذلك أن البابوات سوف يستمرون في السكنى في أفينون تحت ظل الملكية الفرنسية، وجاء الحادث التاريخي في انقطاع خط ولادات الذكورة في أسرة كاييه بوفاة أولاد فيليب ليشكل حقيقة هامة في تدمير كثير من صورة واجهة الواقع السياسي الذي أوصله فيليب الرابع إلى الكمال، ومع هذا، إنه على الرغم من الفوضى التي أعقبت مائة سنة من الحروب الأهلية والخارجية نجحت الملكية الفرنسية في الحفاظ على بعض معايير الوضع التي تم الحصول عليها أثناء حكم فيليب.

ولدى تفحص أعمال فيليب ومستشاريه، تملك الانسان الدهشة تجاه اللامبالاة الدينية ومظاهر الرياء، مما يتواءم أكثر مع الروح العلمانية لعصر النهضة، من توائمه مع التقوى التي ضرب بها المثل في العصور الوسطى، ولا يمكن عدّ إصرار نوغاريت على الحصول على التحليل عملاً معاكساً وبينه مضادة لهذا التفسير، فقد كانت الأعراف السائدة تجعل من الانسان المحروم كنسياً منفيّاً اجتماعياً، ولهذا أراد رفع الحرمان، هذا ولا توجد أدنى بينة أنه اهتم بخلاص نفسه، وبما أنه أُنذر من قبل البابا بأن قانونية تحليله وتطبيقه يعتمد على تنفيذ بعض

الشروط، جاء تحرّكه الوحيد لخدمه هذا المقصد باصدار مذكرة جديدة بالحث على الحملة الصليبية، والقول بأنه لو عاش أطول (مات في نيسان ١٣١٣) لأمكنه انجاز أكثر، قول غير مقنع في ضوء أعماله ونشاطاته.

في مثل هذه الأجواء عاش بيير دوبوا، وكتب مناشيره، وسعى نحو قبول اقتراحاته بالاصلاح، ولم يتسلم دوبوا قط منصباً له مسؤوليته في الدولة، مثلما فعل بيير فلوت وبلازيان، ولم يكن مستشاراً مقرباً من الملك مثلما كان نوغاريت، هذا ولم يكن دوبوا قادراً على إدراك ضرورة قيامه بقصص أطراف أشرعته حتى يستطيع الإبحار والجواز وسط معيقات وعقبات تيار السياسات الأوربية، ولأنه كان متدينا على عكس نوغاريت الذي كان لامباليا، فقد عبر عن أفكار كان من شأن قبولها القطع عميقاً والمضي داخل التنظيم الأوربي، أكثر من أي شيء جرى اقتراحه من قبل معاصريه الذين كانوا في مواقع أكبر للمسؤولية، فقد بذل نوغاريت غاية جهده للدفاع عن السلطة الملكية في فرنسا وللرفع من شأنها، وكان دوبوا يود أن يجعل من الملك الفرنسي سيداً لكل من الشرق والغرب، وقاتل فيليب مع مستشاريه التدخل البابوي في السياسات الوطنية، وبناء عليه أراد دوبوا انزال الكنيسة وارجاعها إلى وضع أسقفية بدائية فقيرة، وجعلها مجرد قوة روحية.

أفكار في كتاب استرداد الأرض المقدسة

يتألف كتاب الاسترداد من قسمين، ويحتوي القسم الأول الفصول من ١ - ١٠٩، وهو حين وجهه إلى ادوارد الأول ملك انكلترا، قد أراد بشكل واضح انتشاره العام بين الحكام الأوربيين، مع تحفظ من جانب الملك الفرنسي، وكان هذا أمراً من السهل تدبره وترتيبه بتغيير بعض العبارات هنا وهناك، وقيد دوبوا أفكاره وحصرها في القسم الأول من الرسالة للحديث عن اقتراحات ذات طبيعة عامة، مثل موضوع الحملة الصليبية، والسلام، واصلاح الكنيسة، والتعليم،

وتحدث بعبارات لا يمكن أن تسيء إلى المشاعر الوطنية في البلدان الأخرى، فنادرًا ما ذكر فرنسا وملكها، وكان القسم الثاني الذي حوى الفصول من ١١٠ حتى ١٤٢، ذا طبيعة خاصة قصد أن يطلع عليه فيليب وحده، وهنا أطلق دوبوا العنان لغلوه بالوطنية الفرنسية، وأوضح كيف أن مملكة فرنسا وحكامها سوف يستفيدون من تبني اقتراحاته، وبين اجراءً يمكن أن يجعل الملك الفرنسي سيداً لكل من الشرق والغرب، بما في ذلك الامبراطورية الاغريقية وبلاد الشام والشرق العربي.

ومن حيث التكوين كان كتاب الاسترداد كتاب التماس ودعوة إلى حملة صليبية لاستخلاص فلسطين من أيدي المسلمين، لكن هل رغب دوبوا بالفعل وبشكل أصيل بقيام حملة صليبية، أو أن شكل دعوته لم يكن سوى مجرد مركبة موائمة للتعبير عن أفكاره حول حشد من المسائل لها ارتباط بعيد بمثل هذا الهدف؟ ومن خلال دراسة أفكاره واستعراضها في ضوء الحوادث المعاصرة قد أقتنعت أن رغبته من أجل حملة صليبية كانت أصيلة، لكنها كانت مرفقة برغبة مساوية بالأصالة للرفع من شأن الأمة الفرنسية وملكها، فقد أسهم الفرنسيون بدور هام جداً في جميع الحملات الصليبية المتقدمة، وليس دون سبب مسوغ قام بونار Bongars باعطاء ما جمعه من مواد حول الحروب الصليبية عنوان Gesta dei Per Francos، فمن كان في سنة ١٣٠٠ من القوى الأوروبية غير الفرنسية يمكنها أن تأخذ بزمام المبادرة في حملة صليبية جديدة؟ وإذا ما قام الملك الفرنسي ووضع نفسه على رأس مثل هذا الجهد، أولاً يكون وقتها جديراً بنيل بعض المنافع المادية من خلال بذل الدماء الفرنسية مع الأموال؟ وليس من الضروري تبيان أنه كان هناك حديثاً عالمياً حول حملة صليبية، لكن السؤال كم من ذلك كان أصيلاً؟ وأن نقول بأن رجال الدولة والملوك قد تولوا رعاية التفكير في جهد عام

لإنقاذ الأرض المقدسة، في ذلك مجافاة كبيرة للحقيقة، ومع هذا مسؤوليتنا محصورة هنا مع مخطط نظري وليس مع رجل دولة.

وبعد سقوط عكا (١٢٩١)، كان جل الدعاة إلى حملة صليبية جديدة مدركين أن هجوماً جبهوياً على ساحل فلسطين، سيكون محكوماً عليه بالاخفاق، وقد حولوا انتباههم إلى امكانية التحرك على الجناح، وجرى تحويل بعض هذه الأفكار إلى عمل، فقبل خمس عشرة سنة من كتابة دوبوا للاسترداد، جهز البابا نيقولا الرابع اسطولاً مكوناً من عشرين غليوناً، وقد اندمج هذا الاسطول واتحد مع اسطول آخر تألف من خمسة عشر غليوناً قدمها هنري الثاني صاحب قبرص، وشن الاسطول الموحد هجوماً غير ناجح على ساحل آسيا الصغرى عند سكاندالور Scandalore (آلانيا Alanya الحالية)، ثم أبحر إلى مصر في محاولة مثلها مخففة للاستيلاء على الاسكندرية، وبعد مضي عشر سنوات قامت مجموعة من النسوة الجنويات الثريات ببيع مجوهراتهن لتجهيز اسطول، كان من المفترض أن يتعاون مع المغول، الذين كانوا آنذاك يسيطرون على دمشق، وكان الاسطول جاهزاً للإبحار في سنة ١٣٠١، لكن الذي حدث هو أن المغول كانوا قد تخلوا عما استولوا عليه في سورية، وبذلك تم التخلي عن المشروع، وفي سنة ١٣٦٥ هاجم بيتر الأول دي لوزغنان، حاكم قبرص، الاسكندرية ونهبها لكن دون أن يحقق أية منافع ضد الاسلام.

وقامت خطة دوبوا من أجل حملة صليبية جديدة — على الرغم من عباراته الطنانة بكيل المديح لادوارد الأول صاحب انكلترا — وتأسست على قاعدة أن يتولى الفرنسيون القيادة، وكانت لديه فكرة متحمسة جداً حول الموارد التي تمتلكها المملكة الفرنسية (الفصل ١١٢)، وسوف يتشكل الجيش من متطوعين مع الذين تم نفيهم إلى الارض المقدسة كعقوبة لشنهم الحرب ضد جيرانهم، أما بالنسبة للرهانيات العسكرية،

لابد من اتخاذ تقدير خاص لهم، بحكم اختصاصهم بالأعمال العسكرية، وعليه يمكن وضعهم في المقدمة في القتال ضد المسلمين، وتتم اثاره الحماس بين المتطوعين باستخدام الأزياء الموحدة وبوساطة الموسيقى العسكرية، وهتافات المشاهدين في أماكن حشد القوات، وينبغي إقامة معسكرات للاستراحة في الأرض المقدسة، حيث يمكن استرداد شجاعة وحماسة الجرحى والمتعبين في أجواء عادية.

وكان تمويل الحملة الصليبية برأيه قضية سهلة، فاهبات التي تقاطرت من قبل على الرهبانيات العسكرية، ينبغي استخدامها من أجل الحملة الصليبية الجديدة، ويجري تدعيم ذلك بفرض ضرائب دخل ثقيلة على رجال الدين، وضرائب على المواريث، والاستيلاء من أجل ذلك الغرض على الأموال التي بلا أصحاب في مختلف المجالات وعلى جميع المستويات، وكان فطنا بما فيه الكفاية ليدرك أن سمة الانفعالية في الحملات الصليبية المتقدمة والجهود السابقة كان السبب الرئيسي لاختفاقها، ولهذا حث على استعمار الأرض المقدسة بوساطة مسيحيين مدربين ومخلصين من الغرب، وكان حريصاً على أن يبين المنافع الاقتصادية لمثل هذه الخطة بالنسبة للغرب الأوربي المتعطش للحصول على المنتجات الشرقية.

وكان الشرط الأساسي لحملة صليبية ناجحة هو إقامة السلام في أوروبا، وقد لاحظ وجود نمطين من الحروب: حروب صغيرة بين السادة الاقطاعيين، وحروب بين القوى ذات السيادة، وكان العلاج بديهاً، في أن نجعل جميع الرجال يقسمون بالحفاظ على السلام، وإذا ما تفجرت حرب ما، لابد أن ذلك سيكون عملاً اقترف من قبل أحد المعتدين، ومن الممكن التعرف على المعتدي من خلال أعماله، وعندها يتوجب اخضاعه إلى مقاطعة اقتصادية، واجاعته بسرعة حتى يستسلم، ووقتها سوف تتوقف الحروب في أوروبا، لأن ما من واحد سيمتلك

الجرأة ليبدأ حرباً عدوانية في وجه مثل هذه العقوبات المرعبة والتي لا يمكن تجنبها، أما الحروب بين القوى ذات السيادة، مثل الحروب المتفجرة بين الملكيات الوطنية الناشئة في أيامه، فمن الممكن منعها بإقامة آلية تحكيم، تولى دوبروا وصفها بشيء من التفصيل. (الفصل ١٢).

والشرط الأساسي الثاني للقيام بحملة صليبية احداث اصلاح دقيق في الكنيسة في الرأس وفي الأعضاء، وبعد ردع الأساقفة عن انصرافهم الدنيوية وعن شرهم، وعن المثل السيء الذي يقدمونه لمن هم دونهم من رجال الكنيسة وإلى الناس، بعد هذا، أوصى دوبروا بالاستيلاء على أموالهم الدنيوية، وتحويلها إلى وقف دائم، على أرضية أنهم لم يكونوا الملاك، بل مجرد مشرفين إدارياً على أملاك الكنيسة، علماً بأن هذه الأملاك يمكن إدارتها بكفاءة أعظم من قبل سلطات مدنية.

أما بالنسبة لرجال الدين النظاميين، فقد كان لدى دوبروا ما يقوله للمتسولين، مع أنه رأى جوب تمويلهم بطريقة تجعل التسول عملاً غير ضروري، واتهم الرهبان بشكل عام بأنهم لم يحافظوا على تعهداتهم بالفقر، والعيش كذلك، ولتقديم الاحسان، والطاعة، وقد انتقدهم ووصفهم بالفوضوية، وقال عنهم بأنهم جماعة من شذاذ الآفاق، عصاة على رؤسائهم، راغبون في جمع الذهب والفضة، التي عهدوا بها إلى رجال علمانيين خارج الديرة من أجل تأمين الأرباح لهم، وقد صوّر تعهدهم بحياة العذوبة بأنه مجرد مصيدة، نصبت بغباء من أجلهم من قبل آباء الكنيسة القدماء، وتمت رعايتها والعناية بها فقط عن طريق خرقها، واقترح دوبروا إعادة تأسيس مبادئ الحياة في الديرة، بإلغاء الرعاة من غير الرهبان، حيث هناك عدد قليل من الرهبان يعيشون حياة ترف، وكسل ورخاء، وهؤلاء ينبغي تقويمهم وانزال دخلهم المالي إلى الحد الأدنى، وما يتوفر من المال ويزيد يتوجب تكريسه لمنافع الأرض المقدسة، ومن الواجب تقييد عمل الراهبات وحصر أعداد القاطنات في

الديرة، فالأفضل هو تحويلهم وإرسالهم إلى مدارس الفتيات.

وكتب دوبوا الاسترداد قبل هجوم فيليب على الداوية بشكل معلن، ولهذا لم يقدّم بجهد للتمييز بين الاستتارية والداوية، بل أوصى بدمج جميع منظمات الرهبانيات الدينية في منظمة واحدة، تحت قيادة واحدة، ويتوجب أن يطلب من جميع أعضاء هذه المنظمات العيش في الأرض المقدسة، وأن يجري تحويل جميع ممتلكاتهم في أوروبا إلى المدارس التي يتوجب تأسيسها وذلك كجزء من برنامج الاندماجي المقترح للتعليم.

وإذا كان الأساقفة بحاجة إلى الإصلاح هم والكهنة النظاميين، فبالخبر حاجة البابوية إلى ذلك، وقال دوبوا بأن ميراث القديس بطرس كان السبب الأساسي في تراجع البابوية، لأن البابوات حرصوا على الحرب وخاضوها، وانشغلوا بواجبات إدارتهم الدنيوية فلم يتوفر لديهم الوقت للقيام بواجبهم الرئيسي، وهو العناية بالأرواح والنفوس، وقد اقترح بأن العلاج بسيط لكنه شديد مؤلم، وهو أن يتم تحويل الميراث وموارده إلى الملك الفرنسي مقابل ضمان عطاء سنوي، وبذلك يمكن للبابا أن يكرس وقته كاملاً لأعماله الروحانية، وهو عندما يتحرر من مسؤولياته الدنيوية الثقيلة، يمكنه وقتها إحداث إصلاح شامل ودقيق للكنيسة.

ومن أهم ملامح خطط دوبوا كان نظام التعليم الجديد، البعيد عن المدارس والجامعات التي كانت موجودة، وقد اقترح إقامة مؤسسة عملاقة يكون واجبها الرئيسي هو تأسيس مدارس للصبيان وللبنات في كل مقاطعة من مقاطعات فرنسا، وأن يكون الهدف الرئيس لهذه المدارس هو تدريب الشباب من الجنسين للخدمة في الشرق، وقد أعطى لثلاث نقاط أهمية خاصة: وأولى هذه النقاط، التمكن من معرفة اللغات الأجنبية، فبدون هذه اللغات من الصعب جداً نجاح الجهود التبشيرية وإدارتها في الشرق، والنقطة الثانية: وضع برنامج للدراسة متسارع،

حتى يمكن إكمال التدريب المطلوب في سن مبكرة، والنقطة الثالثة: تأمين خبرة عملية، سواء في الوعظ والتبشير أو في مجالات التطب، والأعمال الأخرى المرتبطة، أو القانون، وينبغي إقامة مدارس منفصلة من أجل مواضيع دراسات أكثر تخصصاً، مثل دراسات القوانين والشرائع المدنية، والفلك، واللاهوت، والأعمال المتقدمة في الطب.

وباستثناء مثل هذه الموضوعات الاختصاصية، كان من المتوجب أن يتبع تعليم الفتيات بشكل أساسي القواعد نفسها المتخذة لتعليم الصبيان، إنما مع إلحاح خاص على الطب والجراحة، وينبغي الاهتمام أيضاً بتأسيسهم بشكل جيد بمبادئ الإيمان الكاثوليكي، وبعد اكتمال تدريباتهم، من الممكن تبني هذه الفتيات الجميلات الناضجات بمثابة بنات وحفيدات لأمرأ الغرب وأعيان الرجال فيه، ومع التمتع بمثل هذه السمعة الاجتماعية والمكانة السامية، وبعد إلباسهن على حساب المؤسسة، وقتها يصبحن جاهزات لتزويجهن من أساقفة ورجال دين شرقيين، ومن أمراء مسلمين وأثرياء، فمن الممكن نجاح مثل هذه الزوجات في تحويل قرنائهن إلى الايمان الروماني، كما يمكنهن الحصول على فتيات مدربات مثلهن ليكن زوجات لأولادهن.

واحتاجت الاجراءات في المحكمة، وكذلك دراسة القانون إلى الاصلاح، وكان دوبوا، بحكم كونه محامياً مجرباً، على دراية بآثار الخدع الخطابية ومؤثرات الصوت والحركات التي كان المحامون البارعون يستهدفون من استخدامها التأثير على الذين يستمعون إليهم، ولهذا أوصى بتقديم جميع الالتماسات والمرافعات كتابة، يعني أن تكون هذه الأشكال المكتوبة محصورة بالشكاوى، وبردود الدفاع، ورد المدعي، ورد الدفاع على المدعي، وينبغي أن يمتلك القاضي السلطة على رفض القضايا التي ليس لها علاقة، والمقحمة، وكان دوبوا قانعاً بأن طريقته سوف تزيل إطالة القضايا القضائية، وستكون موائمة بشكل خاص

للتبني حالاً في مسألة الاستيلاء على الأرض المقدسة، لأن الخلافات سوف تتفجر، وسوف تثور، لو أن كل مجموعة من المجموعات القومية العديدة أصرت على استخدام طرائق الاجراءات المعتاد استخدامها في بلدانها الخاصة بها.

وكان القسم الثاني من كتاب الاسترداد، مصمماً لرؤيته من قبل الملك فيليب ومستشاريه المقربين فقط، ولهذا حول دوبوا انتباهه هنا إلى المشاكل الفرنسية، ومع أنه كان بلا خبرة عسكرية، فقد ناقش بشيء من الطول الاجراءات المتوجب اتخاذها في الدفاع عن المملكة، وحسب شرحه لهذه الاجراءات يمكن للملك في الوقت الذي يرغب به، توجيه الدعوة إلى الإقطاعيين التابعين له، المتوجب عليهم تقديم خدمات عسكرية على حسابهم، ويمكنه في أوقات الطوارئ استدعاء الممتلكين لاقطاعات حرة، الذين هم بالعادة معفيين من تلك الواجبات والالتزامات، وتكون الخطوة التالية هي «الاستنفار العام»، ويمكنه أخيراً في أوقات الضرورات القصوى والطوارئ الاستيلاء على ممتلكات الكنائس، والمؤسسات اللاهوتية، وهذه الخطوات جميعاً — باستثناء الأولى — مسوغة فقط في أوقات الطوارئ الوطنية.

وكان دوبوا قانعاً بأن الملك، قد ضلل من قبل مستشاريه الذين تغاضوا عن المراوغة في تطبيق الالتزامات الاقطاعية، فالتجأ بالغالب إلى اتخاذ الاجراءات الاضطرارية غير المسوغة قانونياً، وبهذه الطريقة كانت الكنيسة مستبعدة، وتمت مقابلة الأعباء المالية الإضافية — ثانية بناء على نصيحة المستشارين عاجزين أو الأشرار — بتخفيض عيار العملة، مما يلحق الضرر برعايا الملك، وأصر دوبوا على أن من الممكن تجنب هذه الشرور بسهولة، وذلك بفرض الالتزامات الاقطاعية وتطبيقها بحزم، وإذا ما تم تنفيذ هذا، سيمتلك الملك من ورائه قوة عسكرية لا يمكن مقاومتها، وسيكون بإمكانه القيام بمشاريع عسكرية واسعة، وهو ما

كان دوبوا يحثه على القيام به.

فما الذي كائنه هذه المشاريع؟ لقد كانت بشكل مجمل إقامة سيطرة فرنسية على الغرب والشرق، فبالاستيلاء على ميراث القديس بطرس، سيتمكن الملك الفرنسي من ممارسة سلطانه على أتباع البابا، الذين كان من بينهم ملوك إنكلترا، وأراغون، وصقلية، وإلى مملكة صقلية ينبغي إضافة مملكتي القدس وسردينيا، ثم إنه بدعمه لأبناء ابن خاله في الخلاف العائلي في كاستيلا، سيتمكن من نيل السيادة على تلك المملكة، كما أن رعايته لحملة صليبية ناجحة سوف يمنحه السيطرة على الأرض المقدسة، ومن الممكن للجيش الصليبي المنتصر العودة عبر طريق القسطنطينية، حيث سيتمكن أخا الملك، شارل أوف فالويس من الاستيلاء على الامبراطورية الاغريقية، وبالقيام بترتيبات مع البابا الفرنسي الجديد (كليمنت الخامس) من الممكن إقناع الناضحين الألمان بإعطاء أصواتهم إلى عضو من الأسرة الفرنسية المالكة، وأيضاً من الممكن الحصول على الأرييت والصفحة اليسرى للرايين من خلال مناقشات ودية مع الامبراطور الألماني، وتوقع دوبوا بذلك احتمال قيام البابا كليمنت الخامس بتعيين ما يكفي من الكرادلة الفرنسيين لضمان أكثرية فرنسية، وبذلك يمكن للبابوية أن تبقى فرنسية الملامح، واقترح في منشور متأخر خطة من أجل السيطرة على مصر، ويمكن للإنسان أن يقول معقّباً: لو أن جميع هذه المشاريع قد تحققت، وقتها كان فيليب سيتطلع فقط لعوالم أخرى ليستولي عليها!

تقويم نقدي لدوبوا

في الحديث عن المؤثرات المتنوعة التي أسهمت في صياغة أفكار دوبوا، نجد بلا شك أن أهمها كان القانون، فهو لم يكتف بتلقي تدريبات دقيقة في هذا الموضوع، بل أمضى حياته في ممارسة العمل القانوني كمحترف، ومن هذا الميدان استقى مقارباته القانونية وأحياناً

غير الواقعية للمشاكل التي اهتم بها شخصياً، ويتوجب على الذين عدّوه مجرد مصلح اجتماعي خيالي أن يلاحظوا أنه حتى أكثر خطئه تناقضاً قد منحت ثوباً عملياً، ولدى النظرة إلى الموضوع نظرة إجمالية، نجد أن رسالته لا تترك الانطباع أنه كان يتولى صياغة شكل دولة مثالية، بعيدة عن مملكة الواقع الممكن، فقد صاغ كل اقتراح وعبر عنه بعبارات عملية، تستخدم في أوضاع كانت تماماً معروفة بالنسبة لمعاصريه، وكان دوماً متوقفاً حجج خصومه، ولديه حل جاهز وواضح لكل مشكلة، ولم يأخذ بالتأمل الفلسفي حول السيفين، أو الشمس والقمر، وغير ذلك من التشابيه التي راجت كثيراً في الكتابات السياسية لمعاصره الكبير، دائتي، فقد ظل دوبوا دوماً مرتبطاً بالأرض، وقد تحدث بعبارات عملية يمكن للأحاسيس العامة للأفراد فهمها وتقبلها.

وكان المؤثر الثاني، الذي يمكن عدّه معاكساً للأول، هو التأمل الفلسفي العلمي، الذي استقاه أثناء أيام دراسته في باريس، وشحذت المناقشات في ساحات الجامعة، التي لا شك أنه شارك فيها قدرته على الجدل، التي هي ضرورية لممارسة مهنته، ومن المحتمل أنه هناك تعلم القياس المنطقي الذي استخدمه من وقت إلى آخر، للوصول بالمناقشة إلى مبتغاه، ففي الجامعة استمع إلى محاضرات توماس الأكويني الذي كان أعظم علماء وقته، غير أن دوبوا لم يكن مفكراً عميقاً، ويبدو أنه افتقر إلى ما يكفي من التبصر الفلسفي حتى يتفهم استخدامات الفلسفة التوماسية، وصحيح أنه نقل عن توماس وذكره بالاسم مع الموافقة والتأييد، نجده ينقل في مرحلة تالية بالتأييد نفسه والموافقة عن سيغبرابنت، الذي كان ممثلاً لمدرسة من التفكير مناهضة للمدرسة التوماسية.

وفي أثناء الإقامة في باريس كان دوبوا عضواً في الأمة النورماندية في الجامعة، وفي أثناء المناقشات التي ثارت في الجامعة واستعرت بين

مدارس الفلسفة المتعارضة كان موجوداً، وتبنت الأمة النورماندية بشكل عام موقف الرشدية الذي مثله بقدرة سيغري برابنت، واقترح دوهوا في عرض موجز دراسة العلوم الطبيعية، وأوصى بالتحديد بالعودة إلى كتابات سيغر (الفصل ٧٢)، وعنه نقل في مكان آخر على أنه مفسر معتمد للأرسطوطالية (فصل ١٣٢)، وقدمت المدرسة الرشدية في التفكير المنطقي المؤثر الثالث، الذي أثر على دوهوا خلال سنوات تكوينه.

وتأثر عقل صاحبنا المحامي — الذي كان عقلاً علمياً — بالدرجة الرابعة «بالمدرسة التجريبية» التي كان روجر بيكون الشارح لها، ولعله عرف بيكون شخصياً، وهو على كل حال أظهر معرفة كبيرة بكتابات هذا الراهب، التي نقل عن بعضها بالعنوان وباسم الكاتب، ويبدو أن بيكون قد لقي اهتماماً قليلاً في أيامه، ومع أن دوهوا كان رجلاً علمانياً في حقل الفلسفة، يعدّ واحداً بين الندرة من معاصريه الذين نقلوا عنه بالاسم، وقدموا براهين على أنهم قرأوه، ويبرهن على أنه تأثر كثيراً وبعمق بأفكار بيكون تكرار إصراره على قيمة التجارب العملية، وبإظهار رغبته في ضغط نصوص كتب المجلدات الكبيرة الرائجة والشروح، وإخراجها بحجم معقول، وباهتمامه الكبير بالقيمة العالية لمعارف اللغات المعاصرة، وكان أيضاً متفقاً مع بيكون حول قيمة ومكانة دراسة العلوم والرياضيات، وبلغ به الحماس لهذا الأمر إلى حد التوصية بالأخذ بتوصية بيكون الحماسية من أجل استخدام المرايا في الأعمال القتالية.

وأخيراً في مقابل التأثير العملي بمدرسة روجر بيكون «المدرسة التجريبية»، وقع دوهوا تحت تأثير الأفكار الكيماوية لريموند لول Lull، هذا ومن الممكن أن الرجلين قد عرفا بعضهما شخصياً، ففي أيام حياة دوهوا، أمضى لول خمساً وعشرين سنة في نشر أفكاره، بشكل كبير

في فرنسا، ولقد كان موجوداً في مجمع فينا في سنة ١٣١١ ، حيث ربح الموافقة على خطته من أجل دراسة اللغات الشرقية في مجمع الكرادلة وفي الجامعات، وقد أراد لول من دراسة اللغات الحديثة الإفادة من استخدامها في أعمال التبشير، في حين أراد دوبا استخدام اللغات من أجل عظمة فرنسا، وكان في ذهن كل واحد منهما استخدام عملي من أجل اللغة، وأصرّ في الوقت نفسه ليكون مثلها على دراسة اللغات، لكن بالدرجة الأولى من أجل استخدامات علوم فقه اللغات، وكانت مقارنة لول مقارنة علمية، فقد بدأ يقول في كتابه Liber de ac- quistione Terra Sanctae الذي وجهه إلى فيليب الرابع في سنة ١٣٠٩: «إنه من أجل الحصول على الأرض المقدسة هناك ثلاثة أمور أساسية هي : القوة، والحكمة، والاحسان»، وبدأ كتاب Liber nat- alis ، الذي أيضاً وجهه إلى فيليب في سنة ١٣١١، بوصف ست نساء مزعومات نثرن المديح على فيليب، ومن خلاله يمكن أن نلاحظ خطط لول، والمقصود هنا قمع الرشدية، وزيادة احترام الكنيسة وحسن سمعتها، وتحويل الكفار، وهزيمة المسلمين، ولاشك أن مثل هذه المقاربة لم تكن واردة عند دوبا وبعيدة عن تفكيره.

وهذه المؤثرات المتنوعة، اللائي يمكن تقصي أثرهن لدى دوبا، عبارة عن دليل أنه عاش على اتصال مع جميع التحولات الفكرية الهامة لعصره، فمن هذه التيارات المتنوعة وذوات التأثير المتضاد المتداخل، استقى ما حكم عليه بأنه سوف يوسع مشاريعه، ومع هذا هو لم يكن مجرد ناسخ لأفكار الآخرين، فقد أبدى استقلالية بالتفكير مدهشه، واستعداداً للخلاف وللابتعاد عن مصادره المحترمة التي نقل عنها، فقد كان محامياً، وغداً ثرياً من خلال المشاركة في الاجراءات القضائية لأيامه التي كانت طويلة وبطيئة مرهقة، ومع هذا نادى باصلاح قانوني، أعلن أنه لو طبق لكان من معانيه خسارة مالية لأبناء حرفته، وقد توفر لديه

احترام عظيم للقوانين وللإجراءات القضائية، لكنه آمن بضرورة تغيير القانون وأن هذا واجب عليه، ولهذا عرض خدماته لإعادة النظر بالقوانين القائمة، ولإزالة ما هو حتمي ومتناقض، ومع أنه تدرب على العمل العلمي في باريس، عبر عن انعدام صبره تجاه دقة وبراعة العلماء، وقد أعلن عن نفسه تلميذاً لسيغر دي برابنت، وحملت أفكاره بصمة من التأثيرات الرشدية، لكنه رفض مجازاة سيغر والرشدية في إنكارهما للفضائل الفردية، وللمسؤولية الشخصية والارادة الحرة للانسان، وفي مجال العلم والرياضيات نقل عن روجر بيكون مع الاحترام، لكن عواطفه المعبر عنها حول القانون والاجراءات القانونية تعارضت بشكل حاد مع أفكار الراهب البيكون الذي عدّ العمل القضائي معيقاً لتقدم التعليم، وكان ريموند لول قد اقترح صيغة أو تركيبة تمكن الانسان من الحصول على جميع المعارف، وبالمقابل ألح دوبوا بشيء من الطول على أنه من غير الممكن الحصول على جميع المعارف (الفصل ٨٤)، وكان لول عدواً شديداً للرشدية، وعبر دوبوا عن ودّ واضح نحو عدد من أفكار الرشدية.

وكان من بين معاصري دوبوا الذين نقل عنهم ألبرتوس ماغنوس **Albertus Magnus**، وهيرمان الألماني، الذي ترجم «الأخلاق» لأرسطو، وكان دوبوا على معرفة بمعظم كتّاب العصور الوسطى، ومع هذا لم ينقل عن مؤلف كان حياً بالاسم، فعلى سبيل المثال، هو لم يذكر ريموند لول، مع أنه من الواضح بأن دوبوا كان يعرف أفكاره، وفي القائمة نفسها أجيدوس رومانوس **Aegidius Romanus**، الذي كان قد أهدى كتابه **De regimine Principum** إلى فيليب الرابع، قبل اعتلاء ذلك الملك الشاب للعرش، وقد أمر فيليب إثر تتويجه مباشرة بترجمة تلك الرسالة إلى الفرنسية، وكان أجيدوس على صلات وشيخة بفيليب ومقرباً منه، ولم تتأثر علاقاته هذه كثيراً ولم تفسد

بظهور كتابه De eules iastica Potestate المؤيد لبونيفيس، في أثناء الخصام بين الملك وبين البابا، وبناء عليه من المحتمل كثيراً أن دوبوا قد عرف الرسالة المبكرة، ويتدعم هذا الاحتمال بوجود أوجه تشابه بالتفكير وفي التعبير.

وجل المصادر التي اعتمدها دوبوا ونقل عنها كانت أرسطوطالية، وكذلك من الكتاب المقدس، ومن الشريعة المدنية والقوانين، مع نقول قصيرة وقليلة من الكتب الكلاسيكية، واعتمد في النقول على ذاكرته، وهذا أمر واضح، لأن النصوص التي اقتبسها نفسها، اقتبسها أحياناً ثانية بتغيرات بالأفعال، وكان المفضل لديه بين مجموعة كتب أرسطو «الأخلاق» و«السياسة»، ومن الصعب تقرير صحة القراءة، لأننا نستطيع بأي طريق من الطرق تحديد أي مخطوطات كتب أرسطو قد استخدم، وسيكون من الظلم مطالبتة بالعودة إلى نصوص محققة بعناية، ومن الممكن القول بدون تجاوز: إنه غالباً ما اقتبس من كتاب أرسطو طالي خاص، وفي حالات قليلة تبرهن أن اقتباساته من رسالة أخرى غير التي ذكرها، وكثيراً ما قام بدمج عبارات أرسطوطالية بعيدة عن بعضها، وقدمها ضمن أفكاره بمثابة عبارة واحدة، وأكثر من هذا كان يضيف إقحامات من الواضح أنها من عنده، وهذا ما يجعلنا نتوحد أن ما كان يستهدفه من الاقتباسات الكثيرة إظهار أنه كان رجلاً صاحب ثقافة عالية، ذلك أن الاقتباسات كثيراً ما نجد لها علاقة مباشرة لها بالموضوع المعروض للمناقشة.

وصيغة اقتباساته من الكتابات المقدسة قريبة جداً من صيغ الطبعات الحديثة من الترجمات الشعبية، والاختلافات البسيطة التي تظهر في بعض النصوص مردها إلى ضعف محققي الطبعات اللاهوتية الحديثة في ميدان اللهجات الشعبية وقام دوبوا مرة أو مرتين بإقحام عبارة من عنده في وسط نص توراتي، وقام مراراً بالمزج ما بين نصوص مختلفة،

وغالباً ما نقل عن العهد القديم بذكر اسم الكتاب أو الكاتب، اللهم إلا باستثناء واحد، ونقل عن العهد الجديد بشكل مبهم تحت عنوان «الرسول» و«الرب» أو «المخلص»، والغلطة الوحيدة التي لاحظتها في إحالته لواحد من نصوص أعمال الرسل مع أنه من الانجيل، وساد معيار الصحة نفسه بالنسبة لنقله من قانون الشريعة، وقد ابتعد في مناسبات قليلة عن النص كما ورد في طبعة فريدبيرغ Friedberg الحديثة، ووجدته مصيباً في الأماكن التي أتعب نفسه فيها لتحديد نص قانوني محدد قام بنقله أو اقتباسه، ونقله من القانون المدني موزعة بالتساوي فيما بين الـ Digest والـ Novellae ، وكان يشير إليهما معاً بدون تمييز باسم «القانون المدني» ومعيار الصحة في الاقتباس من القانون المدني أدنى من الذي بدأه لدى التعامل مع الكتابات المقدسة، ومع قانون الشريعة، وعزا في مناسبة واحدة (الفصل ١٢٤) نصاً نقله، إلى القانون المدني، مع أنه كان في الحقيقة من كتاب «الأخلاق»، ويمكن أن نعزو هذا إلى إمكانية العجز أحياناً وعدم القدرة على التعرف على مصدر بعض النقول القليلة من هذا النوع.

وبذل دوبوا جهوداً جبارة من أجل الدخول إلى دائرة مستشاري فيليب المقربين، ونجد برهاناً على عدم نجاحه في هذه الجهود بكلماته، فقد ذكر مراراً بأنه مقبل على إرسال هذه الرسالة أو تلك إلى صديق يعمل في البلاط حتى يجري تقديمها إلى الملك (الفصول ١١١ — ١١٧)، كما عرض مراراً خدماته للقيام ببعض الإصلاحات المقترحة، ولوأنه كان عضواً من المستشارين المقربين من فيليب ما كان ليلجأ إلا في النادر لمثل هذه الطريقة من العرض، وصحيح أنه أظهر أحياناً دراية كبيرة بما كان يجري في البلاط، ووضح هذا في الـ Summaria وفي الاسترداد (الفصل ١١١٦)، نقرأ في اتفاقية فوكلر Voucouleurs بين فيليب الرابع والامبراطور البيرت شروطاً كانت بعيدة عن تفكير

الملكين، وكان هنا لمستشار معتمد أن يخطيء مرة، لكن من الصعب جداً أن يكرر الخطأ بعد ست سنوات في مذكرة سرية خاصة، يضاف إلى هذا انتقد مستشاري الملك وخط من شأنهم لأنهم ضللوا الملك في المسائل العسكرية (الفصلان ١٢٨ — ١٢٩)، وعدّهم مسؤولين عن المشورة الخاطئة بانقاص معيار العملة، ومن غير المعقول أن يقدم عضو في المجلس الاستشاري الملكي على استخدام مثل هذه الوسائل من أجل إلحاق الضرر بزملائه حتى يجلب انتباه الملك إليه، ونلاحظ أخيراً أن أسماء المقربين من فيليب من أمثال: بلازيان، وبيير فلوت، ووليم نوغاريت قد ظهرت في الوثائق الرسمية للدولة، في حين لم يظهر اسم دوبوا قط.

وأظهر دوبوا في سعيه في سبيل اقتراحاته الكثيرة للإصلاح شجاعة قناعاته، وعندما يقرأ الانسان الـ *Summaria* ، يمكن أن يحكم من خلال كلماته أن شقة الخلاف بين فيليب وبونيفيس باتت واسعة جداً، وكانت هذه الرسالة قد كتبها في سنة ١٣٠٠ قبل الصراع الأخير الذي تقدم صدور مرسوم *Ausculda Fili* ، وذلك في وقت كان بونيفيس فيه في أوج قوته، ففي الأشهر التي تدفق فيها الآلاف على روما ليركعوا أمام خليفة القديس بطرس، كان دوبوا يقترح مصادرة ميراث القديس بطرس، وأنه ينبغي أن يقنع البابا بعطاء سنوي، وعلى الرغم مما عبر فيه عن إخلاصه للملك، الذي كانت سلطته ستتحسن كثيراً بنجاحات اقتراحات دوبوا، نجد هذا المحامي النورماندي لم يتردد في توجيه النقد إلى الملك لأخذه ببعض الآراء غير الحكيمّة، ولقد طالب فيليب بوجوب إدارة مملكته ليس من أجل منافع الخاصة، بل من أجل منافع رعيته، وأكثر من هذا ذكر بصريح العبارة أن تراخيه في تطبيق الواجبات الإقطاعية، كان يسبب الأذى العظيم لرعيته، (الفصلان ١٢٨ — ١٢٩)، ولم يكن دوبوا مصرّاً دوماً في جرأته، على كل حال، ليس حتى

قام فيليب بإظهار الطريقة التي اتبعها من أجل إزالة طائفة الداوية.

ونلاحظ من جرأته وطبيعته كثير من اقتراحاته التي كانت تحتاج إلى وقت طويل، أن دوبروا أخفق بكل وضوح في أن يكون رجل دولة، وتظهر اقتراحاته من أجل توسيع السلطة الفرنسية ضعف في الرؤية بوضوح وبفهم واقع السياسات الأوربية، فما من رجل دولة حقيقي كان من الممكن أن تبلغ به السذاجة إلى حد الافتراض أن التخلي عن مملكة الأارليت، والصفحة اليسرى من نهر الراين، ومن ثم حصول الفرنسيين عليها من خلال مباحثات ودية مع الامبراطور، ومثل هذا بالسذاجة كان اعتقاده أن معظم المشاكل كان من الممكن حلها بالطريقة البسيطة في وضع البابا تحت الوصاية الفرنسية ومن ثم استخدام النفوذ البابوي لزيادة المنافع العائدة لفرنسا وملكها، وكان مدركاً تمام الإدراك وبفطنة عرف الفاجعة التي نزلت بالقوات الفرنسية في الحملة ضد أراغون في سنة ١٢٨٥، ومع هذا كان بإمكانه أن يكتب بشكل عفوي عن السهولة التي يمكن بها لفيليب إخضاع مدن اللومبارد، دون التلميح حتى إلى مصاعب الملك مع مدن فلاندرز، وهي حالة لا بد أنها كانت معروفة بالنسبة إليه.

أما في مجال النقد التاريخي، فقد أظهر دوبروا نفسه في أسوأ الأحوال، حيث أخفق في التسامي فوق السذاجة والخطأ، وهي السمة التي طبعت كتاب العصور الوسطى، وكانت معارفه بالتاريخ المعاصر له أدنى بكثير من معارف دانتى، وقد كرس رسالته وأهداها إلى ادوارد الأول، لكنه أظهر أنه يمتلك معارف ضئيلة عن إنكلترا، وأن ما عرفه عنها لم يتجاوز أنها كانت إقطاعية بابوية، وكان لدى تعامله مع تاريخ الماضي اقتراف عدداً من التناقضات، فقد أشار إلى شارلمان على أنه قد حكم مائة وعشرين سنة، وعده الجد الذي انحدر منه الملوك الفرنسيون، ولعله من الممكن أن يغفر له قبوله بأسطورة قيام شارلمان

بحملة صليبية إلى القدس، وهي أسطورة ظلت حية حتى العصور الحديثة، هذا وأتى على ذكر صلاح الدين وعده ملكاً للأشوريين، كما أنه ذكر بيبرس وعزا إليه الاستيلاء على عدد من البلدان كانت ملكاً لملك الآشوريين.

وقبل دونها مناقشة كثيراً من الحكايات الخيالية الشعبية لعصره، وآمن بأن مسلمي الأرض المقدسة كانوا يتلقون العون من قبل حشد من الشياطين، الذين منحتهم معرفتهم الكاملة بأحداث الماضي حكمة لم تتوفر لدى الناس الفانين، وجرى تصوير الشيطان الذي يسيطر على جيش كبير، وهو يقوم بالقتال بفعالية ضد المسيحيين بشكل عام، وضد أفكار دوبوا بشكل خاص، وآمن بأن تفكير الناس وأعمالهم متأثرة بشدة بالانجوس وبحركاتها بالسما، مع أنه لحسن الحظ لا تستطيع هذه القوى إعاقة إرادة الإنسان الحرة، أو أن تحول بينه وبين قدرة التفكير بشكل منطقي، وجرى تصوير فرنسا، وبشكل خاص باريس على أنها واقعة تحت رعاية كتل وعناصر سماوية، ولهذا فإن الناس الذين ولدوا هناك، وهناك نشأوا، كانوا متفوقين على الناس الآخرين، ولهذا كان واجب الملك الفرنسي البقاء في الوطن لانجاس الصبيان في هذه الأجواء الموائمة، وعدم المخاطرة الآن أو في المستقبل بأن يأخذ على عاتقه القيام بحملات شخصية إلى مناطق نائية، ولا شك أن مرد هذه العواطف يعود في قسم منه إلى غلو دوبوا بالوطنية الفرنسية، ومن الصعب أحياناً تقرير المدى الذي تأثر به إيمانه بالانجوس بغلوه الوطني (شوفينية).

سوابق لأفكار دوبوا

هل كانت الأفكار التي عبر عنها هذا المحامي النورماندي ممثلة لعصره، أو هل كان عبقرياً إلى حد أن أفكاره كانت متوائمة أكثر مع القرون المقبلة؟ وقد تحدث رينان عن :

« Idees originales, Penetrantes, hardies, sortant si
« complement de la routine .

وصوره ج. ت فگز Figgis على أنه كان متقدماً كثيراً على تفكير معاصريه، « du temps » وقال : « كان دوبوا بما امتلكه من جرأة كبيرة، وفي إقدامه، وفي الطبيعة الواسعة لخططه، وفي الفكرة التي عرض بها هذه الخطط، وفي الأصالة التي جعلت من عظمة فرنسا وملكها محوراً لإصلاح لاهوتي ولجعل العالم كله مسيحياً، كان بالبحري هو الأشبه بعدد من الثوريين العقائديين من أمثال: روبسبير Robespierre أو لاسال Lassalle وليس من القانونيين العميان أو المتقيدين بالنص، للقرنين الثالث عشر والرابع عشر، وذلك حسبما تعلمناه لتصوره، وعده ديلافيل إلى رولكس الانسان الذي كان الملهم لسياسات فيليب، وكان بإمكان الأنسة إيلين بور أن تقول عنه: «الأكثر جرأة والأعظم أصالة بينهم جميعاً، وبلغت به المعاصرة إلى حد بدا فيه وكأنه كان يكتب للويس الرابع عشر، أو إلى نابليون».

وللوهلة الأولى عندما ننظر إلى كثير من أفكاره يبدو لنا أنها بعيدة عن إنسان غطت حياته النصف الثاني من القرن الثالث عشر، لكن إذا ما انبرينا نحو كتابات معاصريه، والسلف الذين عاشوا قريباً من أيامه، نجد تقريباً أن كل واحدة من أفكاره — التي كثير منها مثيرة وغير عادية كما بدت — قد جرى التعبير عنها من قبل آخرين، لكنه دفع بين آونة وأخرى بعض المفاهيم خطوة نحو الأمام، معطياً إياها مظهراً جديداً، وكان هذا أمراً متوقعاً، فما من عصر كان متجمداً ثقافة بالمرة، ومن المؤكد أن القرنين الثالث عشر والرابع عشر لم يكونا راكدين تماماً، وإذا جاز الحديث عن ممثل لعصر من العصور بقيامه بالتعبير عن أنواع واسعة من الأفكار والمفاهيم التي كانت رائجة في أيامه، عندها نقول كان دوبوا الممثل لعصره، ولقد تبرهن أن «أصالته المدهشة» و«عصرته»

أشبهه بالأسطورة.

وكان المحور الفكري لرسالته لعام ١٣٠٦، هو استرداد الأرض المقدسة، ومن أجل تجنيد جيش صليبي، لم يكن لدى دوبوا شيئاً يقدمه أفضل من نظام تطوعي (الفصل ١٠٧)، مردوف بالقوى التي تم تكوينها من الذين سببوا القلاقل في أوروبا، ونظام التطوع الذي نادى به قد اختلف قليلاً عن النظام الذي جرى اتباعه في الحملات الصليبية المتقدمة، حيث كان التطوع آنذاك يجري بوساطة التحريض والإثارة التي قام بها المبشرون، مثل برنارد أوف كليرفو في التحضير من أجل الحملة الصليبية الثانية، أما الحديث عن خدمة المعاقين لآثامهم في فلسطين فإن التبشير فيه يعود قديماً إلى القرن الحادي عشر، وكان اقتراحه بتنظيم الجيش الصليبي، وجعله في سرايا كل واحدة منها تتألف من مائة رجل، ويقود كل واحدة منها قائد مائة (الفصلان: ٢٣ — ٢٤) مشابهاً لخطة فردريك بربروسا بتقسيمه إلى مجموعات في كل واحدة منها خمسين رجلاً، وكذلك لكل مجموعة قائدها، كما أنه لم يكن هناك شيئاً جديداً بشأن الموسيقى العسكرية كوسيلة لتقوية العزائم، أما توصيته بأن يرتدي الصليبيون أزياء موحدة، فقد سبقه بها الانكليز في غنت Ghent في سنة ١٢٩٧، وكذلك من قبل البرجاسية الفلمنك في كورتراي في سنة ١٣٠٢، وكان الملك شارل الثاني ملك صقلية في ١٢٩٢ قد اقترح خطة من أجل حملة صليبية، وقد تضمنت الخطة وصفاً تفصيلياً للزى الموحد الذي اقترح أن تزود به الجيوش الصليبية، أما معسكرات الراحلة من أجل أن يسترد الجيش معنوياته بعد المعركة (فصل ٢٠)، فهو اقتراح تبنى فيه القاعدة التي أخذ بها فرسان التيوتون وطبقوها منذ زمن بعيد.

وبعد سقوط عكا في سنة ١٢٩١، لم تكن هناك من حاجة إلى قوة بصيرة عظيمة لتدرك أن النقطة الأساسية القائمة وراء فقدان المسيحيين

الغربيين لفلسطين كانت هي إخفاقهم بالاحتلال الفعلي للبلاد، فكثير جداً من الصليبيين قاموا بالوفاء بنذرهم بزيارة الضريح المقدس، ومن ثم عادوا على الفور إلى أوطانهم، ولقد أراد دوبوا أن يجعل الاحتلال مستمراً أبدياً عن طريق تشجيع الغربيين على الاستقرار في الأرض المقدسة، وكانت المدن الإيطالية سبقتة إلى هذه الفكرة إلى حد ما — بشرها للحصول على حصّة في التجارة الربحية للشرق — بقيامها بعقد صفقات مع الصليبيين للتخلي لهم عن مناطق في البلدان التي جرى الاستيلاء عليها حديثاً، وصحيح أن الحملة الصليبية الرابعة لم تكن تماماً مغامرة استعمارية، كان ما نجم عنها تأسيس دويلات لاتينية في الشرق الأدنى، عاشت لأجيال، وكانت الرهبانيات العسكرية بمقارها الدائمة وقواعدها في فلسطين مكافئاً للحاميات العسكرية التي اقترحها دوبوا من أجل حماية الأرض المقدسة ضد أي ثورة عسكرية يقوم بها المسلمون في المستقبل (الفصلان ١٠٤ و ١٠٨)، وعندما كتب دوبوا عن المنافع الاقتصادية التي سوف يتم جنيها من احتلال فلسطين، كان هدفه هو تأمين حصّة هامة لفرنسا في التجارة التي كانت من زمن طويل تجلب الثراء إلى المدن الإيطالية، أما مسألة الفوائد التجارية التي يمكن تحصيلها بالهجوم الجانبي على مصر، فقد كان قد تحدث عنها من قبل وأوضحها الراهب الفرنسي سكاني فيدنس — Fidence — أوف بادوا في سنة ١٢٩٢ .

وتماشياً مع عدد كبير من الذين تفحصوا بدقة مسألة الحروب الصليبية، أدرك دوبوا تماماً أنه من غير الممكن لحملة صليبية جديدة تحقيق النجاح مادام سلام أوروبا يتعرض للخرق المستمر عن طريق الحروب بين السادة الاقطاعيين، وتشابه اقتراحاته من أجل منع مثل هذه الحروب مع الخطة التي اقترحت في أوائل القرن الحادي عشر، ونعني بذلك خطة «هدنة الرب» التي تضمنت شرطاً قضى بإقامة حلف

معقود بالأيمان للسلام ولنفي مثيري الحروب إلى الأرض المقدسة (١)،
ففي سنة ١٢٠٣، وفي مؤتمر عقد في موزون Mouzon قام كل من
روبرت التقي ملك فرنسا والامبراطور هنري الثاني ببحث فكرة إقامة
سلم عالمي يشمل أولاً فرنسا وألمانيا، ثم جميع العالم المسيحي.

أما قضية تسوية الخلافات بين الملوك والحكام بوساطة لجنة تحكيم،
فيبدو أن فكرة دهبوا هنا بلا سابقة واضحة، ونعني بذلك إقامة مجلس
من رجال الدين ومن العلمانيين يتولى تعيين هيئة محكمين واسعة،
وصحيح أنه لم يوضح بشكل محدد مدة هذه اللجنة، من الممكن
للإنسان أن يستخلص أن دهبوا أراد أن تكون اللجنة الواسعة دائمة،
هذا وتوفرت من قبل جهود للتحكيم بمثل هذه الخلافات ونفذت من
خلال إقدام المتخاصمين على تعيين فرد أو عدة أفراد للتحكيم فيما
بينهم، وهناك أمثلة كثيرة جداً حول التحكيم كمبدأ، سواء كعمل
تطوعي من قبل الفئات ذات العلاقة، أو بفرض ذلك من قبل قوة
متفوقة، ففي رسالة إلى رجال الدين الفرنسيين في ١٢٠٤، دافع البابا
انوسنت الثالث عن حقه ليقوم بالتحكيم فيما بين ملكي إنكلترا وفرنسا،
مع أنه كان حريصاً على التنصل من أية محاولة تتعلق بالنيل من سلطات
الملك الفرنسي، وفي سنة ١٢٤٦ جرت تسمية الملك لويس التاسع
والنائب البابوي يودس أوف شاتور Chateauroux ليكونا حكيمين

١ — نظمت الكنيسة في حوالي سنة ١٠٠٠ في بواتيه حلفاً للسلام ضم كلاً من رجال الدين
والأقطاعيين المدنيين، قرر اتخاذ إجراء موحد ضد أي إنسان يثير الاضطراب، وفي سنة ١٣٠٨
جمع رئيس الأساقفة أيمو أوف بورغ Aymo of Bourges أساقفته في مجمع ديني، قضى
بوجوب أن يقسم كل مسيحي بلغ الخامسة عشرة من عمره على مواجهة أي خرق للسلام بقوة
السلاح إذا اقتضى الأمر، ولم يعف رجال الدين من أداء هذا الواجب لكن طلب منهم قيادة
أتباعهم ضد الذين يخرقون السلام، بأعلام خفاقة فوق رؤوسهم، وبالفعل قاد رئيس الأساقفة
قوة للقتال كان فيها أكثر من سبعمائة رجل دين، وفي سنة ١٠٤١ راسل بعض رجال الدين
الفرنسيين الأساقفة الإيطاليين ودعواهم إلى الانضمام إلى «هدنة الرب» القائمة في فرنسا، وقضى
الحلف الفرنسي بتجريم تكل من يقترب جريمة قتل أيام هدنة الرب، وأن ينفي نفياً طويلاً إلى
القدس.

من أجل تسوية قضية الخلافة لحكم فلاندرز وهينلوت، وفي سنة ١٢٦٣ وضع هنري الثالث وباروناته مسألة الخلاف حول مؤن أكسفورد للتحكيم من قبل لويس التاسع، وأخيراً لا بد أن دوبرا كان بكل تأكيد على دراية بحقيقة أنه قبل سبع سنوات فقط من كتابته «الاسترداد» عمل بونيفيس بمثابة حكم بين فيليب الرابع وادوارد الأول.

أما فيما يختص بقضية الحديث عن الاصلاحات اللاهوتية، فقد كان دوبرا على أرض معروفة، فقد كرر التهم المتداولة كثيراً فيما يتعلق بالاهتمامات الدنيوية، والسيمونية، والشره، وفساد الأخلاق، وهي أمور كلها — أو أكثر منها — يمكن للانسان أن يجدها في كتابات بعض رجال الكنيسة من ذوي السمعة الأرثوذكسية النزيهة، وكان دوبرا قانعاً أنه يمكن التخلص من الدنيوية وإزالتها بالطلب من رجال الدين التخلي عن ممتلكاتهم الدنيوية، ووضعها تحت وصاية دائمة، مع احتفاظهم بحصة من الدخل، وينبغي أن تدار هذه الوصاية من قبل رجال علمانيين، يكونوا بالعادة أكثر كفاءة، وأكثر استعداداً لتقديم الحساب من رجال اللاهوت (الفصلان ٥٢ — ٥٣)، وكانت سابقة الادارة المدنية للشؤون اللاهوتية من قبل الرجال العلمانيين قد أرسيت قواعدها من زمن طويل بوساطة الـ *Negociatores Ecclesiae*، وكان هناك أيضاً الوكلاء التجاريين الرحالة للديرة الذين لم يشجع مساكنوهم على الارتحال من أجل أعمال دنيوية، وقدمت الاقتراحات من أجل المصادرة الكاملة للأملاك اللاهوتية في أثناء الصراع من أجل انتخاب البابوات، فقد اقترح البابا باسكال الثاني على هنري الخامس بشكل رسمي وجوب تخلي رجال الدين عن جميع السلطات الحكومية والامتيازات التي هم مدانون بها للملوك العلمانيين، وكان هذا يعني شمول تسليم جميع الممتلكات اللاهوتية، التي ليست فعلياً

ضمن «الهبات والممتلكات الوراثة» للكنيسة، وقد ذهب غيرهوه فون ريكسبيرغ Gerhoh von Reichersberg (حوالي ١١٥٠) إلى القول بأن الأمير يمتلك الحق في حرمان الأسقف من ممتلكاته بسبب أي خرق للالتزامات الاقطاعية، وفيما يختص بميراث القديس بطرس، قام في سنة ١٢٧٣ سفراء فيليب الثالث بالاقترح على غريغوري العاشر، بأن يتولى الإشراف عليه وإدارته من قبل واحد من الملوك الأقوياء، وأجاب غريغوري بأنه سيرحب بمثل تلك الترتيبات، وأن الملك الفرنسي سوف يكون شخصاً موائماً لتولي الإشراف والإدارة.

والتاريخ الديري متخماً بالجهود في سبيل الإصلاح، ومعظم الرهبانيات التي تأسست في أثناء العصور الوسطى تأسست وهذا في الذهن، وعندما اقترح دوبروا إلغاء جميع الديرة غير الرهبانية، واستخدام جميع موجوداتها لحماية الأرض المقدسة (الفصول ٥٤ — ٥٧) كان يردد فقط التوصيات المحددة التي قدمها همبرت القائد الأعلى لطائفة الدومنيكان في كتابه Liber de Tractandis Inconcilio Lug-dunensi الذي كتبه من أجل عرضه على مجمع ليون في سنة ١٢٧٤، وكان وليم دورانتى Duranti قد كرر الاقتراح نفسه قبل انعقاد مجمع فيينا في سنة ١٣١١ في رسالته Tractatus de modo alebrandi concilii et corruptelis in eulesia Reformandis، هذا ولم يتضمن اقتراح دوبروا تحويل الرهبانيات النسائية إلى مدارس للبنات (الفصل ١٠٢) فكرة إلغاء هذه الرهبانيات، وفي الحقيقة لعل فكرته كانت مجرد عملية تبني لممارسة كانت قائمة، ذلك أن مدارس النحو المرتبطة بالديرة لم تكن أمراً اعتيادياً، فقد كانت هذه المدارس مدارس علمانية يتولى التعليم فيها معلمون علمانيون، وكانت متميزة تماماً عن المدارس المخصصة للرهبان، ومن المحتمل وجود مدارس مشابهة للبنات كانت مرتبطة برهبانيات النساء، ولاقت انتقاداته لعزوية

رجال الدين التأييد من كتلة كبيرة من الرأي العام الفرنسي، وذلك إذا ما أخذنا بمثابة دليل الانفعالات العاطفية التي وردت في الجزء الثاني من الكتاب الشعبي واسع القراءة *Roman de la Rose* ، الذي تولى كتابته واحد من رجال الدين في حوالي سنة ١٣٠٠، وخرج آرنولد أوف فيلانوف، الذي كان طبيب بونيفيس الثامن باحتجاج قوي جداً ضد عزوبية رجال الدين، وفي أثناء الصراع فيما بين فيليب والبابا تداول الناس *Quia nonnulli* ، وهو مرسوم مزيف قيل صدر عن البابا بونيفيس، وتضمن هجوماً على عزوبية رجال الدين، وأوصى بزواج رجال الدين من البابا إلى كهنة الأبرشيات ، بحكم ما ورد في الكتاب المقدس، ولعل هذه المقترحات من أجل تغيير الوضع الرسمي المفروض على رجال الدين بالنسبة للزواج، قد جرى تحريكه بوساطة تيارات المحادثات التي كانت قائمة من أجل الاتحاد مع الكنيسة الاغريقية، التي لم يبارس رجال الدين فيها العزوبية، ونقل وليم دورانت عن العهد الجديد، ومن ثم اقترح على مجمع فينا الاهتمام الزائد بإمكانية إلغاء عزوبية رجال الدين، وتبني المبادئ الممارسة منذ أمد طويل في الكنيسة الإغريقية.

ولم يتجرأ دوبا على اقتراح إلغاء رهبانية الداوية حتى أعلن فيليب الرابع هجومه على هذه الطائفة بشكل معلن ومكشوف، فقبل سنة ١٣٠٨ قيد نفسه باقتراحات من أجل دمج الرهبانيات العسكرية، ومصادرة أملاكهم في الغرب، ويمكن هنا ذكر عدد كبير من السوابق لمثل هذه المقترحات، ففي سنة ١٢٢٩ قام فردريك الثاني بطرد الداوية من صقلية، وصادر ممتلكاتهم ومقتنياتهم، وعندما استدعاهم للعودة فيما بعد لم يعد إليهم ممتلكاتهم، وكان البابا غريغوري العاشر قد اقترح في مجمع ليون سنة ١٢٧٤، دعم الرهبانيات العسكرية، وقام البابا نيقولا الرابع في آب ١٢٩١، لدى سماعه بالأخبار من عكا ، بتوجيه البطارقة

ورؤساء الأساقفة لعقد مجمع ديني إقليمي، حيث ينبغي دراسة مسألة دمج الرهبانيات العسكرية وتقويتها، وعندما طالب بالعون المالي من أجل حملة صليبية جديدة، من الأساقفة الألمان، عبّر هؤلاء عن موافقتهم على مشروع دمج الداوية والاستبارية وفرسان التيوتون في رهبانية عسكرية واحدة، على أساس أن سقوط عكا جاء نتيجة للخلافات فيما بينهم، وكان ريموند لول قد اقترح مراراً عملية الدمج هذه، وكذلك كان شارل الثاني، ملك صقلية، قد اقترح ذلك في سنة ١٢٩٢، والفكرة الوحيدة الجديدة المعزوة إلى دوبروا في هذا المجال كانت اقتراحه بوجوب تكريس الممتلكات المصادرة التي كانت عائدة إلى هذه الطوائف، لصالح المدارس التي كان ينادي بها كسمة أساسية لخطته من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها.

أما اقتراحه من أجل تأسيس مدارس لإعداد الغربيين من الشباب من الجنسين للخدمة في الشرق الأدنى، فقد كان جديداً من حيث الدرجة وليس من حيث الفكرة، فبعض هذه الخدمات سيكون إدارياً من أحد الجوانب وتبشيراً من جانب آخر، وكان بعضهم قد بحث في المفهوم التبشيري، ففي ٢٢ حزيران وجه البابا انوسنت الرابع مرسوماً إلى رئيس جامعة باريس، طلب فيه بشكل رسمي إرسال بعض الشباب الذين تعلموا اللغات الشرقية، إلى الجامعة من أجل التدريب اللاهوتي، وإرسالهم بعد ذلك إلى الشرق لتعليم الآخرين الإيمان الصحيح وتحويلهم إليه، ولقد شرعوا في تنفيذ هذا المشروع بالفعل، ودليلنا على ذلك، تشير إليه حقيقة أنه في التاريخ نفسه حرر البابا انوسنت راعي دير القديس بيير دي تشارترز مع الرهبان، من واجب دفع الأموال لدعم هؤلاء الشباب، كما كلف بارسال سفارة إلى التتار من أجل تحويلهم إلى الإيمان المسيحي.

أما مدارس النحوزات النموذج العام الذي دعا إليه دوبروا، فقد

كانت موجودة في كل مدينة تقريباً، وكذلك في بعض المراكز الهامة، وكان عملها الأساسي هو تزويد الطلبة بالتدريبات الأساسية إعداداً للدراسة الجامعية، وكان من المفترض تأسيس مدارس مماثلة في باريس من أجل الفتيات، وكان المرتل في نوتردام يمارس الاشراف عليهم، فيقوم بمنح إجازات إلى معلمي مدارس الصبيان، وإلى معلمات مدارس البنات، وأورد راشدول Rashdall قائمة فيها أسماء اثنين وأربعين معلماً، وإحدى وعشرين معلمة، نالوا جميعاً الاجازات.

ولم يكن دوبوا قانعاً بالمدارس القائمة، لكن منهاجه أخفق في تحقيق أية تغييرات أساسية، وكان من حيث الجوهر متطابقاً مع منهاج الدراسة الذي كان موجوداً في جامعة باريس، والمصادر النصية التي أوصى بها بالاسم (الفصل ٧١) كانت هي الكتب المتعارف عليها والمستخدمة، وقد انتقد بعضاً من هذه الكتب لطول نصوصها، وأوصى بتكثيفها للتوفير على الطالب الوقت والمال، وفي حقيقة إتيانه على ذكر بعض النصوص المختصرة لكتب مشهورة، دليل على أن آخرين قبله قد حاولوا الأخذ بحل مشابه، وبما أنه كان مشغولاً بأهمية الخبرة العملية — وهي فكرة لعله استقاها من روجر بيكون — كان يرغب بتسارع برنامج الدراسات إلى حد يتمكن فيه الطالب من إكمال تعليمه النظري في سن مبكرة.

وكان من بين أهم ملامح منهاجه التعليمي نقطة أولاهها اهتماماً خاصاً، قضت بدراسة اللغات الأجنبية الحديثة المستخدمة في الشرق، وبشكل خاص الاغريقية والعربية، وكانت بعض الجهود في هذا الاتجاه قد بذلت من قبل، لكن ليس على مستوى الفهم الذي نادى به دوبوا، فقد جرى في سنة ١٢٥٤ تأسيس مدرسة في إشبيلية من أجل دراسة اللاتينية والعربية، وفي حوالي سنة ١٢٧٥ أقنع ريموند لول ملك مايروكا بالقيام بإنشاء دير مزود بها يكفي من المال، من أجل دعم ثلاثة

عشر راهباً من الشباب كان عليهم دراسة العربية، من أجل القيام بعمل تبشيري بين المسلمين، وبعدما حصل هؤلاء الرهبان على بعض المعارف المتعلقة بالعربية من عبد عربي، ذهبوا إلى أفريقيا، غير أنهم طردوا من هناك بوساطة المسلمين، وأسس ريموند بينافورت، الذي كان القائد العام الثالث للدومنيكان مدارس في الديرية الأفريقية والإسبانية من أجل هذا الغرض، وكان قائد عام آخر للدومنيكان هو ريموند مارتيني مشهوراً لمعارفه بالعبرية والكلدانية والعربية، إلى حد أنه كتب عملاً لاهوتياً ضد الاسلام بالعربية، وكان روجر بيكون، الذي كان اهتمامه باللغات الحديثة منصباً على فقه اللغات أكثر منه على العمل التبشيري، قد كرس القسم الثالث من كتابه *Opus maius* على هذا الموضوع، كما أنه ألف بالنحو الاغريقي.

وبالنسبة لتعليم النساء، فقد كان دهبوا متقدماً خطوة أو خطوتين على معاصريه، وورد من قبل ذكر وجود مدارس للفتيات، لكن النساء كن ممنوعات من دخول الجامعات التي تمتعت باحتكار التعليم العالي النظامي، وجرت العادة بالنسبة لمن رغبن بالحصول على تعليم فوق التعليم الابتدائي، تأمين معلمين خاصين، وقد ورد ذكر عدد من النساء حصلن على تعليم جيد، منهن على سبيل المثال هروتسفيثا أوف غندرشيم *Hortsvithaof Gandersheim* في القرن العاشر، وهيلوياس *Heloise* في القرن الثاني عشر، لكن هاتين كن استثناء، وكان بين المعلمات العلمانيات في فلورنسا سنة ١٣٠٤، امرأة متزوجة، اسمها كليمنتيا *Clementia*، وقد حملت لقب *Doctrix Puerorum*، وقد تولت تدريس مبادئ اللاتينية، وكان من غير المعتاد تماماً بالنسبة للنساء النبيلات الحصول على بعض التدريبات في الطبابة والجراحة، وقد أراد دهبوا قبول الفتيات بشكل منتظم في مدارس تدريبية للخدمة في الشرق، وكان سيقدم هن الدورات نفسها تقريباً التي

تقترح للدراسة من قبل الصبيان، إنما مع تركيز الاهتمام على الأدوية والجراحة ومبادئ الإيمان الكاثوليكي، وقد أقرّ — على كل حال — أن قدرتهن على استيعاب مثل هذه التدريبات كانت محدودة، ولهذا لم يقترح قبولهن في مدارسهم المتقدمة للطب، والعلوم، والقانون، واللاهوت، ويبدو أن اقتراحه بأن يتزوجن رجال دين إغريق ومسلمين من أجل تحويلهم، كان مجرد جهد لإعادة تطبيق ما قام به سليمان الأمر الذي أشار إليه في الفقرة التالية (الفصل ٦١).

وعرّف دوبروا نفسه في الجمل الافتتاحية لكتاب الاسترداد بمحامي الاستئناف للقضايا اللاهوتية العائدة لأدوارد في أكويتين، وعلى هذا لقد كان مدركاً للنزاع الطويل الأمد بين القضاء اللاهوتي والقضاء الملكي، وكان يعرف أن القضية لا تحتاج إلى البحث هنا، وقد امتلك بحكم كونه محامياً ممارسة خبرة من الطراز الأول بالإجراءات المملة المتعلقة بالأعمال القانونية في القرن الثالث عشر، وقد ضمن الـ Summaria مقترحات للاسراع بالإجراءات القانونية، واقترح في «الاسترداد» بأن هذا من الممكن إنجازه بالطلب من الادعاء ومن الدفاع تقديم التماساتهم كتابة (الفصول ٩١ — ٩٥)، وحين طالب بالمزيد من الإجراءات الكتابية كان يتماشى تماماً مع التيارات الجارية، ففي النصف الثاني من القرن الثالث عشر أحدث تأثير القانون الروماني والقانون الشرعي تطبيقاً تدريجياً لتسهيل الإجراءات القانونية، والتي زادت من استخدام الوثائق المكتوبة، وزادت بالتالي من أهمية المحامين وكتاب العدل، وبدأ التغيير بالظهور في المحاكم الملكية مع سنة ١٢٥٠، وفي سنة ١٢٩٠ استخدمت الطلبات المكتوبة في برلمان باريس، وفي الوقت الذي كان دوبروا يكتب فيه الاسترداد، كانت حتى بعض المحاكم الاقطاعية تتبع الإجراءات الجارية في المحاكم اللاهوتية والمحاكم الملكية، وفي سنة ١٣٠١ كتب يودس صاحب مقاطعة السين دليلاً في القانون هو Sum-

ma de Judiciis Possessoris ، أسسه على القانون الروماني، وقد اقترح فيه خطة من أجل تبسيط الإجراءات القانونية وتقصيرها في القضايا المدنية.

وإذا ما تطرنا كثيراً في أن نصف للفرنسيين روح الوطنية في أوائل القرن الرابع عشر، وقلنا بأنها كانت بالفعل قريبة من روح القرن التاسع عشر، نجد دوبوا يعبر عن أنشط مشاعر الوطنية الفرنسية، فمع أنه كان من حيث الجوهر رجل سلام، شعر بنفسه بأنه مؤهل لتقديم النصيحة للملك حول القضايا العسكرية، وكانت هذه النصيحة بالفعل أكثر قليلاً من التوصية بأن على الملك أن يطبق بدقة نظام الالتزامات الاقطاعية القائم فيما يتعلق بالخدمة العسكرية، وكان دوبوا قانعاً أنه إذا ما طبق هذا، لن يحتاج الملك إلى التردد بالقيام ببرنامج التوسع الذي طرحه عليه في كتاب الاسترداد، وكان هذا التوسع قائماً وأخذاً طريقه قبل أن يكتب دوبوا، فقد تم الاستيلاء على نورماندي ولانغدوك قبل تنويع فيليب الرابع، وفي سنة ١٣٠٠ أخذت فلاندرز، وكانت الخطوة المنطقية التالية في هذا الاتجاه الضفة اليسرى من الراين، وفي الاتجاه نحو الجنوب الشرقي لم تكن هناك حاجة لكاتب منشور ليظهر الرغبة بالاستيلاء على مملكة أزل، وكان فيليب الرابع منذ بعض الوقت راغباً في مد نفوذه فوق الامبراطورية، ففي سنة ١٣٠٨ اقتنص الفرصة التي تهيأت باغتيال ألبرت الأول، للقيام بحملة فعالة من أجل اختيار أخيه شارل أوف فالويس، وقد تزوج شارل في سنة ١٣٠١ كاترين أوف كورتناي، التي كانت وريثة امبراطورية القسطنطينية اللاتينية الميتة، وأعطاه هذا حجة للمطالبة بمملكة شرقية، الأمر الذي حاول أن ينفذه ويجعله حقيقة قائمة، وكان التوسع بالنفوذ الفرنسي بالحفاظ على مصالح أسرة كاييه في إيطاليا وإسبانيا وهنغاريا، أمراً طبيعياً إلى حد أن الفكرة كانت ملكاً للجميع، وقد هيأ انتخاب البابا الفرنسي (كليمنت الخامس) مجالات

جديدة للتوسع بالنفوذ الفرنسي، فلو أن البابا أقدم على تعيين ما يكفي من الفرنسيين الكرادلة، فمن الممكن بقاء البابوية ذات هوية فرنسية، ففي سنة ١٣٠٥، أي قبل أن يقترح دوبوا هذا الأمر في الاسترداد، بدأ كليمنت سلسلة من الترفيعات ضمنت أكثرية فرنسية في مجمع الكرادلة.

ولم يكن الغلو بالمشاعر الوطنية حكراً بأي حال من الأحوال على الفرنسيين فقد أعلن جوردانوس أوف أوسنابروك Jordanus of Osnabruck في سنة ١٢٨٠ في كتابه De Praerogativa Romani Imperii ، أن من واجب البابا تقديم العون إلى الامبراطور للحفاظ على مكانته السامية والإضافة إليها، وأعلن أنه بواسطة الترتيبات الربانية جرى منح السلطة الامبراطورية العائدة للرومان، أي المملكة العالمية، إلى الألمان، وينبغي عدم بقاءها مع الرومان، الذين ينبغي أن يكونوا راضين بالحفاظ على البابوية وقانعين بها، وكذلك يتوجب عدم ذهابها إلى الفرنسيين الذين لابد أن تكون الهبة الربانية بالتعليم كافية لهم.

وعلى هذا يمكننا الوصول إلى محصلة مفادها أن أفكار دوبوا الأصيلة حقاً تتضمن القليل فقط أكثر من خطته المحددة من أجل نظام للتحكيم العالمي مع اقتراحه من أجل تأسيس نظام للمدارس، يمكنه أن يقبل بالتدريج نساءً من أجل التدريبات الاحترافية، وهذا لا يعني مطلقاً أنه نقل عن وعي جميع أفكاره المستعارة الأخرى، فلعله توصل نحو الكثير من الأفكار مستقلاً، وهذا يعني أن جميع الأفكار التي أطلقها كانت بعضاً، لا بل كلاً من اهتمامات عصره، أي أنه لم يكن «متقدماً بقرون على عصره» بل كان ممثلاً حقيقياً له.

مكانة دوبوا وأهميته

وإذا لم يكن دوبوا مفكراً أصيلاً، فأين تكمن أهميته، قطعاً ليس في

تأثيره على عصره أو العصور التالية، التي كانت منعقدة على الرغم من الآراء التي عبر عنها رينان وديلافيلا لى رولكس، وتكمن أهميته في الحقيقة عينها في أن أفكاره لم تكن أصيلة، فقد عمل بمثابة مرآة عكست حشداً هائلاً من الأفكار التي كانت رائجة في عصره، وليس هاماً أبداً كم بدت لنا معظم أفكاره غير واقعية ووهمية، إن هذه الأفكار هامة لأنها ترينا كيف نظر إنسان مثقف ومنطقي، وحسن المعرفة إلى مشاكل السياسات العالمية في مطلع القرن الرابع عشر، وهو ما كان معاصراً له، وهنا لدينا إنسان متفرد، فقد كان علمانياً مع ميول صحفية للتعبير، وقد تدرب في أفضل جامعة في أيامه، وكان رجلاً عملياً في مواجهة المشاكل، وقد تماشى مع التفكير المعاصر له، وقد حصل على الثروة وعلى بعض الاعتراف والتقدير في ممارسة القانون، وكان أيضاً رجلاً قد تأثر بعمق بالتيارات التي كانت متجهة نحو تأسيس ملكية قوية، في داخل الدولة القومية التي كانت آخذة بالظهور شيئاً فشيئاً، وقد أراد أن يحرك هذه التيارات ويزيد من اتساعها، بإثارة الرأي العام لصالحها، وكان إنساناً، قد شعر — كما يبدو — بشكل غير واضح، بروح عدم الاستقرار، وعدم الرضا عن الحياة الرتيبة المشبعة بالأوهام للقرن الثالث عشر، التي ما لبث القرن الرابع عشر أن انفجر ضدها بثورة مفتوحة، وكان رجلاً قد شعر بأن «الوقت يفلت من بين الأيدي»، وهو قد قدم برامج للإصلاح كانت واسعة ومتناسكة إلى حد ما، ودعا إلى تطبيقها.

وقد امتلك قدرة على استيعاب أفكار الآخرين وجعلها أفكاراً له، وأن يقوم أحياناً بنسج الأفكار المتعارضة، ومن ثم إخراجها على شكل خطة موحدة من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها وسبيل زيادة عظمة فرنسا وملكها، ومن المحتمل أنه لم يكن واقعياً لكنه كان جاهزاً مع اقتراحات للإصلاح وللتحسين في عدد من الميادين المختلفة، وقد اندفع إلى داخل ربما ما خشيت ملائكة أيامه من

السير خطوة فيه، فقد قاتل ضد عزوبية رجال الدين، ودعا إلى قمع السلطة البابوية الدنيوية، وإلى مصادرة الممتلكات اللاهوتية من قبل التاج، وإلى إصلاح النظام الرهباني، وإلى إعادة تنظيم المنظمات العسكرية، وإلى التحويل الجزئي للرهبانيات النسائية إلى مدارس للفتيات، حيث يدرّبن على الطبابة والجراحة، ويتزوجن من منشقين دينياً ومن كفار من أجل تحويلهم، ورأى أنه يمكنه ضمان سلام دائم بوساطة نظام تحكيم دولي، وتأسيس فيدرالية أوربية تحت السيادة الفرنسية، وأراد تأسيس هيئة من المدارس بدورات متسارعة الدراسة تستهدف إعداد شباب فرنسا من أجل استعمار البلدان النائية وإدارتها، وكان يرغب في إعداد كتب دراسية نصية جديدة، وتنقيح المجموعات القانونية، وتحسين الإجراءات القضائية في المحاكم، ومع أنه عدّ الحرب شراً، كان جاهزاً ومعه خططه لإعادة تنظيم النظام العسكري الفرنسي، في سبيل إعادة تأهيل القوات وتحسين سوقيتها، ومن أجل إدارة الحروب وتوجيهها في البحر وفي البر، وهنا قد توفرت لديه اهتمامات كاثوليكية بارى فيها اهتمامات كل من روجر بيكون ودانتي.

مخطوطة وطبعات استرداد الأرض المقدسة

وصلنا نص كتاب الاسترداد في مخطوط واحد، هو المخطوط اللاتيني رقم ١٦٤٢ في مكتبة الفاتيكان، وهو موجود على ورق رق مسطرته ١٧ × ٢٢ سم، والمخطوط بحالة جيدة، ويحتل مخطوط الاسترداد الأوراق ١ — ٤١ من المجلد، والمخطوط مكتوب في القرن الرابع عشر، والخط جيد تماماً، لكن أضيفت له مختصرات لا حد لها عددياً، وأحياناً هي غريبة، وأظهر الناسخ شواهد على أنه قرأ الكتاب بعناية، لوجود عدد من الإضافات في الهامش، وجاء بعضها عبارة عن شروح أضافها الناسخ، ولم تكن تصحيحات ولا أعمال حذف، وأنا لم أستطع تفحص المخطوط الأصلي مباشرة، لكن تلطفت مكتبة الفاتيكان

فزودتني بنسخة مصورة عنه رائعة، وقد قارنتها بالنص الذي تولى تحقيقه لانغلويس.

وكان قد جرى تحقيق هذه الرسالة من قبل بونغارس Bongars على أنها مجهولة المؤلف، وقد نشرها في كتابه Gesta dei Per Fran-cos (جزءان — هانوفر ١٦١١) ج ٢ ص ٣١٦ — ٣٦١، ولم يتول لانغلويس حين عمل على إخراج طبعة جديدة للكتاب — كما يبدو — شخصياً تفحص مخطوط الفاتيكان، بل كان قد كلف بذلك واحداً من تلامذته، واسمه كولون Collon ، فقد تولى كولون مقارنة نص بونغارس بالأصل، وكانت النتيجة اكتشاف عدد كبير من الأخطاء مع إسقاط عدد من الجمل، هذا وقامت طبعة ١٨٩١ التي تولاه لانغلويس على نسخة أخذت عن مخطوطة الفاتيكان، تولى كولون نسخها، وهذه تحتوي على عدد غير هام من التصحيفات، وجرى على الأقل إسقاط كلمة واحدة من النص، والأهم والمتعب والمحير للمترجم هو المزج بين حرفي «S» و«F»، ويغير هذا في بعض الحالات المعنى كلياً ومادياً، وأقصى ما جرى توجيهه من نقد إلى طبعة لانغلويس هو حذفه المتعمد لجزء من الوثيقة القصيرة لعام ١٣٠٨ التي وردت في المخطوطة اللاتينية رقم ١٠٩١٩، الموجودة في المكتبة الوطنية، وكان قد نشر هذه الوثيقة بمثابة ملحق لكتاب الاسترداد، وهناك فقرة ناقصة موجودة في الطبعة التي تولاه بالوز Baluze وأودعها في كتابه Vitea Puparum Avenionensium (جزآن باريس ١٦٩٣) ج ٢ ص ١٩٥، وقد تولى لانغلويس نقلها، وكان بالوز مسؤول بدوره عن إلغاء ثلاثة فقرات موجودة في المخطوط، وهي التي تحتوي على حكايات تأمرية ضد بونيفيس الثامن، وعندما أخرج مولات Mollat طبعته الجديدة من بالوز (٤ — أجزاء، باريس ١٩١٤ — ١٩٢٧) عاد إلى المخطوطة اللاتينية رقم ١٠٩١٩، حيث وجد الفقرات الناقصة،

فأعاد إدخالهن إلى نصه المطبوع (ج ٣ ص ١٥٤ - ١٦٢)، ولا بد أن لانغلويس كان يعرف المخطوطة اللاتينية ١٠٩١٩، لأنه نقل منها عدة مرات، ولعله حذف ما حذف بسبب ما تذوقه ورآه مناسباً، غير أنه لم يقم بالإشارة إلى أن نصه ناقص.

وباستثناء هذه العيوب، تعدّ طبعة لانغلويس طبعة رائعة، فبدونها ما كان بالامكان إخراج الترجمة الحالية، وقد تم تبني حواشيه بشكل كامل تقريباً مع شيء طفيف من التعديلات للتحديث فقط، وأمد لانغلويس طبعته وزاد عليها نقولاً كثيرة من كتب دوبروا الأخرى، ولا سيما من كتاب Summaria الذي لم يكن محققاً بعد، وقد تضمنت الترجمة الحالية هذا كله، مع إضافات كان لانغلويس قد أهملها لتوضيح المعاني، وقد التزمت الترجمة بالنص المخطوط، ولم تبتعد عنه.

وكان بونغاريس عندما حقق الاسترداد قسمه إلى فصول، وكان الناسخ قبله قد اعتمد وسيلة أكثر إحكاماً، بوضع إشارات لبدايات الفقرات، وقد حافظ لانغلويس عليها عن طريق الترقيم، مع أن الوسيطتين لاعلاقة مباشرة لهما بالأصل، ولا بترتيب موضوعات النص، وقد حافظنا في هذه الترجمة على نظام الترقيم من أجل الاحالات على الطبعات التي تقدمت على طبعة لانغلويس لسنة ١٨٩١، وأشار إلى أرقام فصول بونغاريس بالأرقام العربية بين حاصرتين، أما أرقام فصول لانغلويس فأشير إليها بالأرقام الهندية.

- ٣٢٣٩ -

استرداد الأرض المقدسة

استرداد الارض المقدسة
القسم الأول

إلى أدوارد الأمير المسيحي الأعظم، والأكثر تألقاً، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا واسكوتلندا، وسيد إيرلندا، ودوق أكويتين، والمشهور أكثر لقدراته العسكرية منه في ألقابه الأخرى كلها، يرسل إليه المحامي عن قضاياها اللاهوتية في تلك الدوقية، بتحياته، باسم الذي من خلاله يحكم جميع الملوك والأمراء، وهو منذ زمن طويل متشوق لخدمة جلالته الملكية، ويدفعه نحو ذلك تقدير طبيعي أصيل، واعجاب بفضائل جلالته، وليس بدافع مادي، لأنه ليس هناك من طلب أو عرض، وهو بإخلاص يأمل بأن يتمتع جلالته بمزيد من الانتصارات.

[11]: إنني أعرف بشكل جيد، أنكم كونكم ملكاً عالي التفكير، وممجداً ومشروعاً حقيقياً، ليس منذ بداية حكمكم، بل من اللحظة ذاتها التي بدأت فيها حياتكم العسكرية، فأنتم منذ تلك الساعة تبذلون عظيم الجهد لصنع رجال جيدين من بين جميع رعاياكم، ومن المقربين منكم، ومن المرتبطين بكم، ولقد أنجزتم هذا ليس عن طريق مجرد التهديد بالعقوبة، بل عن طريق إدامة تقديم الأعطيات الثمينة، والآن وقد انتهت جميع حروبكم بنجاح، بفضل من الرب ملك الملوك، الذي منه جميع المباركات تصدر، لم تبحثوا عن الراحة التي اعتاد بقية الأمراء على طلبها، بعد مثل هذا المجهود الذي بذلتموه، لأجل بعد جهد حقيقي، وعمل لطيف، أنتم عوضاً عن ذلك تقومون بالتخطيط لتكريس طاقاتكم الرائعة من أجل استرداد الأرض المقدسة، وفي سبيل تحريرها من أيدي المسلمين، فعلى الرغم من تزايد السنوات، ومراغمة للميول الطبيعية لبني البشر، فإن رغبتكم هي بالحصول على المثلث الحقيقي للشجاعة، بالتصدي لجميع المخاطر التي تهدد بالموت الجسدي، لكن تقدم وعداً بحياة خالدة للنفس، ومع أنني أقل الناس تأهيلاً لتقديم النصيحة والمشورة، لقد تأصلت نصائحي في رحمة الرب المانحة

للحكمة، لأنه هو وفي نفسه جيد إلى درجة أن جميع الأشياء الخيرة هي جزء من طبيعته وجوهره، وكل شيء في العالم، بصرف النظر عن طبيعته، هو بدرجة ما جيد تبعاً لدرجة المشاركة في جوده الكلي، وهذا ليس رأى الكاثوليك وموقفهم لوحدهم، بل هو موقف كل من يستخدم قليلاً من المنطق الفلسفي، وإنني مدفوع برغبات طبيعية— التي تبعاً للفلسفة ينبغي ألا تكون عبثية— وبما أنني متعاطف كلياً مع مطامحكم، وبعون من فضل الرب، الرب الذي لاحدود لحكمته سوف أتابع الآن لأضع باختصار، أمام واحد مجرب جداً وحكيم بفن الحرب، وهو جلالتك الملكية بعض المقترحات التي بدت لي ضرورية، وموائمة، ومناسبة من أجل استرداد الأرض المقدسة، والحفاظ عليها.

[2] ٢] وبديهي أن هذا المشروع لا يمكن أن يتحقق من دون مساندة صديقكم الأب المقدس، الذي هو بفضل النعمة الربانية الخبر الأعظم للكنيسة الرومانية المقدسة والمسكونية، ومن الضروري أيضاً الحصول على موافقة مجمع عام لجميع الأمراء الكاثوليك والأساقفة، الذي ينبغي أن يتولى إزالة جميع العوائق، وأن يقدم كل مساعدة، وجميع الإعدادات الموائمة، لأن تلك البلاد، تبعاً لما صرح به الرب، أغنى من جميع البلدان الأخرى، ومسكونة بكثافة من قبل المسلمين الذين استولوا عليها، وهؤلاء يمارسون طريقة شهوانية للحياة، تمكنهم حسبما يريدون من انجاب وتربية كل ما يستطيعونه من أطفال، إلى حد أن كثيراً من الممالك والمقاطعات الواقعة في شرق وغرب وجنوب الأرض المقدسة لم تعد كافية لتلبية حاجاتهم، ولهذا تراهم يهاجرون من هذه البلاد وفق طرائق التتار، وإذا حدث الآن وتراجعوا لسبب ما، من خلال الخوف من واحد من الأمراء مثلكم شخصياً، يمكنهم بسرعة وبسهولة أن يتجمعوا على شكل حشد كبير من الناس من هذه الممالك المجاورة، ووقتها عندما يعلمون بأن قواتكم على وشك العودة إلى الوطن، تجد هؤلاء المسلمين،

وهم أشد وأحد من أي وقت كانوا، وهم في أعداد كبيرة جداً، سوف يعودون على الفور، أي في لحظة مغادرة قواتكم، يحثهم على ذلك الشياطين الذين يفضلون السكنى في تلك البلاد، وسوف يقتلون من تبقى، ويجعلون على الفور من أنفسهم ملاكاً لتلك الأرض اللطيفة وسادة، وظهر هذا التفضيل من قبل الشياطين من خلال حقيقة، أنه عندما أراد الرب شفاء رجل في تلك البلاد، كان مسكوناً بروح شريرة، فقال لتلك الروح: «ما هو اسمك؟» وأجابته الروح: «اسمي لجئون لأننا كثيرون»، وأضاف «لاتنفينا أيها المولى إلى أرض نائية، بل أبعث بنا إلى الخنازير لندخل فيها» حيث كان هناك منها قطع كبير جداً، وهكذا هاجت الخنازير، واندفع «القطيع من على الجرف إلى البحر» [مرقس ٥/٢-١٣] ولهذا لا يمكن الاستيلاء على تلك البلاد، ولا الاحتفاظ بها لدى الاستيلاء عليها، إلا بوساطة أعداد كبيرة جداً من الناس.

[3] وفي سبيل اقناع عدد كاف من الناس للارتحال إلى هناك، والبقاء في تلك الديار سيكون من الضروري - جداً أن يعيش الأمراء المسيحيين بوئام، وأن يتجنب أحدهم الحرب مع الآخر، لأن الناس الذين ارتحلوا إذا ما سمعوا بأن أوطانهم قد هوجمت وتعرضت للإفساد، سوف يتخلون عن ميراث الرب للعودة من أجل الدفاع عن ممتلكاتهم، وقد وقع هذا مراراً في الماضي، ولهذا بات من الضروري إقامة السلام بين جميع المسيحيين، أو على الأقل بين الذين يطيعون الكنيسة الرومانية، ومن المتوجب أن يتأسس هذا السلام على قاعدة ثابتة، حتى يتمكن المسيحيون من إقامة اتحاد مندمج بقوة ولا يمكن شطره، لأن «كل مدينة منقسمة على ذاتها تخرب»، (متى ١٢ / ٢٥)، وذلك حسبما قال الرب، وإذا ما انقسمت يتعين علينا — بسبب هذا الانقسام بالذات — أن ندعم الدفاعات عن الأرض المقدسة، حسبما سيظهر ذلك فيما يلي، ولقد

رأينا الألمان والإسبان، مع أنهم مشهورين كمحاربين، قد توقفوا — بسبب الحروب المتواصلة بين ملوكهم — منذ زمن عن القدوم لتقديم العون إلى الأرض المقدسة، كما أنهم لن يتمكنوا من فعل ذلك بالمستقبل، والحروب القائمة فيما بين الكاثوليك مؤسفة جداً، لأن عدداً كبيراً من الناس سوف يلاقون حتفهم في مثل هذه الحروب، وهؤلاء ستكون أوضاعهم في الحياة المقبلة غير مؤكدة.

ويطلب الذين غالباً ما لجأوا إلى الحرب، الشروع بحرب جديدة، لأنهم ينظرون إلى الحرب كمسألة عادة، أكثر من عدّها وسيلة من وسائل التحسين، ولا يسعون إلى السلام بعد الحروب، ولا بوساطة الحروب، ولا يضبطون أنفسهم ولا يخافون من تجديد الحروب، وبذلك تراهم وقد أخفقوا بالأخذ بما قاله الفيلسوف أستاذ الملك الاسكندر: «جميع الحروب شريرة في نفسها، وهي غير شرعية، إلى حد أن الذي يطلب الحرب من أجل الحرب، يكون قد وصل إلى الحد الأقصى من الشرور»، وعلى كل حال عندما يكون من غير الممكن ضمان السلام، إلا بوسيلة الحرب، فوقتها مسموح للرجال الصالحين طلب الحرب، لابل مسموح لهم التحريض على الحرب، من أجل أن يحصل الناس على الطمأنينة في سبيل تحصيل الفضائل والمعارف بعد انتهاء الحرب، وبعد إقامة سلام دائم، وإلا فإن جميع الحروب — باستثناء هذا الهدف وحده — هي غير شرعية وهذا ما يقول به أيضاً أستاذة القانون المدني.

ومع أن آباءهم وأجدادهم تورطوا في حروب غير شرعية، نرى أن الأبناء الأحياء، وأرامل الموتى، مهما كانت الوعود التي وعدوا بها، يبدأون فوراً بالاستعدادات لحرب انتقام، وقد وقعت هذه الأحداث بسبب أن صانع الخلافات بوسائل الإغواء لديه، والاقناع، والخداع، واللامحدود، والغش، قد بذل جهوده لزيادة عدد المدانين الآثمين معه،

وليثبت جهود استرداد الأرض المقدسة وإعاققتها، ولهذا إنه غير راغب بالسماح للقوى الكاثوليكية بالاتحاد، بسبب مقالته الفيلسوف: «كل قوة متحدة أقوى من القوة نفسها متفرقة أو ممزقة».

هذا وإن الملائكة الأشرار، حسبما شهدت بذلك الكتابات المقدسة، حكماء جداً إلى درجة ربما معرفة الحوادث المستقبلية، لأنهم استوعبوا المعارف ودرسوا النجوم منذ بداية الدنيا، وهم على دراية بأسباب جميع الأشياء، والنتائج الناجمة عن هذه الأسباب، وهم يتذكرون كل شيء، ولا ينسون شيئاً، وهم يرون أن الأسباب الفاعلة الآن ربما تنتج بعض النتائج المحددة، وبما أنه كما قال سليمان: «ليس تحت الشمس جديد» [الجامعة: ١/ ١٠]، يمكنهم الحكم والتقدير ورؤية الأحداث المستقبلية، بالتذكر بأذهانهم النتائج التي نتجت في مناسبة مضت عن أسباب مشابهة، ويمكنهم القيام بهذا بدقة أعظم مما يستطيعه الشيوخ الذين تقدمت بهم السن، لأنه صحيح أن الشيوخ يمكن أن يكونوا رأوا وجربوا كثيراً، إن معارفهم وتجاربهم هي لأشياء عندما تقارن مع معرفة الأسباب والخبرة الطويلة المتوفرة لدى الأرواح الشريرة، التي تعرف كل الأسباب والمحصلات منذ بداية الخليقة، حتى خبرة شارلمان، الذي يقال بأنه حكم مدة مائة سنة وعشرين سنة هي لأشياء عندما تقارن بخبرتهم، وقال حول هذا الموضوع الفيلسوف في الكتاب الثالث من سفر «الموضوعات»: «ما من أحد يختار الشباب قادة» لاسيما في الحرب «لأنهم يعدّون بلا تجربة، وأعطى في الكتاب السادس من سفر «الأخلاق» سبب هذا عندما قال: «نحن نرى كثيراً من الشباب المتبحرين بمعارف ما جاء بالكتب، لكنهم يفتقرون إلى حسن المحاكمة والقرار الصحيح في القضايا التجريبية، لأن استخلاص معرفة ما حدث في هذا العالم، يمكن الحصول عليها فقط من خلال التجربة الفعلية».

ويحتاج الحصول على الخبرة إلى وقت طويل، ومعروف أن الشباب قد

عاشوا حقبة قصيرة من الوقت، ورأوا من الأشياء القليل، وحصلوا من الخبرة على الأقل، ولهذا السبب ما من واحد صاحب عقل صحيح يمكن أن يختارهم قادة في الحرب، وينبغي أن يكون قادة الحرب أهل السن من الرجال وأهل الخبرة، وأن يكونوا استراتيجيين وذوي رأي في الحرب، وبالنسبة للشباب، فإنهم ينبغي أن ينفذوا أعمال الشجاعة تحت قيادة وتوجيه الأسن منهم، ومع هذا إنه إذا ما توفر رجل حسن، يمكنه بسبب طول تجربته، وذاكرته الجيدة أن يكون أفضل قدرة من رجل شاب، لأن يحكم على المستقبل، ويتوقع ما سيكون به، لا بد من أن نفترض بعقلانية أكبر، أن ملائكة الشر، يمكنهم الحديث عما سيكون في المستقبل بتأكيد أعظم مما يمكن أن يفعله أكثر الرجال شيخوخة وتقدماً بالسن، ومن الواضح في ضوء هذه الحقيقة، أنه يمكن للملائكة الشر أن يقوموا عن طريق الاقناع، والاغراء، وبشكل خاص عن طريق المشورة الشريرة، بإعاقه جهود حتى عقلاء الرجال، وذلك إلى الدرجة التي يكونون فيها ذوي فائدة للآخرين الماهرين في الفنون المحظورة، من الذين يستشيرونهم عندما يرغبون.

ومثل هؤلاء الأشخاص كثرة كثيرة بين المسلمين، لأن شرائعهم لاتمنع مثل هذه الممارسات، بل تؤيدها وتوافق عليها، ويدفع هؤلاء الملائكة الأشرار، مع التحركات في السموات وتأثير النجوم الناس بشدة لاقتراف الآثام، والرجس، والتخويف، والمحظورات، وأعمال أخرى يمكن أن ينجم عنها حظوظ خيرة أو شريرة، ولحسن الحظ أن هذه القوى لاتستطيع أن تكبح إرادة الانسان، ولا أن تعطل حكم العقل المنطقي، ويمكن من خلال ممارسة الإرادة لدى الانسان مقاومة الاغراءات، والميول الشريرة، بتثبيت التوجه والاهتمام نحو الخالق، ونحو قيم الخير لديه، والإغراء الأعظم، والقوة الأكثر دفعا نحو التحرك والمتملكة للتأثير هي قوة السموات، والرب في السموات يحتفظ بأعظم

الجوائز لمن يقاوم حباً بالشرف والاستقامة، وهو يمنح المزيد من الفضائل من أجل هذه المقاومة، وقد شهد الفيلسوف - أرسطو - لصالح هذا التوجه في الكتاب الأول من كتاب «القيم» بقوله: «قال هرقل مصيباً بأن الفضيلة تتقد دوماً في وجه المصاعب الكبرى، ونحن لانستحق لا المدح، ولا النقد، ولا المكافأة من أجل مواهبنا الطبيعية».

[٣] 4] ومن أجل استرداد الأرض المقدسة والدفاع عنها ضد مثل هذه الاعداد الهائلة، الذين اتخذوا الشياطين مستشارين لهم، يصفقون لهم استحسنانا ويشاركونهم، سوف تكون الصلوات المخلصة جداً للكنيسة المسكونية، وسوف تتم معالجة هذه القضية فيما بعد، ويتوقف الصالح العام للمؤمنين المسيحيين الذين يدينون بالولاء للكنيسة الرومانية على اتحادهم معاً بروابط للسلام، وبالاتحاد، وهكذا يتوجب على جميع الكاثوليك الامتناع عن إثارة الحرب، أحدهم ضد الآخر، وإذا ما لجأ بعدها أي انسان إلى الحرب، متحدياً هذه الوحدة، فإن ذلك العمل بالذات سوف يوجه نحو استرداد الأرض المقدسة والدفاع عنها، ومن الممكن عرض هذا وتنفيذه وفق الطريقة التالية.

عندما يعطي الحماس من أجل تحرير الأرض المقدسة ثماره في عقد مجمع كنسي، يمكن وقتها لجلالته الملكية الواسعة الخبرة الطلب من خلال السيد البابا، أن يتبنى الأمراء والأساقفة [المجتمعين هنا] نظام ما، يمكن بموجبه تأمين عدالة تامة، وفقاً للشرائع المحلية والعادات، ومنحها على الفور دونما تأخير إلى جميع من ادعى لحاق ضرر به أو أذى، ومن المتوجب ممارسة أعمال العدالة من قبل قضاة محليين قد جرى تعيينهم، أما في الأماكن التي لم يتم تعيينهم بعد، فيتوجب اختيارهم وفقاً للطريقة التي سيجري شرحها فيما بعد، فينبغي أن لا يندفع كاثوليكي إلى حمل السلاح ضد كاثوليكي آخر، ولا يجوز لأحد أن يسفك دمًا معمدًا، وإذا مارغب أي انسان في شن حرب، ليكن غيوراً

متحمساً في شن الحرب ضد أعداء الإيمان الكاثوليكي، وضد أعداء الأرض المقدسة، وجميع الأماكن التي قدسها الرب، ولا بد من عدم تمكينه من امتلاك الفرصة بتسبب الموت الجسدي أو الروحي لأخوانه بالإيمان بإثارة الحرب ضدهم.

٤ — وكل جماعة تقوم مراغمة لهذا التنظيم الشامل فتغامر بشن حرب ضد أخوانها الكاثوليك، سوف يطبق بحقها عقوبة حرمانها من ممتلكاتها، وينبغي إنزال هذه العقوبة بجميع الذين قدموا العون لها، سواء أكان هذا العون بالقتال الفعلي، أو بإمدادها بالعتاد والمؤن، والسلاح أو الذخائر الأخرى أو بضروريات الحياة، وعندما تنتهي الحرب، من المتوجب نفي جميع الذين بقيوا أحياء بصرف النظر عن السن، والجنس، أو الوضع، وينبغي أن يكون النفي دائماً من البلاد ومن الممتلكات، كما ينبغي تجريدهم من ممتلكاتهم وأولادهم والذين يمكن أن ينحدروا منهم، ويجري إرسالهم للسكنى في الأرض المقدسة، وفيما يتعلق بالممتلكات التي انتزعت منهم، ومنها حرموا، إنهم إذا ما قاموا عن طواعية بتنفيذ أمر المغادرة إلى الأرض المقدسة، يمكنهم الاعتماد على هذه الأملاك لتأمين النفقات الضرورية للرحلة.

وعلى السيد البابا معاقبة الذين يشنون الحرب مع الذين نعلم أنهم قدموا بأية طريقة من الطرق العون أو الدعم لمثيري الحروب، أو تعاملوا بتزويدهم بأية نوع من التجهيزات أو المؤن، أو الماء أو النار، أو أي نوع من أنواع ضروريات الحياة، ويتوجب عليه عدم حرمانهم كنسياً، أو تجريمهم لاهوتياً، بل ينبغي تجنب تعريض خلاص أرواحهم إلى المخاطر، خشية أن يزداد عدد المدانين، وسوف يكون أفضل بكثير إنزال عقوبة مؤقتة بهم من العقوبة الدائمة، والعقوبة المؤقتة، مع أنها ألطف بكثير من العقوبة الدائمة، سوف تكون مخشية أكثر، وسوف تكون أكثر نفعاً إلى الأرض المقدسة، وسوف تكون أقل ضرراً بالنسبة

لأقرباء المجرم وذوي الارتباط به.

[5]: ويتعلق السؤال الآخر الذي يواجهنا هو: هل يمكن بسهولة إخضاع مثيري الحروب وهل سيكون من المفيد نفهم إلى الأرض المقدسة؟، ودعونا نفترض أن دوق - أوكونت - بيرغندي شن حرباً على ملك فرنسا، الذي هو مولاه، فإن الملك، الذي لا يعترف بسيد له على وجه الأرض، سوف يتخذ على الفور خطوات لمنع أي إنسان من جلب أي شيء إلى أراضيها من المؤن، والسلاح والتجارات، أو أي حاجيات أخرى، حتى ولو كانت مستحقة لهما لسبب من الأسباب، وبموافقة المجلس، الذي سوف يتألف من أمراء ورجال لاهوت، سوف يجري تطبيق هذا الحرمان ليشمل جميع الكاثوليك، تحت التهديد بالعقوبة المماثلة، وسوف يطلب الملك مصادرة جميع أراضي المجرمين وممتلكاتهم وذلك من أجل استخداماته الخاصة، ولهذا عليه القدوم عندما يكون الموسم جاهزاً للحصاد، أو أبكر، وأن تكون معه قوة عظيمة من أتباعه ومن المناطق المجاورة، حتى يمكنهم حمل المحصول كله، وكل ما لا يمكن حمله أو استخدامه المباشر في المناطق المجاورة ينبغي تدميره، وكل ما يمكن حمله وحفظه ينبغي تكريسه من أجل إمداد الحصون العائدة للجيران المخلصين للملك والذين عانوا من خسائر في الحرب، وبهذا سوف يكونوا قادرين في المستقبل على الحفاظ على أنفسهم، وهم بحالة الاستنفار للحيلولة دون فرار صانعي الحرب، وخشية قيامهم بتدمير المناطق المجاورة، ومن المتوجب تجنب حصار الحصون التي هي بالعادة محمية، وذات وضع دفاعي جيد، في بلاد العدو، وإذا ما تحصن المجرمون في داخل قلاعهم، الأمر المحتمل كثيراً، ولم يغامروا بالتورط في معركة مكشوفة، فمن الممكن العيش بجميع أريافهم من قبل الجيش وحشود الناس الذين معه من غير المقاتلين، ويمكن للجيش كله مع أتباعه العيش من الأسلاب، وكل ما لا يمكنهم

حملة ينبغي تدميره، وبذلك لن يبقى شيئاً لدعم الحياة، وإذا لم يقم المجرمون بمقاومة فعالة، بل تحصنوا داخل قلاعهم، خلف أسوارها في الجبال أو في المستنقعات، على الانسان عدم طلب إماتتهم خشية أن تذهب أرواحهم، وتنزل إلى الجحيم لتبقى إلى الأبد، ولسوف يبرهن التجويع أنه عقوبة أعظم فعالية، لأنه سوف يؤثر ليس بالمعتدين فقط، بل بكل انسان من العظيم إلى الصغير، وكل واحد سوف يشعر بالعقوبة، فهكذا أمر الرب وقضى من خلال النبي بإنزال العقوبة بالملك أجاج وجميع رعيته من أول رجل فيهم إلى آخر رجل، كما أن الملك شاول الذي رقي بأمر من الرب ودهن ليحكم على بني اسرائيل، قد حرم من مملكته، لأنه بعدما منحه الرب النصر، احتفظ بحيوانات الملك أجاج الضخمة والسمينة من أجل القيام بتضحيتهم للرب، وجرى استدعاء داود، الذي كان يتولى حفظ أغنام أبيه، ودهن ليكون ملكاً عوضاً عنه، وبهذه الصورة تمت عقوبة الملك شاول لعدم طاعته، وجرى إخباره من قبل النبي الذي حمل العقوبة إليه: «لأن الطاعة أفضل من الأضحية» (الملوك ١/ ١٥/ ٢٢. صموئيل ١/ ١٥/ ٢٢).

٦: وعاقب بالطريقة نفسها الرب القدير أبناء إسرائيل، لإقترافهم الذنب العظيم بخيانتهم ربنا يسوع المسيح، وقتله، فأنزل بهم مجاعة كانت من القسوة بمكان أنها دفعت بالأمهات لشوي أولادهن الصغار وأكلهم، فهذا ما حكاه يوسفوس في كتابه عن التاريخ القديم، حيث تحدث عن دمار القدس.

٧: وينبغي إعطاء غفران كامل من قبل المجلس الكنسي إلى جميع الذين ساعدوا على تنفيذ مشروع عقوبة مثيري الحروب ونفيهم إلى الأرض المقدسة، وينبغي تأكيد هذا الغفران من قبل الذين سوف يتعاقبون على شغل منصب الحبر الأعظم للكاتوليك، وينبغي أن يتولى دوما الذين أرسلوا إلى الأرض المقدسة، عن طريق العقوبة، قيادة

الحملاط على الاراضى المعادىة؁ وبذلك ىمكن أن ىخدموا بمثابة سور للدفاع بالنسبة للآخرىن؁ بما أنهم رحبوا متطوعىن بإثارة الحرب وشنها بناء على إثارة من الشىطان؁ وىتوجب إىبارهم -مرغمىن على القتال فى المقدمة من أجل قتال عباد الاوثان؁ وأعداء السلام؁ والوقوف ضد الذىن أنفسمهم حرصوهم من قبل على الحرب.

٨: ومن الممكن كثرأ أن التهذىد بعقوبة التجوىع والنفى الدائم؁ سوف تكون بنعمة الرب مخىفة جءأ؁ إلى حد ىجعل التماسات زوجات أمراء الحرب وأولادهم الصغار؁ وآبائهم المسنىن وأجدادهم؁ وكذلك رهبانهم؁ وأساقفتهم؁ ورجال اللىن الآخرىن؁ تنجح بالسىطرة على أمراء الحرب هؤلاء العنىدىن والمتهورىن؁ وتؤثر على الحماس الضال لشبابهم؁ وفى ظل التهذىد بمثل هذه العقوبة ما من أحد سوف ىغامر بشن الأعمال العءوانىة.

٩[6]: وإذا ما صار الكاثولىك بحالة سلام بىن بعضهم بعضأ؁ فإن المقاتلىن سوف ىتدفقون من كل اتآاء نحو الأرض المقدسة؁ مع كل الاحتمالات بتمكنهم من استرداءها والدفاع عنها.

١٠ — ومضت جمهورىات: جنوى؁ والبندقىة؁ وىبىزا؁ من ءون عقوبة من أجل خصوماتهم التى لم تتوقف؁ وحروبهم البخرىة؁ التى غالبا ما أعاءت فى الماضى استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها؁ ولسوف تحافظ هذه الجمهورىات؁ ومثلها ستفعل كومونتا لومبارءىا؁ وتوسكانىا؁ والمقاطعات الأخرى؁ على سلام ءائم؁ كل قوة مع القوة الأخرى؁ إذا ما تقرر إمكانىة قىام أى واحد من جىرائهم بتقءىم شكوى -ضءهم على هذه الشاكلة.

١١ — وإذا ما رغب الحكام فى إىفاف النزاعات بىن هذه المءن؁ وإنزال العقوبة بهم؁ ىمكن لأى واحد من هؤلاء الحكام أن ىستولى على

بضائعهم وأموالهم الموجودة في مملكته والاحتفاظ بها لنفسه، وإذا ما أخفق إثرها بشن الحرب عليهم فوراً، ينبغي استخدام أملاكهم المصادرة وكل ما يمكن العثور عليه من بضائعهم، على الفور من أجل تمويل، أو ميزانية تتعلق بالأرض المقدسة.

وينبغي على الكرسي الرسولي والأمراء الذين تفجرت في أراضيهم مثل هذه الحروب، ارغام الذين لديهم بضائع وأموال عائدة لمجرمين، على التجاوب مع هذه الاجراءات والأخذ بها، في ظل التهديد بعقوبة مصادرة ممتلكاتهم، وتحويلها إلى التمويل أو الميزانية نفسها، وإذا ما تبرهن أن هؤلاء الأمراء كانوا مهملين في تنفيذ واجباتهم، بعدما جرى إبلاغهم من قبل المتولين لإدارة التمويل المذكور، يتوجب أن يتعرضوا لحرمان ماثل، ولمصادرة جميع ممتلكاتهم، التي سوف يتم تحويلها إلى التمويل نفسه.

١٢[7]: لكن ماذا عن هذه المدن وعدد كبير من الأمراء الذين لا يعترفون بوجود سلطة عليا على الارض فوقهم، تمتلك السلطة لتحكمهم تبعاً للشرائع المحلية والعادات؟ وعندما ينخرط هؤلاء الأمراء وهذه المدن في الخلافات والصراعات، إلى من سوف يقدمون شكاويهم ويلتمسون الإجراءات القضائية؟ ويمكن للانسان أن يجيب بأن المجمع ينبغي أن يقرر اختيار محكمين: رجال دين أو آخرين، يكونوا رجالاً حكماء ومجربين، وأهلاً للثقة، وعندما يقسم هؤلاء الأيمان يتولون اختيار ثلاثة من الأساقفة للعمل بمثابة قضاة، وثلاثة آخرين لكل جانب من أجل المناقشات، وينبغي أن يكونوا رجالاً أقوياء متماسكين، لهم أخلاق مستبعد إفسادها بالحب، أو بالكراهية، أو بالخوف، أو بالجشع، أو بأي وسيلة أخرى، ويتوجب اجتماعهم في مكان مناسب لهذا الغرض، وأن يؤخذ عليهم العهد بأيمان محددة صارمة، وينبغي أن تقدم إليهم مختلف مطالب الشاكي والدفاع بشكل

مختصر وبسيط، وأن يتم ذلك قبل اجتماعهم، وبعد رفضهم أولاً لما ليس له علاقة بالقضية ومقحم فيها، عليهم تلقي الشهادات والوثائق والبيانات، وتفحصها بدقة متناهية وبوعي كامل، وينبغي فحص أي شاهد والاستماع إليه بحضور ما لا يقل عن اثنين من الرجال العلماء الذين هم موضع ثقة عن طريق القسم حسبما بينا من قبل، ويتوجب عرض الشكاوى كتابة، وعلى القضاة الاحتراز وفحصها وصيانتها من التزييف، ومنع أي غش من الدخول إليها أو تزوير.

وينبغي أن تكون نفقات اجتماع القضاة معتدلة، ويتوجب أن يؤخذ بالحسبان أن لا تتجاوز هذه النفقات القضائية أكثر مما قد ينفقه القضاة لو أنهم مكثوا في البيت، وإذا ما كان مرغوباً يمكنهم الاستعانة بمقومين في إعلان الحكم، على أن يكونوا رجالاً معروف أنهم ثقة إلى أبعد الحدود، مع معرفة جيدة باللاهوت، وبالقانون، وبالشريعة المدنية.

وإذا كان واحداً من الطرفين غير قانع بالحكم، يتوجب على القضاة الذين بتوا في تلك القضية، إرسال سجل بالاجراءات إلى الكرسي الرسولي، مع قراراتهم، لتعديلها وتغييرها من قبل البابا الذي هو بالسلطة، إذا ما كانت تلك التعديلات عادلة، وإذا كانت الأحكام كما هي عادلة، ولم يحدث أي تغيير، سوف يتم تثبيت الحكم بشكل لائق من أجل السجل الدائم للقضية، ومن ثم تدخل إلى سجلات الكنيسة الرومانية المقدسة.

١٣[8]: ويوفر تغيير الأحكام بالامبراطورية، بالعادة، فرصاً لا تحصى من أجل الصراع في ألمانيا من خلال أعمال التدخل في إجراءات انتخاب الامبراطور، وبسبب الفوضى التي رافقت هذه الحالة في الماضي، غالباً ما أعاق استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها؛ ولعل توفر سلام دائم في الامبراطورية الرومانية المقدسة سوف يسهم كثيراً في بلورة هذا الهدف، وذلك إذا ما أخذنا بعين التقدير الأعمال الجيدة التي أتيح

للملوك الألمان القيام بها، والتي من الممكن لهم انقيام بها أثناء حياة الناس الأحياء، لو أنهم ورثوا المملكة والمجد الامبراطوري بدون صراع، بما في ذلك قوة جبارة، وخزائن مليئة مخبئة لهم ومخزونة من قبل آبائهم، ووقتها لن يكون هناك شغور بالعرش، ولا انقطاع بالحكم أو توقف، وإذا ما أخذنا أيضاً بعين التقدير الأعمال الجيدة التي قام بها الأباطرة، كما قيل في الأيام الخوالي، قبل ظهور هذه المعينات الحديثة، وذلك من أجل إيقاف الحروب المؤذية للجسد وللروح، وهي حروب قامت من خلال الطموح للحصول على الملك وعلى المجد الامبراطوري، هذا وإنه بتجنب الخسائر الثقيلة المعتادة، يمكن أن يأتي من المملكة ومن الامبراطورية عون كبير جداً من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، ومن أجل كثير من المنافع الدنيوية الكثيرة، التي كان من الممكن لنا الحصول عليها منذ زمن بعيد، من تلك البلاد، فضلاً عن هذا كله، ينبغي عدم زوال ازدهار وتقدم الصالح العام لتلك المملكة، ولإمبراطورية ذلك الشعب النبيل، وينبغي اتخاذ خطوات لمنح مملكة ألمانيا وامبراطوريتها بشكل دائم إلى ملك جديد، وللازدهار الذي سوف يرافقه، فهو قد يقدم بعض التنازلات الطفيفة حول مسألة الممتلكات والامتيازات والإعفاءات العائدة للإمبراطورية من أجل تجنب الخلافات، ولإسكات الناهيين واشباع رغباتهم، زد على هذا يتوجب على الملك الجديد، الذي سوف يكون الامبراطور أن يشترط على نفسه، وأن يعد بتقديم دعم سنوي من أجل مصالح الأرض المقدسة ومنافعها، مادامت هي بحاجة إلى ذلك، وينبغي أن يأخذ هذا الدعم شكل قوة عسكرية كبيرة، يتوجب أن تكون على حسابه الخاص، وأن ترسل إلى الموانئ البحرية مسلحة تماماً ومجهزة، مع أغطية مناسبة لمثل هذه الحملة، وموائمة لإقامتها في الأرض المقدسة.

١٤ [9]: وأن يقوم الامبراطور والأمراء الآخرين بتأمين الأعتده

والسفن من أجل ارسال عساكرهم عبر البحر، سيكون ذلك مكلفاً جداً، وبناء عليه إنه من الأفضل تأمين ذلك إلى المحاربين بشكل إفرادي، متى جاءوا، ويبدو أن هذا الهدف من الممكن الوصول إليه بسهولة وفق الطريقة التالية، وهي طريقة عرضة للتغيير والتصحيح من قبل السلطات المسؤولة:

يملك الداوية والاستبارية والتنظيمات الأخرى التي تأسست من أجل مساعدة الأرض المقدسة، موارد كثيرة، وبضائع، وممتلكات على هذا الطرف من البحر المتوسط، الذي كان ذا فائدة قليلة حتى الآن للأرض المقدسة.

وكانت هذه التنظيمات في أوقات الحاجة القصوى منقسمة بين بعضها بعضاً، ولهذا كانت معاقة ومعطلة وبيوتها عرضة للسخرية، ومن ثم إلى فضائح شنيعة، ومن هنا إذا كان في وجود هذه التنظيمات أية فوائد للأرض المقدسة، إنه لمن المرغوب فيه، ومما يُنصح به، دمجها في منظمة واحدة، بالنسبة للمظهر، والملبس، والرتب، والممتلكات، وذلك حسبما يراه المجمع المقدس مناسباً، وعليهم أيضاً البقاء في الأرض المقدسة، يعيشون على واردات ممتلكاتهم هناك وفي قبرص، إلى أن يتمكنوا من استرداد استملاك ممتلكاتهم بسلام، وممتلكات من هذا النوع تكون كافية لإحتياجاتهم، مع مؤن يمكن تزويدهم بها من مصدر ما آخر.

١٥: وينبغي أولاً أن توضع ممتلكاتهم الموجودة في كل مكان على هذا الجانب من البحر المتوسط، تحت الوصاية هي ومواردها، وذلك لمدة ثلاث سنوات أو أربع، وأخيراً، أو على الفور، ينبغي تحويل هذا إلى وقف، إذا أمكن الوصول إلى ترتيبات شروط مرضية، ويمكن بهذه الوسيلة تحصيل ما لا يقل عن ثمانمائة ألف ليرة تورية سنوياً من الداوية والاستبارية.

وينبغي احصاء الأموال التي جرى جمعها منذ سقوط عكا، و اضافتها إلى الأموال الأخرى، ومن الممكن استخدام هذه الأموال لشراء سفن، ومؤن وبقية الحاجيات الضرورية الأخرى إلى المحاربين الذين سيقومون بعبور البحر، ويمكن بهذه الطريقة ضمان عبور حر ومريح في المستقبل، وسيكون ذلك متوفراً لجميع الذين يرغبون بالعبور، حتى بالنسبة إلى أفقر الناس، ويمكن للسفن أن تجلب معها من الأرض المقدسة مايلزم من منتجاتها وماهو مطلوب هنا، وحمل منتجاتنا إلى هناك، ذلك أنه سيكون من السهل آنذاك شحن البضائع من بلد إلى بلد آخر، وحين نأخذ هذه الأمر بعين التقدير، سوف يندفع المسيحيون الذين يعيشون على هذا الطرف من البحر، أو في مكان آخر، بشكل طبيعي للتفكير للدفاع عن الأرض المقدسة، ولحماية سلامتها، ومن الممكن أن يحمل بهذه السفن من المناطق الخصبة في الجزر وعلى سواحل البحر المتوسط كثيراً من المؤن والحاجيات الأخرى، وبذلك لن يعاني من النقص بالمؤن أحد من المحاربين أو من الذين تركزوا في كل مكان قرب البحر، وينبغي إلقاء أعضاء التنظيمات المتقدمة الذكر، الذين شعروا حتى الآن أنه من غير الموائم لهم عبور البحر والعيش هناك، في ديرة طائفة السسترشيان وفي ديرة الطوائف الأخرى المزدهرة، لقضاء العقوبة على تجاوزاتهم، وعليهم أن يعيشوا هناك مع الرهبان، ولسوف تتلقى هذه الطوائف قليلاً من المساعدات، من أجل الانفاق على هؤلاء الداوية وسواهم، ويستمر ذلك حتى يأتي الوقت الذي يمكن تحريرهم فيه من هذا العبء، أي عبء دعم أعضاء هذه التنظيمات العسكرية والانفاق عليهم.

ولسوف يكون الدخل السنوي من هذا المصدر كبيراً، وبوساطة ضخامته سوف يكون سوء المعتقد لدى الداوية والاستتارية واضحاً، وسوف يغدو مرئياً كيف أنهم قاموا حتى الآن، من أجل هذا الدخل،

بخيانة الأرض المقدسة، وأخفقوا بالقيام بواجبهم نحوها، وعندما تصبح الأمور موائمة وواضحة فإن هذا الدخل السنوي سوف يتضاعف بشكل فعال بوساطة تبرعات المؤمنين، والممتلكات المصادرة العائدة إلى الذين أثاروا الحروب العدوانية، ومن مصادر أخرى كثيرة، ولسوف يجري توضيح هذا أكثر فيما يلي:

١٦ [10]: لقد كانت الأرض المقدسة حتى الآن سيئة التزويد بالمؤن بسبب الصراع الكبير بين الشعوب، ولهذا فإن الأب المقدس، الذي قيل بأن هذه القضية هي شغله الشاغل، سوف يقوم بحث كل نائب له أن يرسل إلى هناك أكبر عدد من المقاتلين، وذلك بقدر ما تسمح له موارده، وسوف يجري تصنيف هؤلاء بوساطة زي موحد متميز بالنسبة للفرسان وكذلك بالنسبة للرجال، وأن يجري تزويد كل فئة برنك واحد مع الراية العائدة إلى الحاكم الذي أرسلهم، وسوف يتولى السيد البابا الاشراف على تنفيذ هذا الأمر، وأن يلتزم بتنفيذه الأمراء العلمانيين، وأن يتولوا القيادة شخصياً إذا كان يمكنهم هذا بدون صعوبة، وإلا على كل منهم تعيين شخص مناسب يتولى قيادة القوات عوضاً عنهم، وأن يكون مجهزاً برنوك الإمارة وشعاراتها وأعلامها، وبهذه الوسيلة سوف تتمكن جميع الشعوب المحلية لمملكة أي أمير من الأمراء، بصرف النظر عن وضع الذين أرسلوهم إلى هناك، من تشكيل جيش واحد، وإذا لم تكن أعدادهم كافية لذلك، يتوجب أن يضاف إليهم أناس من الأقرب إليهم، الذين يفهمون لغتهم، وتكون الزيادة بأعداد كافية لتشكيل جيش، وينبغي تشجيع الرجال من كل مرتبة، لابل حتى النساء من الأراامل وكذلك المتزوجات على إرسال رجال مجهزين بما فيه الكفاية يرتدون الزي نفسه مع الشعارات والرنوك ذاتها، وعلى الوكلاء أن يبعثوا بفرقهم النظامية للموسيقى العسكرية، للقيام بالمرور بالمدن، وبالبلدات والطواف مع أصوات الأبواق، وأصوات بقية الآلات

الموسيقية والأغاني، وأن تكون معهم الرايات البراقة، فذلك سوف يحرك مشاعر الناس ويشجعهم جميعاً، ويؤثر عليهم بقوة من أجل عبور البحر، أو ارسال آخرين بتجهيزات موائمة، وسوف يزيد هذا التجيش أعداد المحاربين إلى ما فوق حدود التصور.

١٧: وينبغي اقناع الأمراء والأعيان الآخرين الذين يشاركون بالحملة بأن يتعهدوا، أنهم إذا ماتركوا جيوشهم بسبب الموت أو المرض، أو العودة إلى الوطن، أو مهما كان المحرض والسبب، أن يتركوا هناك عدداً محدداً من العساكر مع أسلحتهم ورنوكهم وراياتهم، ومع نفقة حتى تمكنهم من العيش بشكل مناسب، ولسوف تتلقى هذه النفقة زيادات حتى تصبح كافية، وذلك من مصادر التمويل العائدة للأرض المقدسة.

١٨: وينبغي اقناع أي شخص متمكن وقوي من كلا الجنسين، أن يعد بالقيام، بعد ضمان سلامة الطريق، بارسال — على الأقل — نفقات العدد الذي يمكنه من العساكر، وذلك في السنوات التالية، مع أموال لمساعدتهم أكثر، ويتوجب نقل هؤلاء العساكر مع زوجاتهم، عبر البحر حتى يقوموا بسكنى الأرض المقدسة، وأن يشحنوها بالناس على قدر الحاجة للاستيلاء على تلك البلاد والاحتفاظ بها.

١٩: زيادة على هذا ينبغي أن يبقى فرسان ذوي تجربة، وحكماء، ونشطاء، بحيث يحملون رنوك بعض الأمراء الكاثوليك، وأن يكون معهم حملة للرايات.

٢٠: وينبغي أن يسمح لكل مملكة كاثوليكية، لابل بالحقيقة لكل منطقة واسعة أيضاً، باحتلال إحدى المدن، أو القلاع، أو المواقع الهامة هناك، مع بعض المناطق المتاخمة، وأن يكون حجم المنطقة المحتلة متماشياً مع عدد الأتباع الذين شاركوا في الحملة، وبذلك يتمكن القادمون الجدد، بعدما انهكتهم مصاعب الطرقات، ومختلف أنواع أماكن النوم،

والنقص في أشياء أخرى، يتمكنون وقتها من نيل البهجة والسرور في أماكن وأجواء معتادين عليها، وذلك بعد حزنهم، ومتاعبهم، وأساهم، ومن الواجب تغيير أسماء تلك الأماكن، واختيار أسماء جديدة لها بموافقة الأكثرية تحمل ذكرى، أو الإشارة إلى المملكة أو المدينة الرئيسية، التي جاء منها السكان الجدد، وسيمنح هذا كثيراً من الطمأنينة إلى المتأخرين بالوصول، بعد معاناتهم من التعب والشدائد، وسيتمكن الضعفاء من الواصلين، وسط هذه الراحة وهذا السرور، من استرداد عافيتهم بسرعة أكبر، أما الأقوياء الذين ألم بهم الضعف الطارئ فسوف يستردون نشاطهم بسرعة أكبر، وسوف يستعيدون قواهم الطبيعية وحماستهم، وعندما يعودون من القتال مرضى أو جرحى، سوف يشفون بسرعة بمساعدة الأطباء والجراحين، الذين يتولون العناية بهم بحرص وتيقظ، وبفضل الراحة والمنافع والأسباب الأخرى التي تقدم لهم، ولا سيما إذا ما كانوا بين أبناء بلدهم، فوقتها سيتعافون بسرعة أكبر، بسبب الآمال التي يقدمها لهم أبناء بلدهم مع الراحة والعناية، وسوف يعودون إلى القتال وهم أقوى، وأكثر شجاعة، وبدون خوف بفضل الراحة التي نالوها.

٢١[11] : وفي سبيل تجنب أي خرق للنظام الجيد، أو للحقوق المتبادلة، فيما يتعلق بالتخطيط للحملات، وفي تعيين الأماكن للاستقرار في الأرض المقدسة، ينبغي أن يتقرر، أن الذين نفيوا بسبب إثارة الحروب، أو بعثوا إلى هناك عقوبة لهم للقيام بأعمال مشابهة، مشاركتهم في الحملة الأولى، أو الحملات، وسوف تكون أماكن استقرارهم بالحري قريبة من الأعداء، وفيما يختص بالذين جاءوا من بعدهم، فليعين إلى هؤلاء الحدود الجبهوية نفسها.

٢٢: وخشية من قيام خلافات ونزاعات بين الأمم حول مسائل اختيار المدن الكبيرة، مثل القدس وعكا ومن ثم احتلالها، يبدو من

الموائم، ومن المنطقي، أن يسمح لأناس من مختلف البلدان بالدخول إليهما، لابل أن يسكنوا فيهما إذا مارغبوا بذلك، وستكون الترتيبات نفسها معقولة في حالة المواقع الهامة الأخرى على شاطئ البحر، أو القريبة من البحر، حيث تكون قد تجمعت هناك مختلف التجارات من مختلف البلدان.

٢٣: وينبغي أن يكون لكل مدينة مع المنطقة المعينة لها، قائداً عسكرياً مع قادة مئات أدنى منه، وتحت إمرته، ويتوجب تقسيم كل مائة رجل أوكلت قيادتها إلى كل قائد مائة إلى ثمانية حضائر، يكون في كل حضيرة بالعادة اثني عشر رجلاً، وفقط قائد المائة سوف يكون معه في حضيرته خمسة عشر رجلاً، وبهذه الطريقة سيعرفون دوماً إذا ما كانوا يمتلكون قواهم الكاملة، وعلى كل واحد أن يحرس الآخر بعناية، ويدافع كل واحد عن الآخر حتى الموت.

٢٤: وينبغي بعد هذا أن يتقرر كم عدد المقاتلين الذي يمكن أن تقدمه كل مدينة للجيش، وعلى قائد كل مائة أن يتفقد الرجال الذين تحت إمرته، ويتأكد أنهم قد تدربوا على استخدام السلاح، الذي يتوجب عليهم استخدامه وفقاً للتوجيهات الصادرة عن القائد الحربي لمدينتهم.

٢٥: وقد روي بأن التتار الذين يشنون الحرب وفقاً للطرائق والعادات التي كانت في أيام الاسكندر، (تبعاً لسيرة الاسكندر، اعتاد القادة الفرس في تلك الآونة على مركزة كل أسرة من الأسر تحت السلاح) لا يستخدمون المال، ولا يشترون المؤن، وإنما يأكلون من الأسلاب التي يحصلون عليها من الأعداء، وعلى الميرة والأطعمة التي جمعوها من قبل، وعلى ما ينتجه الأعداء، وهم لم يتولوا قط إلقاء الحصار على موقع حصين، وفي إحدى المرات تجمعوا خلال خمسة أيام أو ستة واحتشدوا من كل اتجاه في الساعات الأولى من النهار، للقيام بهجوم بمختلف الطرق وفقاً لأساليبهم، وظلوا كذلك حتى المساء،

فوقتها عادوا إلى أكواخهم وإلى أزواجهم، وأولادهم، وإلى ذويهم، وليس من المفيد الإصرار على مثل هذه الطرائق، حيث ينبغي تنوع التكتيكات وفقاً للزمان والمكان، والعدو، وعساكرنا وبقية الحقائق، وذلك حسبها مارس قادة الحرب لدينا ويمكن أن يقرروا.

٢٦ [12]: وفي العادة يعتري التعب العساكر مع مطاياهم، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للرحلات البحرية، وذلك لعدم توفر مراكب قادرة على نقل أعداد كبيرة جداً من الناس في وقت واحد، كما ولا يوجد ميناء في أي مكان من الممكن أن يصعدوا منه على عدد من السفن في وقت واحد، كما لا يمكنهم النزول من السفن إلى الميناء في وقت واحد أيضاً، ومن الممكن في ظل هذه الظروف، أن يكون من السهل تمزيق الأعداد القليلة التي وصلت في وقت واحد من قبل العدو الشرس، الذي تساعده ملائكة الشر التي تعادي هذه الحملة التي تسعى إلى الحد من قواهم، وفي سبيل تجنب مثل هذه المأساة، يبدو أنه من المفيد اتباع طريقة ذلك المقاتل الجبار، وأعني به شارلمان، بجعل الجزء الأكبر من الجيش يأخذ الطريق براً، وذلك بعد الحصول على الأذن من باليولوغوس Pa- laeolagus] امبراطور بيزنطة - أندرنيكوس الثاني ١٢٨٢ - [١٣٢٨] ومن الأمراء الآخرين الذين سوف يزحف الجيش من خلال أراضيهم، وينبغي أن يطلب من هؤلاء الأمراء إعطاء مدخل آمن إلى بلادهم، وممر فيها ويخرج منها، وكذلك السماح للمسافرين الأفراد، مع تمكينهم من الحصول على ضمان تأمين الميرة والمأوى بالسعر العادي المتداول، الذي يدفعه السكان المحليون، كما يتوجب على الأمراء المحليين السماح بدون مقابل، مع تسريع أعمال، نقل المؤن من كل اتجاه، إلى الطرق المختارة من أجل العبور، وذلك بوساطة تعليق بعض، لابل كل، الضرائب، ومع أن هذا الطريق طويل أكثر، فإن عدداً كبيراً من الناس سيقع اختيارهم عليه ممن لا يتجرأون على السير على الطرق

الأخرى، أو هم غير قادرين على فعل ذلك.

ولسوف يكون من المفضل كثيراً توجيه الضربات إلى العدو من كثير من النقاط بدلاً من نقطة واحدة، ويمكن للألمان، وللهنغار، وللأغريق، ولكل الذين يعيشون إلى الشمال منهم، السير على هذا الطريق نفسه المذكور أعلاه، ولقد قرأت في «تاريخ القدس» بأن الامبراطور فردريك بربروسا قد سار على هذا الطريق، وهو الذي غرق في واحد من أنهار أرمينيا، بينما كان يستحم بسبب الحر، وقد حدث هذا في أيام صلاح الدين ملك الآشوريين [كذا]، الذي هرب من أمام الامبراطور، وتخلّى له عن كثير من البلدان والمواقع الحصينة.

ومن الممكن قبول كل انسان من ممالك انكلترا، وفرنسا، واسبانيا، ومن جميع الذين يعيشون على هذا الطرف من الجبال، للانتقال بحراً، وكذلك اللومبارد، والتوسكان، والأبولينيون، والغلاطين، والصقليين، وذلك مع الذين يقطنون الجزر الأخرى من ذلك البحر، ويمكن للذين يخافون من البحر اختيار الطريق الأطول على حسابهم وبجهودهم.

٢٧[13]: وبديهي إن التعاون من أجل مهمة استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، أمر هام جداً، ويقتضي الأمر كذلك أن تكون قوى جميع أعضاء الكومنولث الكاثوليكي متوائمة وموحدة، وسيكون من الضروري بالدرجة نفسها، السعي من خلال الأدعية التقوية للكنيسة العالمية نحو الحصول على المنافع الكبرى للسلام، وعلى الاسترداد، والوقاية من الرب الذي تتدفق منه البركات، وهو الرب والمولى للجيش، وهو وحده سبب السلام والنصر، ولا يمكن مطلقاً استرداد الأرض المقدسة، والاحتفاظ بها، إذا ما عُدَّ قادة الحرب والعساكر الذين تحت امرتهم، أن الاعتماد على قواهم الخاصة كافياً للحصول على نصر عظيم من هذا النوع، والحفاظ على ثماره بشكل دائم، فهذه الوسائط لن يكونوا قادرين مطلقاً على مقاومة ملائكة

الشر، الذين يناضلون ضدهم، ولن يكونوا قادرين أيضاً على مقاومة إغراءاتهم وإغواءاتهم، لأنه من المعتقد أنهم سوف يتمكنون ببراعتهم من إعاقة المقترحات، المطروحة أعلاه، بقدر ما يستطيعون .

ولهذا السبب يبدو أنه من الموائم السعي من خلال المجمع أحداث إصلاح وتغيير في أوضاع الكنيسة المسكونية، بحيث يمتنع الأساقفة، من الكبير إلى الصغير، عن ممارسة المحظورات، التي حرمها الآباء المقدسون، ويمكنهم بذلك الإصغاء إلى مثل، وشرائع، وآراء الآباء، والأخذ بها ومراعاتها تماشياً مع قول النبي: «حد عن الشر واصنع الخير. اطلب السلامة واسع وراءها» [المزامير: ١٥ / ٣٤]، ووقتها عندما يملكون السلام في قلوبهم، فإن جميع الكهنة، مع رجال الدين قاطبة، والناس الواقعين في عهدتهم، سوف يقومون بشعور روحي واحد بتشكيل جسد سياسي واحد، ووقتها سوف تتحقق كلمة الرسول: «وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة» [أعمال الرسل: ٣٢ / ٤]، أو حسب تعبير الفيلسوف: «جميع الفضائل متحدة أقوى منها متفرقة وموزعة»، ويمكنهم وقتها من خلال تقواهم، وتواضعهم، وصلواتهم المتواصلة الحصول على هبة النصر الدائم على الكفار، من الرب، الذي عندما سأله سليمان منحه الحكمة وحدها، أعطاه أيضاً الذهب والفضة وبقية الثروات الدنيوية بحيث تفوق على جميع الذين سكنوا في القدس قبله.

وكون هذا الإجراء أمراً ينصح به، يمكن استخراجه من حوادث حروب يهوذا المكابي ذلك المحارب الرائع مع أخوانه، فطوال الوقت الذي اعتمدوا فيه على قواهم الخاصة استمروا في الاخفاق في القتال، لكنهم حصلوا على النصر عندما طلبوه من السماء، والتمسوه من الحاكم الأعلى على جميع الجيوش، وهكذا تحقق ما قاله الرسول: «لأن كل ما سبق فكتب كتب لأجل تعليمنا» (روما: ١٥ / ٤)، وعلى هذا

يتوجب علينا الافادة من حكمة الكتابات المقدسة، وليس من حكمتنا الخاصة، وذلك تماشياً مع نصيحة سليمان حيث قال: «يابني على فهمك لاتعتمد» (الأمثال: ٣ / ٥)، وعلى هذا تأسس القانون الذي قال: «لايجوز لأي إنسان أن يعتمد على فهمه».

[15]: ولهذا ينبغي أن نسعى في سبيل سلام عالمي، وأن نلتمسه من الرب، وبذلك يمكننا بوساطة السلام، وفي حقب السلام الحصول على فضيلة كاملة، ومعرفة، لايمكن بوسيلة أخرى الحصول عليها، وقد أدرك الرسول هذا عندما قال: «وسلام الرب الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركم» (فيلبي ٤ / ٧)، أفكاركم التي هي نفوس منحت عقلاً، والتي هي بالعادة تتدمر بالحروب، ولاتنال الحماية، وكذلك بالفوضى، وبالتشاحن المتواصل في المحاكم، الذي بالسوء مثله مثل الحرب، ولهذا ينبغي على كل إنسان جيد أن ينأى بنفسه عن هذه الشروط بقدر الإمكان وأن يتجنبها، وعندما يضطر الانسان إلى اللجوء إلى هذه الوسائل، لأنه يكون غير قادر على انقاذ حقوقه بوسيلة أخرى، ينبغي أن يختصرها بقدر الامكان، وأن ينشد السلام وتحصيل حقوقه بهذه الوسائل، بقلب سماوي فقط، وهذا ما بشر به الفيلسوف عندما قال: «الحرب هي وفي نفسها خطأ فادح، وشر مستطير، وكل من يسعى وراء الحرب من أجل الحرب، يكون قد وصل إلى أقصى حالة الشرور»، ومثل هذا، لكن ليس بالدرجة نفسها من التطرف، شرور الصراعات الأهلية، والاضطرابات.

٢٨ — والهدف الذي نسعى إليه الآن، والذي هو غايتنا الرئيسية، هو السلام العالمي، وحسبما قال الفيلسوف: «غاية كل عمل -قائمة أولاً في مقصده، وأخيراً في تنفيذه»، وعلينا أن نقوم أولاً بإزالة -كل عائق في وجه السلام العالمي، واحتمالات فرص هذه العوائق، وبذلك نتبع الأسس التي عبر عنها الفيلسوف بقوله: «على كل من يؤيد توكيد هرقل

أن يتخلى ويتنازل عن كل شيء سيتخلى عنه هرقل ويتنازل لو أنه كان حاضراً»، أي عن كل سابقة ومحصلة للتوكيد، لأن التنازل، أو التخلي، عن أي شيء معارض للاقتراح الأول، — سوف ينتهي بدحض مشين جداً.

٢٩[15] : يشغل الأسقف الأعلى (أي البابا) — مرآة الدنيا كلها — منصب بطرس المبارك أو كرسيه، وبطرس المبارك هو أمير الرسل، ونائب ربنا يسوع المسيح، المخلص والأب للأرواح كلها، وإذا ما أراد البابا أن ينقذ الأرواح كلها، ويحفظها ومن ثم إعادتها إلى أبي جميع الأرواح، عليه أن يسعى جاهداً إلى إزالة كل حرب من الحروب، وكل ثورة، وكل نزاع، وأن يعلن أن هذا ما ينبغي القيام به، كما يتوجب عليه أن يبدأ بنفسه وبأخوانه الكرادلة، والأساقفة، أي أن يقوم بامثال ما قد كتب وينفذه وهو: «يسوع ابتداءً يفعله ويعلم به»، (الأعمال: ١ / ١)، وكما قال الرسول: «دعونا نعمل الخير لجميع الناس، بقدر ما نعمله لأنفسنا، ولا سيما للذين هم من أهلنا من أهل الايمان»، (غلاطية: ٦ / ١٠، بتصرف)، وعليه أن يتفحص البطارقة، ورعاة الدير، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، وبقية الكهنة والذين يشغلون مناصب دوقيات، أو كونتيات، أو بارونيات، مع بقية ذوي المناصب الدنيوية، وأن يعرف كيف يعملون، وكيف ينخرطون في أعمال القتال، وكيف هم أنفسهم يثيرون الحروب، التي فيها كما نرى، يلاقي الكثيرون الموت بمشاعر دنيوية — حسبما يحكم الناس — وأيضاً بمشاعر دينية، وأن يرى كيف أن الأساقفة الذين يتورطون بالحرب، يكرسون وقتاً طويلاً للعناية بحروبهم، ويهتمون بها، أكثر من اهتمامهم بخلاص أرواحهم، وأن يرى كذلك كيف أنهم يبددون الكثير من الوقت والمال على هذا النوع من الأشياء، وبالتالي يخفقون في مراعاة ما كتب، حتى في القانون المدني، من أن الاهتمام بمصالح النفوس البشرية هو الأول بأن يعطى الأفضلية على

كل شيء آخر، وفي البلدان التي لا ينشغل فيها هؤلاء الأساقفة بأعمال القتال، كما هو الحال في إنكلترا وفرنسا، يمكن للإنسان أن يرى كيف أنهم يوقفون أوقاتهم على النزاعات الناشئة عن الممتلكات الدنيوية، وكيف أنهم أهملوا العناية بأرواحهم، وانصرفوا نحو أعمال التحكيم المتواصلة، وإلى إدارات الأموال، وإلى الذين يحيطون بالأمرء من أجل تعويضات معتدلة، وكيف أنهم يناضلون ويبدلون جهودهم في سبيل سادتهم وأولياء أمورهم مع الخاضعين لهم لكي يبددوا في هذه القضايا ممتلكات الكنيسة التي هي ملك لفقرء يسوع المسيح، وكيف أنهم يدفعون تعويضات وجوائز للمحامين، وللوزراء، ولقضاة القانون البشري أعلى بكثير مما يدفعونه إلى المختصين بالقانون اللاهوتي، وكيف أنهم يهجرون كنائسهم، ويترددون على القصور ورفقة الملوك من أجل أن ينالوا البراعة والخبرة في مناقشات المتدييات، وكيف أن التلاميذ الشباب، يقومون بعد مشاهدتهم لعادات وأعمال الأساقفة، بإهمال دراسة الفلسفة، والقانون اللاهوتي، ويتدفقون جميعاً على مدارس القانون المدني، ولا ينالون في هذه المدارس: بوساطة البراعة القانونية، المنافع الكبيرة فقط، بل الأسقفية العليا أيضاً، وهم بذلك إنما يحذون حذو الكثيرين الذين نجحوا في استحواذ الأسقفيات الكبرى من خلال معارفهم وممارساتهم للقانون المدني، أو لم نصل إلى نقطة بات فيها الكهنة النظاميون الذين يمتلكون معارف في الفلسفة والشرعية اللاهوتية هم قلة فقط؟

أولاً غالباً ما يمضي الأساقفة وقتاً سنوياً أطول للعناية بالمسائل الدنيوية والاهتمام بها، والعمل بمزيد من الوقت من أجل منافعهم الخاصة في هذه المسائل أكثر من العمل من أجل خلاص الأرواح التي عهد بها إلى عنايتهم؟ وعندما يكون هناك كاهن كان قسيس كنيسة ثم صار أسقفًا، كم من المرات نراه مكرساً طاقاته للاستحواذ على منافع

دنيوية، بدلاً من أن يعمل أكثر من ذي قبل في سبيل خلاص الأرواح؟ أو لا يبقى الأساقفة، عندما ينشغلون بقضايا قضائية حول مسائل دنيوية، أقل نشاطاً أو بدون عمل تقريباً؟ أو لا يعيشون في رفاه عظيم، أعظم من رجال الدين الآخرين، وأعظم مما عاشوه هم أنفسهم قبل الوصول إلى منصب الأسقفية؟ وعندما يتولى الأساقفة الوعظ أحياناً والمطالبة بسلوك حسن، أو لا يحدث مراراً أن الشعب الذي يستمع إليهم، يقوم بتوجيه النقد إلى محبي القضايا القضائية المدنية واتهامهم، ومعهم المجرمين المدانين بالشر، والنهم، والظلم، أو لم يعتد الذين تعذبوا، أو أرغموا، على القول: «نحن نسمع هؤلاء الناس يتفوهون بكثير من الكلمات الطيبة، لكننا نراهم يفعلون العكس؟ ونستطيع نحن أن نשמلمهم بكلمات المخلص التي قال فيها: «على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون. فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون» (متى : ٢٣ / ٢ - ٤) و«من ثمارهم (أي من أفعالهم) تعرفونهم» (متى : ٧ / ١٦) وفي إشارة إلى هذا الموضوع قال الفيلسوف في كتاب القيم: «الذي يتفوه بكلمات طيبة ويصنع الشر يعبر عن نفسه ويعلن أنه معلم زائف».

٣٠[16]: ويتوجب على الأسقف الأعلى أيضاً أن ينتبه ويراقب كيف يقوم رعاة ديرة طائفة القديس بندكت — الذين يتوجب عليهم إدارة ممتلكات الدير والعناية بها — بالعيش بشكل عام في بيت الرب، وكيف يراعون بشكل عام أيمانهم حول الفقر، والرهبان الذين لا يمكنهم الاستحواذ على أية ممتلكات خاصة من دون اقتراف ذنب عظيم، هم أثرياء، ويسعون وراء الحصول على الهبات في داخل الدير، وفي خارجه، ويعهدون بها إلى أصدقائهم، وعندما يموتون، يرث هؤلاء الأصدقاء الممتلكات مما يقود إلى دمار أرواح كل من المعطي والآخذ، ويعدّ الأكثر حكمة بين هؤلاء الرهبان، الرهبان الذين في أكياس نقودهم المال

الأكثر، وذلك مراغمة لأيمان رهبنتهم، ولدى هؤلاء الرهبان أيضاً خارج الديرة عدداً من الرعاة غير الديرين، يتعاملون برساميل كبيرة ويبدلون، لصالح اثنين أو ثلاثة من الرهبان، فبعدما يزودوهم بالطعام وبالكساء، يقوم رعاة هذه الأماكن الملحقة بإيداع كل المتبقي في أكياس أموالهم، مع أنها من أملاك فقراء المسيح، ويستخدمون هذه الأموال الفائضة لتقديم دعاوى وشكاوى ضد رؤسائهم الديرين، أو لغايات شريرة، أو في أحسن الأحوال للحصول على إعفاءات من واجبات أخرى، حتى من أداء صلواتهم، فهم ماداموا يتولون مهام الرعاية، تراهم يتولون خرق أيمانهم وتعهداتهم، وهي ذنوب نادراً — أو مطلقاً — ما يقومون بالتوبة والاقلاع عنها أو بالاستغفار منها، في أوقات تالية.

٣١ : فضلاً عما تقدم غالباً ما يمارس الرهبان في هذه الديرة حياة كلها رفاهية، ومجون واحتساء للخمور، مع أشكال أخرى من حياة الفجور، وفي بيرغندي يترهب أبناء النبلاء أحياناً، بقصد الحصول على الرعوية من هذا القبيل، ليتمكنوا ليس فقط من الحياة براحة لا بل حتى للحياة برفاهية في الجامعات، وقد سمع السيد البابا عن كثيرين ممن يفعلون هذا، ومن المعتقد أنه على دراية جيدة بهذه الممارسات من خلال حياته في المدن الجامعية، وكثيراً ما كان رؤساء الديرة مع المسؤولين الآخرين في الطائفة نفسها مهملين، تقاعسوا عن تقويم مثل هذه الشرور، وهم يترددون في تصحيح الأخطاء لخوفهم من المنازعات والخصومات مع الذين ينبغي أن لا يخافوا منهم.

٣٢ : زيادة على هذا، هناك عدد كبير من الرهبان الشبان، يثرون المشاكل والخصومات، ومن ثم يكونوا راضين في إرسالهم إلى الزنانات، فقط على أمل بعثهم إلى مثل هذه الديرة، حيث سيتملكون المزيد من الحرية ومن ثم ممارسة حياة كلها فسوق.

٣٣ [17] : وعلى السيد البابا أيضاً رؤية كم كثير من الحروب الكبيرة

والمرعبة، قد أنشبهها أسلافه من البابوات، أو ما أن تفجر بعضها حتى أيدوها للدفاع عن ميراث بطرس المبارك، وكم هو كبير عدد الكاثوليك الذين أصدروا بحقهم أحكام الحرمان الكنسي والتكفير، لقيامهم بغزو هذا الميراث، وقد مات كثير من هؤلاء الكاثوليك وسط ذنوبهم، دون وجود أية علامة على التوبة والاستغفار، وعليه أيضاً أن يعرف كم هي المبالغ التي أنفقتها الكنيسة في مثل هذه الحروب، أو بسببها، ولربما تتطلع إلى إنفاق آخر في المستقبل.

٣٤ : وعلى البابا أيضاً أن يهتم بالأصوات التي ترتفع في كل مكان في الأراضي الخاضعة للكنيسة الرومانية، عندما يجري اتهام إنسان ما بالسيمونية.

أو لا ترون كيف يتقبل السيد البابا والكرادلة الهدايا من كل واحد أضفيت عليه المنافع، ولا سيما الذين منحوا منصب الأسقفية؟ وكيف يقومون من خلال عملائهم، بتدبير إقراض الأموال التي استخرجوها منهم، ولا سيما من الاعفاءات، إقراضها إليهم مقابل فائدة باهظة جداً؟ وألا ترون كيف، عندما يجري انتخاب اثنين إلى المنصب نفسه، وواحد منهما فقط يمكنه شغله، فيقومان بالعادة بتقديم التماس إلى مجلس الكرادلة، ثم بعدما يتحملان نفقات ثقيلة، ويمنحان الأعطيات، ويعانيان من المصاعب ومن المخاطر على الطريق، وعند الكرادلة، يجري رسم الاثنين وتسليمهما المنصب نفسه، وأحياناً يرغب أحدهما على التخلي عن حقه، ووضع القضية كلها بين يدي السيد البابا؟ وكيف اعتاد الناس على أن يؤمنوا للآخر كنيسة أو ديراً؟ وكيف أنه بات من عادة الذي هو من هذا القبيل، أن يستعد لأن يقدم إلى هيئة الكرادلة مبلغاً كبيراً من المال، يكون أحياناً سبعة آلاف، أو ثمانية آلاف، أو عشرة آلاف ليرة، يقترضه مقابل فائدة ثقيلة، يتولى تحصيلها، الذين يسمون أنفسهم بشكل مكشوف وكلاء البابا المصرفيين، ويقال بأنهم يتسلمون أموال

البابا، ويتولون العناية بها، ويقرضونها مقابل فائدة.

٣٥[18]: وعلى السيد البابا أيضاً أن يقدر أنه بما أن الكرادلة يشغلون مناصب عالية جداً، فإنه من الضروري بالنسبة لهم إنفاق مبالغ كبيرة من المال للمحافظة على مستوى العيش الحديث، وبالوقت نفسه ليس لديهم موارد البتة، تتناسب مع ألقابهم، لذلك بات من الضروري بالنسبة لهم — مثلهم مثل المرتزقة — أن يعيشوا من وراء السلب فكيف يمكن لهؤلاء الذين اعتادوا — أو أرغموا على التعايش مع مثل هذه الارغامات — أن يكونوا مقومين مناسبين للقاضي الأعلى، أو العمل قضية تحت إدارته؟ ففي مثل هذه المسائل من المفترض أن يمارس الأغنياء استخدام سلطاتهم الرسمية بطريقة محمودة، والعكس هو الذي يمارس في قضية الفقير، لأن الفيلسوف قد قال «الأضداد تولد الأضداد وتسببها»، والذين يختلفون بشكل واسع يقدمون المتناقضات، وتفسد العدالة بشكل عام بوساطة الرشوة، والوساطات، والخوف، والكراهية، والشر، وشرور مماثلة، وذلك حسبما تحدث آباء الكنيسة من خلال خبرتهم، وحسبما كتبوا في القانون الكنسي، وكل إنسان يعتقد ويقول: «الهدايا تقبل مشروطة»، ومثلما كتب المعلق على ابن رشد: «مما من شيء شاع بين الناس، كان كله زائفاً».

٣٦[19]: وهذه الذنوب والفرص من أجل اقتراف الخطايا، وكذلك الأشياء الأخرى تعرفها جلالتم الملكة عظمة التجربة، تمام المعرفة، وينبغي أن تبحث في المستقبل بشكل كامل، آخذين بعين التقدير الذي كتب في القانون الكنسي، والذي هو مقبول في كل مكان، والمقصود بذلك: «إن الذي يعمل الأساقفة يتخذ مثلاً يحتذى من قبل الرعية»، وإذا لم تعالج هذه الشرور، يمكن للظلم أن يظهر، عندما ينبغي أن تأخذ العدالة مجراها، ولسوف تهتز الأعمدة، وبذلك ستسقط الواجهة كلها، ولهذا كُتب: «إذا ما أذنب الكاهن المرسوم، فإنه سيؤدي بالناس إلى

الوقوع بالخطأ»، ويمكن للأساقفة، الذين ينبغي أن يبرهنوا على أنهم أنفسهم أطباء النفوس بالقول والعمل، أن يسببوا انتشاراً واسعاً للمرض نفسه الذي يتوجب عليهم معالجته، فلمعالجة مثل هذه الأمراض أطلق عليهم اسم آباء الأرواح، وجرت ترقيةهم إلى مناصب رفيعة، ومن ثم منحوا كل شيء جيد في هذا العالم.

افترض أن طبيباً تعين لمعالجة الابن الوحيد للملك وولي عهده، لا بد من أن يتلقى كثيراً من الجوائز، والترقيات، والتشريفات، ومثله حال أسقف من الأساقفة حيث يتلقى ما يتلقاه من أجل حفظ الأرواح، ولنفترض أن الأسقف وقتها سوف يجلس أمام المريض الشاب فمن خلال إهماله سيكون سبباً لمرضه، ومن ثم سبباً لوفاته، عن طريق شربه أو أكله بحضوره شيئاً رغب الطفل بتناوله، غير أنه كان قاتلاً له، وافترض أن الصبي قام بتقليده، وخيل إليه خطأ أنه سوف يكون أقوى بتناوله الطعام والشراب الذي يتمتع به الطبيب، أو أن يقوم بتذوق ما هو محظور، ويكون هذا سبباً لمنيته، فما هو وقتها واجب الملك وحقه نحو مثل هذا الطبيب، ألا ينبغي أن يقول له: «لقد حرمت على ابني تناول الطعام والشراب المميت الذي رغب به، لكن لأنك تذوقت ذلك بحضوره فإنه رغب بذلك أكثر من ذي قبل، لأنه وثق بأعمالك أكثر من وثوقه بكلامك، ولقد تذوق ذلك، ومات من هذا السبب، أو لا تعرف أن الذي يهيء الفرصة للأذى يعد مسؤولاً وكأنه مارس الأذى بنفسه؟ وأن التعليم بالأفعال أفضل من التعليم بالكلمات؟ وأولست قوة الرغبة عندما يكون موضوعها مرئياً، أكثر إثارة ودفعاً منها عندما يكون موضوعها غير مرئي؟ أو لم تلاحظ هذا الشيء في ميول فحول الخيل والثيران نحو الإناث من جنسها؟ أو لم تقل الكتابات المقدسة: «رفقة المرأة واصطحبها ينبغي استبعادها حتى يكونوا أقل رغبة»، ولقد أجزت نفسك لدي على أنك بارع ومجرب، غير أنك

أذنبت بحقي في هذا، فقد أقمت الفخ الذي تذوق فيه ولدي هذا الطعام المميت، ومات منه، فأنت مسؤول أخلاقياً من أجل موته، ولهذا ينبغي أن تموت»، فمن الذي يمكنه أن يقول بأن الملك حكم بشكل غير عادل في هذه المسألة؟.

أولا نرى بوضوح بأن الأساقفة غالباً ما يكونون متغييبين ومهملين القيام بواجب العناية بالمسائل الروحية، بسبب إنشغالهم بالمسائل الدنيوية التي هي ذات محصلات وفوائد قليلة، والتي بدونها سوف يعيشون مهما كانت الأمور — بشكل جيد؟ أولاً تراهم يبدون اهتماماً أكبر وعناية أعظم بالذين يدافعون عن مصالحهم الدنيوية، من الذين يهتمون بمصالحهم الروحية، أو لا يميزون هؤلاء بجوائز أكبر، وهم لم يعتادوا على فعل ذلك بشكل علني؟.

(٢٠) وعندما يرى رعاة الأرواح الأدنى مرتبة رؤسائهم يتصرفون هكذا، أولاً تراهم يميلون إلى تقليدهم وفعل الأشياء نفسها، لكن بطريقة فجة أكثر، أولاً يتماشى هذا مع مبدأ أن اليقظة تجذب يقظة، وبالتالي يولد الإهمال الإهمال؟ أولم يقل المخلص: «لأنني أعطيتكم مثلاً حتى كما أحببتكم أنا، تصنعون أنتم أيضاً» (يوحنا: ١٣ / ١٥)، وإلى هذا أشار الرسول بقوله: «ينبغي أن يكون كل عمل من أعمال المسيح أمراً لنا»، أولاً يتوافق القانون المدني مع هذا عندما يقول: «ليس مهماً فيما إذا عبر الشعب الروماني عن إرادته بالكلمات أو بالأفعال نفسها، والحقائق هي ذاتها؟ أو لا ينبغي على الأساقفة أن يكونوا متيقظين — كما يقول القانون — من أجل أنفسهم، خشية اقترافهم للخطأ، وخشية أن يبدون صناعاً للخطأ، وبذلك يجلبون لأنفسهم سمعة سيئة؟ ومن أجل الذين عهد إليهم بأمر العناية بهم، ومن أجل جيرانهم، وأقربائهم، خشية أن يقلدهم هؤلاء ويحذون حذوهم.

أولاً نعرف — تبعاً لما بشر به الآباء المقدسون — أنه ينبغي أن

تتضمن أعمال الأساقفة الأشياء التالية، وهي قراءة الكتابات المقدسة وتعليمها، وأن يزيلوا بصلواتهم ذنوب الرعية التي وضعت تحت عنايتهم، وفي حالات الذين لا يكون هذا الاجراء كافياً، يتم اللجوء إلى اللوم والتأنيب، والتقويم، ومعاقبة الذنوب المعروفة والمتداول أنها اقترفت، تاركين الذنوب الخفية إلى حكم الرب وحده؟ أولاً نرى أن الأساقفة الكبار غالباً ما يتوقفون عن أداء واجباتهم ، لأنهم يكونوا مشغولين بالمسائل الدنيوية؟ أولاً نرى أي نوع من أطباء الأرواح اختار هؤلاء الرجال ليكونوا معاونين لهم، وبأي اعتبارات قد تأثروا، مع أنهم يعملون في هذه القضية عوضاً عن الرب؟ ثم ما هي سمعتهم وما هو احترامهم؟ أو لم يحلوا روابط الدم، والروابط الاقليمية، والخدمات الدنيوية، فوق العقلانية، والحكمة، والخبرة، لدى الأطباء الذين عينوهم مكانهم؟، وبناء عليه ألا يتبصرون ويرون كيف يمكنهم السداد إلى الرب الواحد، عندما يكونون مرضى تماماً، ويسعون لتأمين خدمات هذا الطبيب الفرد، وأولاً يحق له الذي زودهم هكذا بالواحد المتوفر، أن يطلب تزويده بقبول الشرط الذي تسلموه من المسيح، الذي يرى الجميع؟.

افترضوا وجود ملك أو امبراطور كان على وشك الشروع بحرب كبيرة، فيها مخاطرة بفقدانه مملكته أو امبراطوريته، إذا ما أخفق بالحصول على النصر، وافترضوا أيضاً أنه يمكنه اختيار قائد فرد واحد من أجل هذه الحرب، وأنه سيعهد باختياره لواحد محدد من بين رجاله كان قد أعطاه عطايا كثيرة، مثل أنه كان رجلاً فقيراً جداً، فرقاه لأن يكون رئيس أساقفة كرسي كولون بوساطة الامبراطور، ولنفترض أن رئيس الأساقفة ذاك، الذي سيكون اختياره ضرورياً للدعم — مهما كانت النتائج — سوف يرى أن قائد الحرب ذاك سيغتنى كثيراً، وافترضوا أنه على هذا الأساس وقع اختياره على شاب قريب منه برابطة الدم، أو

بالخدمة، أو بالقومية، وأهمل بذلك رجلاً مسناً مجرباً، قد اعتاد على أعمال الحرب، لكنه لم تكن له روابط برئيس الأساقفة، لو أنه قام بهذا الاختيار، وفضل غير المجرب على الرجل المجرب، والجاهل على الرجل الحكيم، أو لن يلعن من قبل كل إنسان؟.

أو لم يعهد المسيح — أبو الأرواح كلها، وهو راغب أن يكونوا جميعاً منتصرين في الحرب ضد الشيطان — باختيار القادة لهذه الحروب التي هي من أخطر الحروب إلى الأسقف الأعلى، الذي هو نائبه الممنوح سلطات واسعة جداً، ودعا الأساقفة الآخرين كل حسب حصته من المهمة، وكل أسقف في أسقفيته الخاصة، وإذا ما قام هؤلاء الأساقفة بأعمال اختيار غير عقلانية حكيمة بسبب اعتبارات دنيوية، وإذا ما رفضوا الشخص المنتخب انتخاباً صحيحاً، من أجل تأمين العمل والمنافع لشخص آخر، يحبونه أكثر، أو لأنهم يتوقعون أن ينالوا منه الجوائز، وإذا ما أخفقوا في تزويد الكنائس وإمدادها برجال أحسن، لأنهم يفضلون آخرين لأنهم يعلمون أنهم أقل فضلاً، وسمحوا لأنفسهم بأن تقتنع باعتبارات غير اعتبارات إنقاذ الأرواح، أو لا يمكن للمسيح وقتها أن يدينهم بدون أدنى شك باقتراف جريمة عظمى ضد الرب؟ ولقد أغنى المسيح الأساقفة إلى حد كبير، إلى درجة أنهم لن يجدوا مسوغاً للحديث عن نقص بالملكات الدنيوية، ولا أن يتأثروا بأي مقدار للاتجاه نحو مثل هذا الاختيار، بموقف السواد الأعظم من الناس ورأيهم، أو ليس من الممكن للأسقف المتقدم ذكره، أو الدوق، أو الكونت، الذي اغتنى بمثل ذلك، لأنه الذي عهد إليه باختيار القائد، أن يعدّ منطقياً مجرمًا - جريمة عظمى بحق الرجل - وضده عندما يعاني قائد الحرب من هزيمة مأساوية، بسبب اضطرابه، وطريقته غير المجربة في تنظيم الجيش وقيادته؟.

٣٧ : أوليس صحيحاً أو حقيقياً أن المؤامرات الخطيرة التي تفجرت

في كنيسة الرب، وبين الشعب المسيحي كله هي من نوعية طريقة الحياة التي مارسها الأساقفة المتقدم ذكرهم، والرهبان، والساقطين الآخرين والمتجاوزين؟ أولم يقل الرسول حول هذه المسائل: «إذا كان أخي يعثر، فلن آكل لحماً» (كورنثوس: ٨ / ١٣) وأولم يستشر مصنف القانون كلياً بهذا فقال: «لكي تتجنب العثار، ينبغي أن يكون كل شيء يتوجب القيام به أو إسقاطه هو الذي يصنع أو يسقط من دون اقتراف ذنب عظيم»، ونقرأ في مكان آخر من القانون: «حتى ينقذ الإنسان حياته الدنيوية على المرء أن يفعل كل مايمكنه فعله دون أن يعرض للخطر حياته الأبدية، لأنه لا يجوز لأي إنسان من أجل إنسان آخر، أن يعرض نفسه لاقتراف ذنب عظيم، يتلقى بسببه عقوبة أبدية».

إذا أمكن تجنب الفضائح داخل جماعة صغيرة، وإذا أمكن من أجل هذه الغاية أن يصنع ما ينبغي صنعه، أو أن يترك بدون صنع، الخ، كم هو أهم تجنب الناس الفضائح في أسقفية، أو في مقاطعة أو حتى في مملكة كاملة؟ أو ليس يظل أعظم أهمية أن يتجنب الناس الفضائح، أي جميع الناس الذين هم رعايا للكنيسة الرومانية، وأن يتجنبوا سوء السمعة، الأمر الذي يمنح الجميع الفرصة للتخلص من سوء ما اقترفوه؟

٣٨ [٢١] ومن هو هناك، - عارف بشكل جيد بالأحوال الحالية في الكنيسة المسكونية ومدرك لأوضاعها الفوضوية في القضايا المعروضة أعلاه، والتي هي متباينة تماماً، وتختلف كلياً عن الأساس الذي وضعه أباء الكنيسة المتعلمون والمقدسون، ولا يعتقد أن الصلوات الحارة والأدعية العالمية التي تتدفق على الرب من أجل عون الأرض المقدسة، سوف تكون فعالة أكثر بكثير من ذي قبل، لو أن الأوضاع المتقدمة الذكر في الكنيسة المسكونية جرى اصلاحها؟ ومن المؤكد أن الأدعية المخلصة للأساقفة، ورجال الدين والناس جميعاً هناك حاجة إليها من

أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، فالقدرة البشرية لن تكون كافية، ولا الأسلحة الدنيوية والسيوف، وهذا هو مقصد القانون الذي حذرنا بقوله: «أعطي الناس بسبب ذنوبهم حكماً فاسدين أحياناً، وأساقفة أشراراً»، ولأن ذنوب الناس تقف معترضة في الطريق، فهؤلاء الناس غير جديرين بأن يكون لهم حكماً صالحين، ولا أساقفة مستقيمين، وتتوافق الشريعة الربانية مع هذه المقولة، عندما تقول: «بسبب ذنوب الناس، سأجعل المنافق حاكماً»، وبناء عليه عندما نرى أمراء أشراراً، وأساقفة فاسدين، من المحتمل كثيراً أن هذا بسبب ذنوب الناس»، ومثل هذا، وللسبب نفسه، قد نكون متأكدين أكثر، أن الناس أشرار، بسبب ذنوب الأساقفة، والمثل الشرير الذي يضربونه، وذلك أن الناس يستندون إلى أفعالهم أكثر من استنادهم إلى أقوالهم، وذلك على عكس ما شرعه الرب ودعا إليه عندما قال: «على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون. فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعمالهم لاتعملوا لأنهم يقولون ولايفعلون» [متى: ٢٣/٢-٣] .

٣٩ [22]: إن ما تقدم وكذلك المناسبات الأخرى من أجل هلاك الأرواح، وأيضاً العوائق التي تقف في وجه استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، معروضة أمام تقديركم الدقيق، وإذا — كما هو معتقد بشكل عام — كان اقتراحكم للعمل بشكل فعال من أجل مثل هذا الاسترداد والحفاظ، صادر فقط عن حماسكم من أجل نيل جزاء أبدي، لعل يرضي جلالكم الملكية العالية التجربة، التلطف بطلب العون من الأب الأكثر قداسة، كليمنت السيد الحاكم، والذي هو بفضل الحكمة الربانية هو الحبر الأعظم للكنيسة المسكونية الرومانية المقدسة، والذي يعتقد أنه منصرف نحو عون تلك الأرض والاهتمام بها أكثر من جميع المسائل الأخرى، أرجوكم، التمسوا منه، أن يكرس نفسه لإصلاح

أوضاع الأساقفة، والناس جميعاً وكهنة المسيحية جميعاً، من أجل أن يتحدوا بفضائلهم الدينية والدنيوية، (وهذا ما ينبغي أن يفعلوه) وأن يتكرسوا روحياً ودنيوياً، بالقتال بشكل متواصل، فبذلك سيكون من الممكن — بفضل الرب — تسريع نيل تلك البلاد بوساطة نصر يدوم بشكل مستمر، على أعداء الإيمان الكاثوليكي.

ومن مثل سليمان يبدو أن هذا ممكن الصنع، بوساطة سؤال رب الجيوش إعطاء الحكمة الحقيقية والوحيدة، وسوف يمنحنا هذا، إذا لم نطلب — وينبغي أن لا نطلب — المزيد من واردات الذهب والفضة، بل السلام الحقيقي في القلوب والأجساد، ومن ثم سلام المعرفة، وفهم وإدراك كامل، وكذلك فضائل أخلاقية.

٤٠[23]: وينبغي أن يكون السعي للوصول إلى غاية إصلاح الأوضاع مسعى تقوياً عالياً، والخبير الأعظم مثقل جداً، ومشغول كثيراً بالعناية بالمسائل الروحية، إلى حد أنه من الصعب أن نتصور أن لديه متسعاً من الوقت لإدارة أموره الدنيوية من دون الحاق الضرر بواجباته الروحية، ولهذا يتوجب أن يعهد بإدارة شؤون الحاصلات، والموارد، والدخل الذي يبقى بعد أعمال الانفاق وبعد دفع الأجور المعتادة وحسمها، والذي يصله بشكل معتاد، ويبقى بين يديه، إلى ملك كبير، أو أن تحول إلى أمير كبير، أو إلى أشخاص آخرين لتكون بمثابة وقف دائم، ويتوجب اتخاذ الاحتياطات المحكمة، حتى يمكن التفكير باتخاذ ضمانات من أجل البابوات المستقبلين، بحصولهم على عطاء سنوي دائم وبدون نقصان، وينبغي أن يحصل الدفع في أحواز ميراث الوقف البطرسي، وذلك حسب الوقت الذي يراه مناسباً، أو يقوم باختياره، عندها ينبغي للبابا، الصانع للسلام العالمي والمرتقي به، أن لا يقوم بإثارة الحروب، وأن لا يكون سبباً لموت الناس فجأة، أو للموت في حرب مرعبة، وسوف يكون لديه وقت وافر للصلاة، ولأعمال

الاحسان، وللدراسة، وللقراءة، وللتعليم الكتابات المقدسة، ومن أجل اصلاح الذين هم دونه، ووقت وافر لإدارة العدالة، ولرؤية أن العدالة تقدم إلى جميع الكاثوليك، ووقت وافر لتأمين سلام دائم إلى جميع المؤمنين بالمسيح، وبذلك يمكنهم العيش بسلام أحدهم مع الآخر، وأن يجاهد بأمانة من أجل استرداد ميراث الرب المصلوب وحمايته، ولن يجاهد البابا المقدس بعد هذا من أجل جمع الثروات، ولن يعاق في تأديبه واجبه بالعناية بالأشياء الروحانية، ولسوف يارس حياة تأملية، وكذلك حياة نشطة، بعون الرحيم معطي جميع الأشياء الجيدة.

٢٤[24] : على السيد البابا أن يتقصى أيضاً حول دخل الكرادلة والموارد المالية المتنوعة التي يتمتعون بها بلا مساءلة أو ريبة، أو فضائح أو عار، وعليه أن يفرد لهم — وهذا ما يستطيعه بكل سهولة — ما يكفيهم للعيش من وقف ميراث بطرس المبارك، في ظل شروط مشابهة لشروطه، وإذا ما تبرهن عدم كفاية ذلك، يمكن للسيد البابا أن يحصل لهم على تعويض كاف من أملاك الكنيسة المسكونية، وبالتحديد من أملاك الديرة المعفاة، وأملاك الأساقفة الذين يتلقون سيامتهم ومباركتهم من الكرسي الرسولي، ومقابل هذا يمكن هؤلاء الكرادلة أن يوفروا على أنفسهم الانشغال بخدمات عديدة، وبنشاطات كثيرة، مما اعتادوا على القيام به في مجلس الكرادلة، وكذلك الاهتمام بقضايا الانفاق، مادام ذلك قد سحب من مجلس الكرادلة، ولن يعودوا بحاجة بعد الآن إلى مقارنة هذا الموضوع من أجل هذا الغرض، ويمكن أيضاً للكنيسة المسكونية أن تسهم في مسيرة معايير النظام الجديد الذي يجري تفحصه من أجل أن يكون نافعاً للكنائس، ولسوف يضع هذا حداً للقضايا الجديدة المتعلقة بالمرشحين في الانتخابات والطلبات الأخرى لمجلس الكرادلة، التي غالباً ما يجري الاحتفاظ بها هناك لمدة طويلة بسبب الهدايا التي يستمرون بمنحها، ولقد اعتاد هؤلاء الكرادلة على

الانفاق على مراكزهم والاحتفاظ بها من خلال هذه الهدايا غير المنتظمة والرسوم.

٤٢[25]: وبعد تنفيذ هذه الاصلاحات، ينبغي اتخاذ قرار أنه إذا ما قام البابا أو الكرادلة بتحصيل هدايا أخرى إضافية، ينبغي انزال عقوبة قاسية بهم، كما أنه لا يجوز لهم الاحتفاظ بالهدايا إذا منحت لهم، والمتوجب هو انزال أقسى العقوبات بمقدمي الهدايا وبالذين يتسلمونها، وينبغي أيضاً تحديد عدد المطايا مع الخدم لدى الكرادلة.

وينبغي أيضاً الإعداد بوجوب تخصيص جزء من ممتلكات وأوقاف جميع الكرادلة المتوفين والأساقفة، من الكبير إلى الأدنى، وأن يكرس هذا الجزء ليضاف إلى التمويل المعد من أجل الأرض المقدسة، حتى يتم تحريرها بالكامل، وتحصينها كلياً، وإلى هذا ينبغي أن يضاف جميع الممتلكات العائدة إلى رجال الكهنوت الذين يتوفون بدون وريث أو وصية.

٤٣: وينبغي أيضاً أن يطلب من جميع رجال الدين المتنفعين إعطاء ربع ممتلكاتهم إلى التمويل المذكور.

٤٤: كما ينبغي أن يحول إلى التمويل المذكور جميع الأملاك المهجورة، أو التي ليست داخلة ضمن ملكية واحد من الأفراد، أو التي هي محولة إلى شخص غير معروف، أو هي ديون غير مقرر أمرها لأنها حق لأناس ميتين من غير الممكن ايجاد ورثتهم، أو هي منح صارت إلى أشخاص غير معروفين، وتركت بدون مالك محدد، وأملاك أخرى لا يمكن بأية طريقة الاحتفاظ بها أو الحصول عليها من دون إلحاق الأذى بإنسان ما.

٤٥[26]: وينبغي أيضاً العمل على تحويل وقف مواريث عدد من الأساقفة، لأن هذه الأوقاف قد استحوذوا عليها من أجل خدمات عسكرية، وأمكنهم المقاضاة من أجلها في المحاكم المدنية، نعم تحويلها

بالطريقة نفسها إلى لجنة وصاية وحفظ مناسبة، مقابل عائد مالي سنوي دائم، وإذا لم يمكن إيجاد المستحقين الحقيقيين لهذه الأوقاف على الفور، ينبغي تسلمها ووضعها مع دخولهم المقررة تحت الوصاية لمدة سنتين أو ثلاث سنوات، من أجل التمكن من معرفة قيمتها بشكل أفضل، وبذلك يمكن تجنب امكانية التزييف بتقدير القيمة من قبل الذين حولوا الموارد إلى شكل دائم، وعلى كل من يتسلم اقطاعات عائدة إلى أساقفة، أن يسجلوا أملاكهم الخاصة لتكون بمثابة ضمان إذا لم يتم بدفع الاعانة السنوية المتفق عليها، يجري تحويل الضمان إلى الكنيسة ليكون ملكاً دائماً لها، وسيضمن هذا الاجراء الكنيسة من التعرض للخسارة في دخلها بواسطة التزييف.

وفقط لو أن العدو القديم أخذ يعاني، من المتوجب تنفيذ هذه الاصلاحات، فوقتها سيرى أنه قد خدع بهذه الأعمال الإجرائية، وأن أحاييله، وإغوائاته قد أعيقت بذلك كثيراً، وإذا ما امتلك الأساقفة بواسطة هذه الإجراءات، دخلاً أقل من ذي قبل، فإنهم لن يخسروا شيئاً لأنهم سوف يوفرّون أكثر بكثير— حتى من الجانب المالي— عن طريق رواتب المحامين، والوكلاء، وفي النفقات الشخصية من أجل رؤساء المحاكم، ومسائل أخرى كثيرة، هم بالعادة يثقلون بها بسبب أراضيتهم الموروثة.

وبعد تفحص هذه الاقتراحات بعناية— مثلما فعل كاتب هذه الرسالة شخصياً، وتفكر فيها— لاشك أن الأساقفة سيكونوا قادرين على استغلال هذه الاصلاحات من أجل زيادة الموارد العظيمة التي تتدفق على أكياس نقودهم، إلى حدود لم يتمعوا بها حتى الآن، ومع ذلك سوف يتمم بعضهم— وقد أثارهم الشيطان— ضد هذه الاقتراحات، ويسعون عبثاً للحصول على مسوغات وأعداز كلامية وفذلكات أخرى حتى يتمكنوا من تجنبهم: أمل من الذي يعرف الأشياء

جميعاً منذ الأبدية، أن يتفضل بنعمته بالقتال ضد هذه الاعتراضات.

وهذا الاصلاح، سوف يجد بعض الأساقفة المذنبين اعتادوا على الانفاق على عشرين أو أكثر من عشرين من الحاشية والخدم، وعلى نفقات أخرى كثيرة، سوف يقتصرون على الانفاق على أربعة.

وسوف يكون بعض المحامين العاملين في المحاكم المدنية هم الأكثر خسارة بهذا الاصلاح، لأن الأساقفة، الذين سوف يستحوذون على أوقافهم من الآن فصاعداً على شكل مبلغ سنوي محدد، لن يكونوا بعد الآن مسؤولين عن الدفع لهم الرواتب المعتادة والنفقات الأخرى، التي اعتاد هؤلاء المحامون على تسلمها من مصادر كثيرة، وبطرق متعددة مباشرة وغير مباشرة.

٤٦ [27]: وإذا ما تحققت هذه الاصلاحات فإن جميع مصالح ومنافع الذين يعبدون المسيح سوف تكون قد تأسست بمثابة هدف واحد هو ذلك الهدف، وبذلك يتجنبون نشوب النزاعات ووقائعها، وسوف تتوجه جميع جهودهم نحو دعم الايمان المسيحي والرفع من شأنه، وسوف يكون هذا متماشياً مع المنطق لأن الفيلسوف يقول: « العالم هو وحدة، مثلما الجيش هو وحدة»، ويعدّ الجيش وحدة بسبب اتحاد تنظيمه، لأن هدف الجيش الذي يسعى إليه القادة، ويعملون من أجله هو النصر، وعلى كل رجل في الجيش أن يأخذ بهذا الهدف ويناضل بكل قواه من أجل الوصول إلى هذه الغاية، وإذا ما نفذ هذا كما ينبغي، فنادرًا — إن لم يكن مطلقاً — ما سيخفق الجيش في مساعيه وتحقيق أهدافه.

ووفق هذه الطريقة ينبغي توجيه قوى العالم نحو هدف واحد، أي نحو الخالق الجبار للسموات وللأرض وللأشياء كلها، وحسبما يقول بوثيوس Bothius كل إنسان يسعى من أجل هذا الهدف، غير أن عدداً كبيراً من الأشخاص الأشرار يقترفون الخطأ، وينشدون ذلك

الهدف في الحانات، وفي بيوت الدعارة، وفي أعمال اللصوصية وفي النهب، وفي السيمونية، وفي الأعمال الأخرى غير القانونية، ويقترب هؤلاء الأشخاص الأخطاء باتساع، ومثلهم مثل الذي يسعى لاصطياد السمك في الجبال، ولصيد وحوش الأرض في البحر، والذي ينشد ذلك الهدف، ويبحث عنه حيث هو يجده، وبما أن هؤلاء هم — أو هكذا ينبغي — أكثر الناس كمالاً، مثل الأساقفة، عليهم السعي وراء هذا الهدف ونشده لا في الحروب، ولا في الأعمال القضائية، ولا في المشاحنات، ولا سيما حول المسائل الدنيوية، بل في قراءة الكتابات المقدسة وفي تعليمها، وفي الصلوات، والأعمال المتعلقة بيوم القيامة، وذلك حسب طرائق مريم ومرتا، والذي عليهم السعي في سبيله هو السعادة الدينية والدنيوية، وذلك حسب عبارة الفيلسوف، وإذا ما قاوموا الإصلاحات المقترحة، وناضلوا من أجل العودة إلى مشاحناتهم الدنيوية، ومشاغلمهم الآنية، فإن الكلمة التي قالها المخلص عن مثل هؤلاء الناس يمكن تطبيقها عليهم، وأعني بذلك قوله: «ليس أحد يضع يده على المحراث، وينظر إلى الوراء يصلح للمكوث الرب»، (لوقا: ٩ / ٦٢).

٤٧ [28]: ولسوف يكون هذا الإصلاح ممجداً جداً، ومتواتماً مع أوامر الرب القدير، «الذي ينبغي أن يكون عمله أوامر بالنسبة لنا»، وذلك تماشياً مع قول الرسول، ذلك أن هذا العمل يمكن البرهنة على أنه حاسم.

وإنني أعتقد أن ما كتب في العهد القديم هو نموذج وأساس للعهد الجديد.

وأعتقد أبعد من هذا بأن الرب أعطى أرض الميعاد — التي صارت تعرف بالأرض المقدسة، لأنها تقدست بحضور الرب وعمله ودمه بها — إلى الأسباط الاثني عشر من بني إسرائيل، لأنهم خدموه، وحافظوا

على عقيدته، وشريعته ووصاياه.

وأعلن أيضاً عن إيماني بحقيقة أن أبناء لاوي من كهنة ولاويين، قد بشروا بشريعته وراعوها، وخدموا الرب بعناية أكبر من الآخرين، ومع هذا قضى الرب أن يكون لهم حصة في توزيع هذا الميراث، بل أمر يوشع بتقسيمه بين الأسباط الأحد عشر، وجرى تعيين سبط لاوي للقيام بعبادة الرب، وتوجب عليه أن يرضى بنيل عشر حاصلات الأسباط الأخرى، وقد فعل هذا حتى لا ينشغلوا ويتعدوا عن عملهم اللاهوتي بالعمل في زراعة الأرض.

٤٨: وبناء عليه إذا ما حصل الأساقفة مقابل ميراثهم الوقفي على ما يكفيهم من المال للعيش — بالحقيقة بقدر ما كانوا يحصلون عليه من قبل بعد اقتطاع النفقات والرسوم المعتادة وإذا ما رفضوا هذا بسبب أنهم ربما يمكن أن يحصلوا على ثلاثة أضعاف أقل مما اعتادوا الحصول عليه في ظل النظام القديم، (وهذا ما لا أعتقد، لكنني مقتنع تماماً أنهم سيحصلون على دخل أكبر من ذي قبل) أو لن يكونوا غير متوائمين مع قواعد تعاليم الرب؟ وإنهم إذا ما وضعوا جانباً تعاليم الرب وحكمته، بسبب أن موقفهم يسير بالاتجاه المعاكس، أو هو مضاد لأعمال الرب ولتعاليمه، أو لن يرفضوا بحق من قبل الرب الذي سوف يقول لهم:

«لقد رفضتم الفرصة التي قدمت من أجل خلاص أرواحكم، وخلاص أرواح الذين أنتم مسؤولون عنهم، واخترتم طريق الهلاك لأرواحكم، ولأنكم هكذا، انظروا إلى الخلف، فأنتم لا تستحقون ملكوتي، وبتصرفكم هكذا أنتم لم تصغوا إلى أوامري، ومبادئي، وآرائي، وقد رفضتم أن تحبوني، وأن تحبوا جيرانكم من كل قبلكم، وسعيتم وراء تسويغ لإخفاكم الواضح في أن تحبوا من صميم قلبكم، وإنكم لم تدركوا أن الفيلسوف، الذي يستخدم المنطق المجرد قد كتب: «الذي يقدر التهئة من أجل سعادته التأملية، يستحق الطعام، واللباس،

والأشياء الأخرى الضرورية لقوام الحياة، لكن لبس هناك من حاجة لأن يكون سيد البر والبحر»، وإنكم حتى لم تدركوا أنه في قانون الآباء المقدسين، قد ضرب مثل جيد بسقراط، ذلك الرجل الذي جاء من طيبة، وألقى الثروات في البحر، من أجل أن يتمكن من التفكير والتعبد وهو غير مشغول البال، وهو لم يرفض الثروات فقط، بل إنه لم تتوفر لديه الرغبة فيها، مع أنه كان مشغولاً دوماً بالمشاحنات، والمحاکمات، والحروب، ولقد رفضتم ثروة سلام ستكون بدون أدنى شك أقل إعاقة للتأمل.

فكيف يمكن للأساقفة أن يحيبوا، وكيف يمكن لهم أن يسوغوا أنفسهم، إذا ما رفضوا القيام بتنفيذ اقتراح الإصلاحات؟.

[29]: وإذا ما جرى تبني هذه الاقتراحات، لن يتمكن أعداء السلام، كما يبدو، من تقديم مسوغات مقبولة لإعاقة مثل هذه الإصلاحات، ولسوف يشعرون بالاحراج، ومن المحتمل كثيراً أنهم سيخضعون برغباتهم، وذلك على الرغم من قدرتهم على رؤية كل شيء وتذكره في الحاضر، وفي الماضي منذ بداية الدنيا، وإذا ما حاول أي إنسان الاعتراض، سوف توجه إليه النصيحة بأن يقوم بمحاولته بحجة تعدد القراءات، وأخطاء النساخ في الكتابات المقدسة، علماً أنه لا يمكن نشر الكتابات المقدسة، من دون أن تكتب في أوقات مختلفة، حتى من قبل الكاتب نفسه، ولا من دون أخطاء إضافات أو حذف، وذلك حسبما يقول القانون المدني، ومرد هذا إلى وئام الحركات في السموات، مع تبدل توجهاتها، وكذلك إلى الأجسام السماوية، ولكن بما أنه بالنسبة للهدف الذي ننشده «لا يوجد تغيير، ولا أثر للتبديل» فإن الأساقفة لن ينظروا إلى قراءات متنوعة، وإذا ما رغبوا في استخدام وسائل المقارنة هذه، ولسوف يجري توجيههم من قبل المنطق الصحيح، وليس بالأمثلة، والقول: «لقد تولى آباؤنا المقدسون الكثيرون، وأساقفة الكنيسة

الرومانية المقدسة، والكنائس الأخرى، والذين كانوا أقدم منا وأكثر حكمة، تولوا إدارة الموارث الوقفية على هذه الشاكلة، ونحن نرغب في تقليدهم بالعيش، في ولاية الموارث الوقفية بالطريقة نفسها»، ومن الممكن إجابته كمايلي: «هذا ليس بقياس، لأن الآباء المقدسين كانوا من ذوي العزم، وقد أداروا شؤونهم الدنيوية والدينية بشكل مقنع، وعندما تتبع المحدثون مثلهم كان ما فعلوه هو زيادة المشاحنات زيادة كبيرة وذلك مع الأخطاء الانسانية، ووفقاً للقانون المدني ليس علينا إعطاء اعتبار «لما صنع في روما، ولما لم يصنع، بل علينا أن نهتم بما صنع، وبما ينبغي أن يصنع»، و«علينا أن لا نتردد في تبني طرائق جديدة، عندما تكون فوائدها واضحة».

[30] أو لم يقل ابن رشد بأن العرب قد عانوا من الشرور، لأنهم اعتقدوا بوجوب إطاعة شرائعهم عالمياً، ولا يجوز تعديلها بأي حال من الأحوال؟ أولم يتشكل كل قانون وكل نظام للشرعية المدنية وفقاً لما هو جيد ومفيد؟ وفي الحقيقة نادراً ما يمكن إيجاد كل شيء في هذا العالم يمكن أن يكون جيداً وناجحاً في كل مكان، وفي كل زمان، ولكل إنسان، وعلى هذا تتنوع قوانين البشر وشرائعهم، وفقاً للمكان وللزمان، وللحالات الفردية، وقد قال كثير من الفلاسفة بأن هذا ينبغي أن يكون هكذا عندما تتطلب المنافع ذلك بوضوح، ولقد غير الرب، الذي هو رب المعارف كلها، والذي هو معلم الآباء المقدسين، والفلاسفة، في العهد الجديد أشياء كثيرة، كان قد أمر بها في العهد القديم، ليعلمنا أن نعمل مثلها، وأن نفعلها من دون تحريف، وقال القانون الرسولي، الذي جرى إعلانه من قبل الآباء المقدسين المتقدمي الذكر، هذا في كثير من الكلمات من ذلك: «ينبغي أن لا نعد أنه أمراً مشجوباً، أن القوانين البشرية تتغير أحياناً مع تغير الوقت، لأنه حتى الرب نفسه غير أشياء كثيرة في العهد الجديد، كان قد أمر بها في القديم»، وعرض القانون

المدني الأمر وحدّده على الصورة التالية: «كل تحديد في القانون المدني هو خطير، لأن الذي لا يمكن تغييره هو غير كاف»، وتقول قاعدة أخرى: «في شريعتنا مبادئ عامة تتعدل بالاستثناء».

وبما أن الأمر كان هكذا، فينبغي أن يكون الأسلوب لوضع القوانين: بما أن القانون العام قد سنّ من أجل الصالح العام، فإنه إذا بدا أن أي شيء فيه كان قاسياً بلا مسوغ أو مختل، أو هناك نتائج ظالمة من تطبيق ذلك القانون بدقة في قضية خاصة تحت القاعدة، لئلا كان، وينبغي أن تكون القاعدة في مثل هذه الحالة، اتخاذ قرار مخالف مباشرة، خشية أن ينشأ ظلم من القانون العام، أي أن تقول ينبغي تطبيق قانون خاص على قضايا خاصة، وبحدود، وتعديل القانون المنشور بشكل عام عندما تستدعي ذلك حالة خاصة.

أولم يقرر القديس أوغسطين — معلم الانكليز، حسبما يُقرأ في قانونه — أنه لن يقوم بسيامة أي رجل دين، ما لم يقيم هذا الرجل بالتخلي عن ممتلكاته، ومن ثم ممارسة الحياة الدينية بمثابة راهب؟ وقد وجد فيما بعد، أن عدداً كبيراً، كانوا من أجل أن تتم سيامتهم، يتظاهرون بأنهم سيفعلون ذلك، لا بل يفعلون، وبالفعل كانوا غير ذلك، ولهذا، ولكي يتجنب نتيجة النفاق الشريرة قال: «من المؤكد أنني أنا الذي قررت، أنه لن تجري سيامة أي واحد ما لم يفعل كذا وكذا، ولكن بما أنني علمت أن عدداً كبيراً هم مخادعين، اشهدوا أمام الرب، وأمامكم، أنني مغير لقانوني، وهكذا غير هذا الرجل القديس قانونه في وقت قصير، وتشريعه بسبب سوء تطبيقه، ولقد كان القانون قانوناً جيداً، فقط لو أن رجال الدين لديه راعوه بشكل جيد.

واعتماد كثير من الأساقفة على الدفاع عن مواريتهم الوقفية، متخذين ذلك حجة من أجل الانخراط في الحروب، وفي المحاكمات، ولقد أهملوا واجباتهم الروحية، أو على الأقل أعطوا إهتماماً أكثر لمواريتهم الوقفية،

وبسببهم تحملوا المزيد من النفقات، وبذلوا المزيد من العناية، والجهد، أكثر مما كرسوه لواجباتهم الروحية، فلماذا لا يعهدون بواجب الدفاع إلى آخرين، محتفظين بالدخل المعتاد لأنفسهم بعد دفع النفقات والأجور، ويكونوا بذلك مثل أولئك الأساقفة الذين عهدوا بمهمة صيد الحيوانات الضارية إلى آخرين، وعملوا من خلال آخرين، في حين احتفظوا بغنيمتهم؟.

٤٩[31]: وإذا ما اعترض إنسان قائلاً: «هناك بعض الأساقفة الذين لا يهتمون العناية بواجباتهم الروحية من أجل الدفاع عن أمورهم الدنيوية»، يمكن للإنسان أن يرد على هذا بالقول: إن هذا مما لا يحتاج به، فقد اعتاد الذين تولوا صياغة الشرائع والقوانين على الاهتمام بالأشياء التي تحدث باستمرار، وليس بشكل نادر، وصحيح أن بعض الأساقفة يهتمون أكثر من آخرين بهذه الانحرافات، والذي يهتم أكثر وأكثر، وبمواظبة أكثر يكرس نفسه للحروب وللمحاكمات، والذي هو ممدوح أكثر في أعين العيون الدنيوية، إنه هو الذي حكمته جنون بنظر الرب، ومثل هؤلاء الناس قد دفعوا وتأثروا بهذه الاعتبارات إلى حد أنهم نظروا إلى مجدهم الدنيوي، على أنه جائزتهم الكلية، وقد اقتنع آخرون بتقليدهم بطريقة تستحق اللوم، وفي الوقت نفسه يتابع العدو القديم للسلام بكل الاعتبارات، وعدو الأرواح، يتابع أعماله وجهوده مع جيشه المتحد، ويبذل كل جهد مستطاع لديه من أجل تدمير أرواح الناس.

وإذا كان الشيطان يستثير الأرواح السبعة التي هي أسوأ منه شخصياً، من أجل جذب وإفساد فرد واحد، كم سيجتمع من الحشود أكثر، ومن قوى جيشه، من أجل إعاقه هدف هذه الرسالة، التي سوف تقاوم فرصة عظيمة لا مثيل لها من أجل دمار الأرواح؟ فهو يرى كل شيء في الحاضر، ويتذكر كل ما حدث من قبل، وبارع في علم

استخلاص المستقبل من الماضي ومن الحاضر، ولسوف يكون من الصعب جداً تجنب جيشه من الشياطين مع جميع إغراءاتهم، ومعيقاتهم، وإغواءاتهم، لكن كما ذكرنا من قبل إن هذا لن يكون مستحيلاً، لأن الشيطان نفسه الذي يعدّ والد الكذب، وجميع الكذابين هم أولاده، (مثلاً الرب هو الصدق، والأشخاص الصادقون، مادامو كذلك هم أولاده) يكذب في كثير من الطرق عندما يتولى إقناع الأساقفة بمناقشة من الواضح أنها متناقضة، ويخدعهم من خلال الكذب، مثلاً خدع والدنيا الأولين، ومن المؤكد أن هذه أزمة أخلاقية، ولهذا فإن النتيجة الحقيقة لا يمكن الوصول إليها بوسائل التظاهر والمراعاة، ولقد جرت العادة بين القوانين العامة أولاً، ثم عندما ينجم أي تناقض أو ظلم مضر في قضية خاصة تحت مبادئ أو قواعد قانون جرى تطبيقه بحذافيره، جرت العادة صياغة قانون خاص يتولى تعديل القانون العام، ومثل هذا، عندما تظهر تناقضات أو شرور أخرى تتبع وتأتي عادة من مراعاة شريعة أو قانون عالمي، ففي العادة، والأمر الأفضل، إتمام إعادة النظر الدقيقة من قبل الذي لديه السلطة لفعل ذلك، وبناء عليه على المشرع الأعلى للقوانين أن يقرر أولاً ما هو مطلوب من أجل تقدم الأرض المقدسة، وإنقاذ المصالح العليا العامة للكاتوليك.

٥٠[32]: وتحتاج الأوضاع بين الأساقفة أيضاً إلى الإصلاح حيث ينبغي في المقام الأول، أن يقوم الأساقفة بالاستحواذ على جميع الإدارات والأعمال ذات الطبيعة العلمانية، وأن يضعوها في أيديهم، وينتزعوها من الرهبان، ثم أن يأمرُوا بإدارتها من قبل هيئة إداريين علمانيين، يمكنهم أن يتولوا اختيارها بناءً على نصيحة ثلاثة أو أربعة من رهبانهم، ممن هم حكماء ومجربين، ومتميزين على البقية، وزيادة على هذا على الأساقفة النظاميين، ومثلهم الأساقفة المدنيين — لأسباب قوية جداً — عليهم فوراً وبدون تأخير، تشكيل هيئة وصاية على شؤونهم الدنيوية، وسبب

هذا، أنهم اعتادوا من وقت إلى آخر أن يشغلوا أنفسهم حول المحاكم، وبذلك ابتعدوا عن تأملاتهم الدينية.

٥١ : وإذا ما احتج كل من الأساقفة المدينين والأساقفة النظاميين، أنه مضر لمصالحهم أن يقوموا بعملية التحويل هذه إلى هيئة وصاية دائمة، من الممكن إقناعهم بالقبول من قبل أباطرتهم، وملوكهم، وأمرائهم، حيث يمكن لهؤلاء النظر نحو الخلف ومن ثم أن يروا بأنهم قد صرفوا شطراً كبيراً من دخلهم، ومنتجاتهم، وموارد ممتلكاتهم — في كل سنة من السنوات — في إدارة أراضيهم، وفي الدفاع عنها، وفي مباشرة أمور العدالة، وإصدار الأحكام، ولقد سمعت أن موارد ومنتجات مملكة نافار، تصل إلى مبلغ خمسين ألف ليرة تورية، وبصعوبة بالغة قد يصل إلى ملك الفرنسيين — لأنه يحكم من خلال الآخرين — مبلغ خمسين ألف سولدي Solidi، بعد حذف نفقاته، ونفقات الإدارة والدفاع.

٥٢ : وافترضوا أن واحداً من الناس قال للملوك وللأمراء: «إذا كان أي واحد منكم طلب سن مثل هذا القانون ضد الأساقفة، عليه الالتزام بهذا القانون نفسه، ولنفترض أنكم أول من قام بتحويل ممتلكاتهم الدنيوية، وبذلك ضربتم مثلاً جيداً للأساقفة، وإلا — حافظوا على الصمت تجاه هذه القضية، وربما يمكن أن يجيب، إنه مثلما لا يستطيع الأساقفة الخلاص من مسؤولياتهم بالعهد إلى آخرين بإدارة الأشياء الروحية، كذلك الأمر بالنسبة إلى الأمراء فيما يتعلق بالأشياء الدنيوية، لأنه مثلما أعطيت ثروات الكنائس إلى الأساقفة، وعهد إليهم بها، من أجل تقديم العون بكل وسيلة لتوجيه الأرواح وقيادتها، كذلك أعطيت الممتلكات الدنيوية إلى الأمراء، وعهد بها إليهم، من أجل أن يتمكنوا في كل مكان من حراسة السلام في بلدانهم، والدفاع عنها، ومقاومة كل شر مهما كان نوعه، وإصدار الأحكام، وممارسة العدالة بمكافأة المحسن

في كل مكان، ومعاقبة الشرير وتقويمه، والأمراء — لاسيما الذين لا يرون، ولا يعترفون بمن هو أعلى منهم على الأرض في المسائل الدنيوية لديهم سلطات قضائية، ولقد اعتادوا على التفوه بأحكام أشد قسوة في قضايا تتعلق بتقصير موظفيهم، وأعنف منها في قضية أي من الآخرين، فهم يرون عزل هؤلاء الموظفين من مناصبهم بسبب ذنوب صغيرة اقترفوها، وذلك وفقاً لطرائق الرهبان الذين هم في ظل الخوف من العزل، والعقوبات التي ينزلها المقومون والمحققون من خلال إجراءات قصيرة، ولا يمكن إنزال مثل هذه العقوبات بشكل جاهز بالذين يشغلون مناصبهم بوساطة ولاية دائمة، ولهذا من الأحسن جعل مثل هذه التعيينات أكثر جاهزية للعقوبة، وأقل جدية في اقرار الاعترافات الجدية، مع تحريات أقل، ويمكن نقلهم باستمرار أكثر.

وحيثما كان الأساقفة متورطون، إنه أفضل بكثير أن يحكم عليهم من قبل آخرين بدلاً من أن يقضى عليهم من قبل أنفسهم، وأن يتولى ممارسة أعمالهم الادارية آخرون، فمن الممكن بيسر استخراج أدلة ضد شخص ما ممن يتولى ممتلكات لصالح الأسقف، من استخراجها من الأسقف مباشرة، وفي الحقيقة أصر عدد كبير من الأساقفة في عدد كبير من القضايا على أنه لا يجوز معاقبتهم من قبل أمير دنيوي، من أجل جريمة، بسبب أعمالهم الشخصية (لا بل إنهم يقولون بأنه لا يمكن معاقبتهم من قبل مثل هؤلاء الأمراء) بسبب أي عمل شخصي مهما كان نوعه.

٥٣ : فضلاً عما تقدم، إنه أسهل إبداع طريقة إجراءات قضائية ضد الآخرين الذين بين أيديهم ممتلكات لصالح الأساقفة، من القيام بذلك ضد الأساقفة أنفسهم، فالآخرون سوف يخافون خوفاً شديداً من النفقات، والغرامات، والعقوبات.

زيادة على هذا، سوف يبقى الأمراء بلا عمل، ما لم يشغلوا بحكم

رعاياهم، وهكذا يمكننا أن نفترض أنهم غالباً ما سيمتلكون الوقت من أجل تبديده في الحروب وفي أعمال شهوانية مما يمارسه الناس الذين ليس لديهم أعمال، ومثل هذه الفرص ينبغي بالحرى تجنبها، بدلاً من السعي من أجلها، واختيارها.

٥٤ [32] : وينبغي القيام بمحاولة استدعاء جميع الرهبان المتسكعين في الأماكن وفي الرعويات غير الرهبانية، للعودة إلى ديرهم، من أجل أن يمارسوا الحياة الرهبانية هناك، وخشية من أن تتناقص الصلوات في مثل هذه المؤسسات غير الرهبانية، ينبغي تعيين قسيس في كل واحدة من بيعهم، وينبغي أن يعيش هؤلاء القسس حياة متواضعة، كما عليهم تأدية الواجبات الدينية هناك كل يوم.

٥٥ — ما الذي ينبغي أن يصنع بممتلكات الرعويات غير الرهبانية، أو التي فيها مجرد ثلاثة رهبان أو أربعة فقط؟ فإذا كان الدير بحاجة إلى رعاية رهبانية كافية من أجل نقل الرهبان المقيمين إليه في بعض الأحيان، لأسباب محلية تتعلق بسوء السلوك في الدير، فلا بأس من تأسيس دير رهباني مع مؤن قليلة جداً من أجل رهبانه، ووقتها سوف يخشى الرهبان من الإرسال إلى ها هنا، وسوف يسلكون ويتصرفون بشكل أحسن في ديرهم خوفاً من إرسالهم للعيش في دير، الدخل المعين له قليل جداً.

٥٦: لكن إذا كان الدير ليس بحاجة إلى مثل هذه الرعاية الرهبانية، وكان عدد رهبان الرعوية قليل جداً، من المتوجب تحويلهم إلى دير، ليتولوا خدمة الرب داخل الدير المغلق.

وينبغي أن يعين من أملاك الرعويات المحولة لصالح الدير مبلغ يعادل النفقات الفعلية لعدد كبير معلوم من الرهبان كل سنة، وعلى هذا سوف تكون القديسات وتنفيذها بداية وممارسة ذات شكل أفضل،

ولسوف تتمكن الديرة من استرداد أولادها الذين كانوا يحومون من خارج الدير وإليه، فهم لن يعودوا بعد الآن مثقلين بالمسائل الدنيوية، ولسوف يمارس الرعاية والرؤساء كثيراً من العناية المفرطة من أجل الحسائر الروحية، وسوف يتغلبون على متاعب كثيرة جداً.

وهذه الطريقة سوف تكون جميع ممتلكات دير ما بأيدي شخص واحد، أي بأيدي الذي من واجبه إدارتهم، وهو لن يخشى من تقويم أبنائه أو إرغامهم على مراعاة النظام بسبب أموال خبأة في أكياس أموالهم عن طريق الممارسات المنحرفة التي تقدم ذكرها، فبوساطة مثل هذه الأموال كانوا قد اعتادوا على النضال، والعصيان والتمرد من أجل خلع رعاتهم، وإثارتهم، والتشكي ضدهم، فهذه الطريقة يكونوا قد بددوا معظم الممتلكات الديرية، وأودعوها في أكياس أموالهم، وذهبوا بها، بعدما يكونوا قد كرسوها في خارج الدير، وغالباً ما يخسرونها مع أرواح كل من المودع والمتسلم، وقد حرضت هذه المخالفات الروحية الكبيرة، كاتب هذه الكلمات لأن يفكر، ولأن يكتب من أجل الصالح العام، مع أنه قد تسلم، ولربما سوف يتسلم في المستقبل أجوراً كبيرة وكثيرة من مثل هذه الممتلكات، إذا ما أعطاه صانع الحياة حياة مديدة.

٥٧[34] : وما الذي سوف يصنع بممتلكات مثل هذه الديرة التي بقيت بعد القيام بعمليات الحسم المقترحة؟ قد يجيب إنسان: إنه وفقاً لمبادئ الآباء المقدسين، ليس رجال الدين النظاميين وغير النظاميين أصحاب أملاك لاهوتية، لكنهم يتولون إدارتها فقط، ويمكنهم أن يتسلموا منها — بقرار من الكنيسة — الطعام، واللباس، والأشياء الأخرى الضرورية لقوام الحياة، والمتبقي هو ملك للفقراء، وهو من أجلهم، وكل الذي احتفظوا به عن طريق الإداريين هو لإجحاف بحق الفقراء، أو أنه استخدام من أجل استعمالات غريبة، أو جرى الاحتفاظ به من أجل إيذاء المسيح والفقراء الذين هم رعاياه، وهذا كله سرقة،

واختلاس، ودنس.

وتبقى الحقيقة هي أن هؤلاء الرعاة البعيدون، وتقريباً جميع رجال الدين يسيئون استخدام ذلك المتبقي من الممتلكات العائدة إلى الكنيسة وإلى الديرة، وبناء عليه ينبغي أن يفقدوا طوال الوقت الامتيازات، أو — لتكلم بصدق أكثر — فرصة إدارة ممتلكات من هذا النوع، وفقاً لرغباتهم، ولسوف يمنع هذا الكهنة العلمانيين من كنز مثل هذه الثروات الهائلة، من أجل إيذاء الفقراء الذين غالباً ما يرونهم قرب كنوزهم، غير أنهم لا يشفقون حتى على التعساء الذين ربما كانوا يهلكون من البرد والجوع.

ويتوجب أيضاً أن يطلب من المجمع المقدس أن يرسم بوجوب تحويل الجزء الأكبر من ممتلكات الأشخاص المتوفين، مع المتبقي من الممتلكات العائدة إلى الرعاة المتقدمي الذكر، تحويلها إلى المراكز الواسعة المتقدمة الذكر، من أجل الأرض المقدسة وما يتعلق بها، مما يساعد على إصلاح الكومنولث الكاثوليكي كله، وتوحيده حقاً، وهذا الهدف ربما سيكون الأسرع تطبيقاً وفق الطريقة الموضحة أدناه.

[35]: لقد جرت أعلاه مناقشة الاجراءات المطلوبة من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، لكن الاجراءات التي سوف تتطلب راحة سكان تلك البلاد لم يجر عرضها ولا بحثها.

ولنفترض أن الناس الذين سكنوا في تلك البلاد، عاشوا عيشة نكداء، (فقد كتب: لاتعطي الأمكنة الحصانة للناس، لكن الناس يعطون الحصانة إلى الأمكنة)، فكيف يمكن لمملكة ولسلطة مقترفي الشرور البقاء، ولنفترض أن الناس اجتمعوا هناك بشكل عملي من جميع أقطار العالم تقريباً، وشرعوا في ممارسة حياة شريرة، وعودوا أنفسهم على مثل هذا النمط من العيش؟ وعوضاً عن تغييره، ثبتوه بمثابة عادة، هي ذات

طبيعة أخرى، بما أنها تغير الطبيعة، ومن أجل تجنب هذا الشر، يبدو أنه مفيد جداً إلى كل إنسان أن يعثر على من يعترف له، قادر على الحديث بلغته الخاصة، وعالي الثقافة، أي أن يكون طبيباً للأرواح.

٥٨ : وطبيباً أيضاً من أجل داخل الجسد وخارجه كذلك، ونادراً ما يمكن العثور على أناس من هذا القبيل بيننا محنكين وبارعين في مثل هذه المسائل، وبسرعة -سوف يصبح هؤلاء أثرياء بيننا، ولن يعبروا إلى هناك بأعداد كافية، لأنه لا يوجد حتى ما يكفي من أجلنا.

٥٩ [36] : ولسوف يكون مفيداً بالنسبة للذين على رأس مملكة القدس أن يتوفر لديهم كثيراً من الكتاب الذين يعرفون اللغة العربية ويحسنون الكتابة بها، مع معرفة لغات العالم الأخرى، وقد قيل يوجد في البلدان الشرقية بعض الناس من الكاثوليك، هم ليسوا تحت طاعة الكنيسة الرومانية، وهم لا يتفقون معنا في بعض أركان الايمان التي تتمسك بها الكنيسة الرومانية، ويدعى أسقفهم الأعلى الذين هم جميعاً تحت طاعته، مثلما نحن تحت طاعة الأسقف الروماني، البطريرك، ويحكى أن لديه تحت طاعته تسعمائة أسقف، وإذا صح هذا، يكون تحت سلطانه أكثر مما لدى السيد البابا، وسوف يكون نافعا لو أن هؤلاء الأساقفة، قاموا مع أتباعهم، وعدد كبير آخر ممن ابتعد عن الكنيسة الرومانية، ولم يعودوا مطيعين لها، بالسعي للاتحاد مع الكنيسة الرومانية، وتقديم الطاعة لها، والدخول في حظيرتها الإيمانية، ولسوف يكون هذا الأمل عبثاً، ما لم تمتلك الكنيسة الرومانية كثيراً من الرجال، يجيدون معرفة لغاتهم، فمن خلال هؤلاء يمكنها التواصل معهم، ولن تستطيع الأرض المقدسة وحكامها الحصول على منفعة كاملة من عونهم وتعاونهم ما لم يستحوذوا أيضاً على عدد كبير من الأشخاص المجيدين للغتهم، أي مثلما قال أفلاطون حول هذا الموضوع: «أعطي الكلام لك، لأنه من خلاله يمكن التواصل بسرعة إلى تحقيق موقف واحد وإرادة

متبادلة».

ولقد قضى الرب وقرر أن يكون الخبر الروماني، نائبه، وخليفة بطرس على الأرض، هو الرأس للكنيسة المسكونية، وأن يطيعه الجميع، وذلك حسبما أعلن المتحدث باسم الآباء المقدسين وأوضح، وبناء عليه يتبع هذا أن الرب قد قضى، وما زال قاضياً، بأن يتم تأمين كل شيء ضروري ويفضي للوصول إلى هذه الغاية، وإلا يكون ما قضى به لم يتحقق تماماً، وإذا ما قلت العكس سوف تكون هرطيقاً.

لكن كيف يمكن للخبر الروماني - جذب هؤلاء الناس الشرقيين، إلى الوحدة، وهم أيضاً لا يمكنهم، وكيف يمكنه إزالة الأخطاء من قلوبهم، ما لم يكن ذلك من خلال مترجمين عقلاء وأمناء، ينبغي أن يفهموا أولاً لغة الجانبين، وأن ينقلوا الرغبات المتبادلة للطرفين؟ ويتوجب على هؤلاء المترجمين أن يعرفوا كيف يمكنهم التجاوب بعقلانية كبيرة مع اعتراضات البرابرة حتى يمكن تدمير مواقفهم العدوانية الخاطئة، وينبغي أن يكونوا قادرين على إقناعهم بنقاشات وحجج لا تقبل الجدل، وبقوة جذب حقيقة الإيمان المسيحي.

وسوف تكون هناك إصلاحات أخرى كثيرة توصل إلى هذه الغاية، وهي سوف تظهر مما سيأتي، وبوساطة الخطة التالية — مع معونة الرب — سيكون من الممكن الوصول إلى هذه الأهداف أخيراً، لكن ليس على الفور.

وبما أن البابوات الرومان يتسلمون بالعادة مناصبهم السامية في سن متقدم، وهم منشغلون كثيراً بالعناية بالرعية الكبيرة التي عهد بها إليهم، ولا يمكنهم — بالإضافة لما لديهم من أعمال — تعلم اللغات مثل هؤلاء الناس، حتى لو أن البابوات كانوا يحسنون هذه اللغات، فإنهم لا يمكنهم الارتحال إلى هؤلاء الناس، كما لا يمكن هؤلاء الناس القدوم

إلى عند البابا، هذا ولا يوجد -تراجمة معدين من أجل هذه المهمة، كما لا يمكن تحصيلهم مقابل كل أموال الدنيا، ما لم يكن قد جرى إعدادهم من قبل، ولعلمهم لن يكونوا قادرين على إظهار أية نتائج فعالة خلال حياة الذي بدأ بتنفيذ هذه الخطة، وهكذا فعل موسى، فهو لم ير أرض الميعاد، بل — كما كتب — عمل من أجل الاستيلاء عليها من الخارج، وعلى كل حال، ينبغي — على هذا — على الخبر الأعظم عدم إهمال وضع هذه الخطة المرحب بها موضع التنفيذ، ولو أن الرب سبب الإصابة بالأمراض، وبعث بالموت بسبب الذنوب، هل سيقوم أبو الرحمة — لسبب قوي — بإطالة حياة الذي باشر هذه الخطة، لأن أهدافها وغاياتها جديرة بالثناء، أو لم يكتب: «تعلم وكأنك ستعيش أبداً، وعش كأنك ستموت غداً».

٦٠ [37] ويسعى الأب الأعلى قداسة، السيد بابا روما، كليمنت الخامس من أجل إقامة وحدة حقيقية للديانة المسيحية، الأمر الذي لا يمكن تحقيقه على الفور بجهود الناس، ومن أجل الحصول على هذه المنافع، ومنافع أخرى لا يمكن تعدادها، ولا يمكن تصورها كلها مسبقاً وذكرها، ولعله يرضيه أن يأمر — بعون الرب — بزيادة المقترحات التالية، وإتمامها، أو تغييرها، وذلك حسبما يرى الأمر مناسباً هو مع مستشاريه العقلاء، الذين يعرفون تمام المعرفة أوضاع العالم.

ويتوجب تأسيس مدرستين أو أكثر من أجل الأولاد، والعدد نفسه للبنات، في كل مقاطعة، وذلك وفقاً للامكانيات المتوفرة والمتاحة من أجل هذا الهدف، وحسب حجم السكان، على ممتلكات ديرة أمثال الداوية والاسبتارية، فهناك ينبغي تأسيس هذه المدارس التي هي أفضل شيء مناسب لهذا الهدف، والطلاب الذين سيجري اختيارهم للتعليم هناك، ينبغي أن يكونوا في الرابعة أو الخامسة من أعمارهم، ويجري اختيارهم من قبل فلاسفة عقلاء، يمكنهم إدراك إمكانياتهم الطبيعية من

أجل التقدم في تعلم الفلسفة ودراساتها، وينبغي أن يقبل في هذه المدارس أطفال من أصل نبيل من الجنسين، إذا ما وجدوا، وبقدر ما يمكن توفيرهم، ويجري بعدهم قبول الأطفال الآخرين، وهؤلاء ينبغي تعليمهم بشكل متواصل، وفق المنهج المبين أدناه، وهو منهج يمكن تغييره، وإتمامه، وتحسينه من قبل رؤوس حكيمة، وسوف يجري قبول هؤلاء الأطفال مع شرط أنهم لن يعودوا مطلقاً إلى أبويهم، ما لم يسددوا جميع النفقات التي أنفقت عليهم، وسيجري إرسال بعضهم من مدرسة إلى مدرسة، وأخيراً إلى الأرض المقدسة، وإلى أراضي أخرى تتولى الكنيسة الرومانية المقدسة تحديدها، من خلال الذين جرى تعيينهم للقيام بهذا العمل، وسيجري الاتفاق على الطلبة وعلى أسائدتهم من أملاك الدير المذكورة، ومن خلال مراكز الأموال الموقفة على الأرض المقدسة، والتي ورد ذكرها من قبل، ويجري تعيين الإداريين المشرفين على المراكز المالية، من قبل رؤساء الأساقفة المحليين، وذلك بناء على نصيحة الأساقفة المساعدين، ذوي الخبرة، فهؤلاء سيرون من هو مناسب للعمل.

٦١ : وأول ما ينبغي تعليمه إلى هؤلاء الأطفال هو اللغة اللاتينية، حتى يملكوها بشكل جيد، أو على الأقل حتى يحسنوها، وبعد هذا ينبغي تدريب بعضهم على تعلم اللغة الاغريقية، تدريباً دقيقاً، وبعضهم على اللغة العربية، وهكذا بالنسبة إلى اللغات الأخرى، لاسيما اللغات المستخدمة من قبل الشعوب الكاثوليكية في الشرق، وسيكون بالامكان في النهاية، بمساعدة هؤلاء الشباب، الذين تدربوا على الحديث وعلى الكتابة بلغات جميع الشعوب، للكنيسة الرومانية، وللأمرء الكاثوليك أيضاً، الاتصال من خلالهم بجميع الناس، وجذبهم إلى الإيمان الكاثوليكي، وإلى الاتحاد مع رأسها.

وينبغي تدوين أسماء جميع الشباب الذين تدربوا على النحو، مع

تفضيل للأصغر سناً، وإذا ما توفر بعض الذين تدربوا على المنطق، فذلك هو الأفضل، وينبغي اختيار بعض هؤلاء وتعليمهم بكل سرعة مبادئ الإيمان، والقداصات، والعهد القديم والعهد الجديد، وما أن يكملوا دورة الدراسة هذه حتى يمكن إرسالهم إلى الأرض المقدسة، من أجل التقدم في دراسة الكهنوت، وبذلك يتولون العناية بالأرواح، ومن بين صفوفهم يمكن تزويد الكنائس والناس فبعضهم ينبغي تدريبهم في ميدان الطب، وآخرون في كل من الجراحة الإنسانية والحيوانية، وبهم يمكن تقديم العون إلى الجيش، وإلى جميع السكان من كلا الجنسين.

[38]: وينبغي تعليم الفتيات الطب والجراحة، والمواضيع الضرورية التي تشكل مقدمة إلى هذا، ومع هذه التدريبات، ومعرفة الكتابة، سوف يجري تبني هذه الفتيات، اللاتي من أصل نبيل، والأخريات اللاتي هن متميزات بالبراعة، واللاتي هن جميلات وجذابات بالوجه وبالقوم، تبنيهن كبنات أو حفيدات من قبل الأمراء الكبار في بلدانهم، وفي الأرض المقدسة، وفي البلدان الأخرى المجاورة لها هناك، وبعد هذا يجري إلباسهن على حساب المراكز المالية المتقدمة الذكر، حتى يظهرن كأبنات بنات أمراء، وإثر هذا يمكن تزويجهن بشكل موائم من قبل الأمراء الكبار، ورجال الدين، والأعيان الأغنياء الآخرين، وعليهن أن يعدن ويتعهدن أنهن بعد أن يتزوجن من هؤلاء الرجال القياديين أو الأعيان الآخرين، سوف يقمن — أثناء حياتهن إذا كان ذلك ممكناً — بتسديد المبالغ التي أنفقت عليهن، إلى المراكز المالية المتقدمة الذكر، وإذا كن غير قادرات على فعل ذلك، ينبغي أن يوافقن على إعداد ترتيبات للتسديد، أو تسديد أي جزء ترك من دون دفع عند موتهن، وبهذه الوسيلة يمكن لهذه المراكز المالية أن تتزايد بدون حدود، ويبدو أنه سيكون أمراً رائعاً بالنسبة للأساقفة الشرقيين أن يتخذوا مثل هذه الزوجات، لأن من عاداتهم الزواج، ولم يرتضوا مطلقاً بتقليد الرومان

وبقية رجال الدين الغربيين في التخلي عن امتيازاتهم بالزواج.

وزوجات قد امتلكن مثل هذه الثقافة، واستحوذن على أسس الإيمان مع الأسرار المقدسة وفقاً للاستخدامات الرومانية، لا شك أنهن سيتولين تعليم أولادهن وأزواجهن من أجل الارتباط بالإيمان الروماني، وللاعتقاد والتضحية وفقاً لها، ولسوف يستخدمن المناقشات ويستغلن الفرص بشكل فعال أكثر ومؤثر من الخداعات التي مورست من قبل زوجات سليمان عليه، الذي مع أنه كان أحكم الرجال وأعقلهم، قدنه نحو عبادة الأوثان، وعلى هؤلاء النسوة، القيام — من خلال حبهن لأوطانهم الأصيلة — باتخاذ ما يلزم من ترتيبات من أجل زواج عدد كبير من الفتيات من هذه المدارس، من أولادهن، ومن شخصيات قيادية أخرى في البلاد، وبشكل خاص إلى كهنة سوف يترقون في المستقبل إلى مرتبة الأسقفية، وينبغي أن يكون لديهن شمامسة يتولون أعمال القداسات والغناء وفقاً للطقوس الرومانية، ولسوف يتولين بوساطة هذه الأساليب ويتمكن من جذب السكان في تلك المناطق إلى الطقوس الرومانية، وهن — سوف يؤثرن بشكل خاص على النساء، اللاتي سوف يتلقين مساعدتهن من خلال ممارسة الطبابة والجراحة، ولاسيما في أحوال وهنهن السرية واحتياجاتهن، ومن غير الممكن أن يحدث سوى — وقد تفوقن على غيرهن من العقائل، وكن أكثر نبلاً وثروة، وبتن معارفات في كل مكان ومشهورات بمعارفهن في الطب والجراحة، والعلوم التجريبية — أن يجذبن سيدات القوم اللاتي بحاجة إلى مشورتهن، وينلن إعجابهن لبراعتتهن وفوائدهن لهن، فيحببنهن لهذه الأسباب، ومن ثم يقمن بجذبهن، أو بالحري للاتصال بهن، ومن ثم سوف يكن مسرورات بالاتحاد معهن والتوافق على الأخذ بأركان الإيمان والقداسات.

٦٢ [39]: وأيضاً على أي بابا مستقبلي، عندما يحين الوقت وتيسر

الأمور، ويصير لديه أشخاص يتقنون لغات الكاثوليك الشرقيين، أن يقوم باستخدام عدة أفراد من هؤلاء في مجلس الكرادلة ممن تتوفر فيهم الفصاحة والمقدرة الأدبية، فمن خلال هؤلاء يمكنه أن يكتب إلى الأساقفة، وإلى الشخصيات القيادية الأخرى في تلك البلاد، هذا ومن الممكن بسهولة الحصول على متدربين علمياً بالاغريقية، فعندما تتوفر في بعض المدارس البعيدة، عدد من التلاميذ المؤسسين بشكل جيد بالاغريقية واللاتينية، وقتها يتوجب اختيار الذين يريدون بينهم أنهم واعدن أكثر، ولديهم قابلية أكبر للتعلم من الآخرين، اختيارهم للدراسة والسماع، وفيما بعد لتعلم مواضيع أخرى، بحيث يتعلم بعضهم القانون الكنسي والقانون المدني، وآخرون للفلك مع عدة علوم في ميادين الرياضيات والطبيعات، وآخرون بالطبابة، وآخرون باللاهوت، وينبغي فصل المدارس المكرسة لهذه العلوم إحداها عن الأخرى، خشية أن يعقن بعضهن بعضاً من خلال التحاسد، أو من خلال أمور أخرى، لأن الفيلسوف قد قال في كتاب الخطابة: «الفلاسفة متحاسدون بشكل طبيعي»، ووقتها إذا ما أراد البابا أن يرسل واحداً من النواب، في مهمة صعبة إلى بلاد الإغريق — وأعتقد أنه ينبغي تبني السياسة نفسها في حالة اللغات الأخرى والبلدان — عليه أن يبعث في الوقت نفسه مع النائب اثنين أو عدد أكبر من الأشخاص البارعين جداً في كل فرع من فروع المعارف، فهؤلاء سيتفوقون على خبراء تلك البلاد في المناقشات، وفي تقديم النصائح، والمباحثات، وفي كل سبيل آخر، وبذلك لن يكون هناك من يستطيع أن يتصدى لحكمة الكنيسة الرومانية، وسوف يقوم الذين يعتمدون في الشرق على المنطق، بامتداح حكمة الرومان والخوف منها، مثلما أطرت ملكة الشرق (سبأ) حكمة سليمان.

٦٣ [40] : وإحدى نتائج تأسيس مدارس من هذا النوع، وإرسال

أشخاص متعلمين من كلا الجنسين، وإرسالهم إلى الشرق، سوف توفر إرسال السلع الثمينة، الوافرة في تلك المناطق، لكن النادرة بيننا وذات القيمة العظيمة، وسوف تشحن إلينا إلى الغرب، بكميات كافية، وبأسعار معقولة، وسيكون هذا فور غدو العالم -كاثوليكيًا، وهناك كثير من المنتجات التي تعدّ نادرة وقيمة، لعدم توفرها لدينا، هي وافرة جداً في أماكن أخرى، وينظر إليها هناك على أنها قليلة القيمة.

وإذا ما سعى الإنسان إلى معرفة سبب هذه الحقيقة، سيجد الجواب هو نفسه الذي -قدمه الفيلسوف حول -ما يتعلق بأسباب وضع العناصر الأربعة بقوله: «لم يقض الرب المبارك والممجّد، الذي خلق للإنسان كل ما هو موجود في العالم السفلي، بأي شيء عبثاً، وهكذا تولى توزيع هباته في هذا العالم».

وإذا ما أراد إنسان، إرضاء لرعونته، وتنفيذاً لإرادته الشرهة، أن يمتلك في هذا العالم كل شيء أراد، سوف يفضل البقاء هناك بالأسفل، بدلاً من التحليق نحو وطنه في الأعلى، لأن رغبته ستكون مثبتة على المركب الأكثر انخفاضاً، وهكذا سوف يمارس الإنسان من هذا القبيل حياة مضطربة، لأنه لم يجر توجيهه نحو الخالق، أو لم يوضح بوثيوس Boethius هذا جيداً عندما قال: «إن الذي ينبغي أن يعترف بوجوده لوحده في العالم هو الذي يبقى على النظام ويحافظ على الطبيعة؟» وبناء عليه قال بهذا الصدد: شرار الناس غير موجودين بالفعل، والذنب هو لا شيء، ومن هنا قرر أحكم الرهبان توماس الأكويني - كما سمعته يقول في إحدى مواعظه: «كل من يقترب ذنباً هو عبد للذنب، وكل عبد هو أدنى من سيده، وبما أن كل ذنب هو لا شيء، فإن كل مذنّب أقل من لا شيء»، وعرض الفيلسوف هذا كما يلي بقوله: «العالم هو وحدة بسبب توحد منظّمه، مثله في ذلك مثل جيش»، فواجب الذي يدمج جيشاً في وحدة أن يفعل ذلك من خلال وحدة الهدف الذي يسعى من

أجله ويناضل، وهو النصر، وهذا من حيث المبدأ يقع على كاهل قائد الجيش ورئيسه، ومثل هذا إن واجب جعل العالم وحدة، يقع بشكل رئيسي على كاهل ملكه.

[41]: وعلى كل حال، إنني أشك أن يكون هناك رجل ذي عقل سليم يمكن أن يعتقد في هذه الأيام، وفي هذا الجيل، يمكن توفر ملك دنيوي واحد لكل العالم، يمكنه أن يحكم كل شيء، ويمكن للجميع أن يطيعوه على أنه رئيسهم الأعلى، وإذا ما توفر ميل نحو هذا الاتجاه، سوف تكون هناك حروب، وثورات، وتمزقات بدون نهاية، ولن يكون هناك أحد قادر على قمع هذه الاضطرابات بسبب كثرة الناس، ومسافات المناطق المتورطة، والفوارق المحلية، وميل الناس الطبيعي نحو الصراع، ومع أنه كان هناك أشخاص أطلق عليهم اسم ملوك الدنيا، أنا لا أعتقد أنه وجد أي إنسان قد أطاعه الناس جميعاً منذ أن شغل بنو البشر الأرض وسكنوها، وكما أعتقد، ما من إنسان قرأ أن الغربيين على هذا الجانب من بلاد الاغريق قد كانوا رعاياً للملك الاسكندر، أو خضعوا لسلطانه، لكن من المعقول بالنسبة للمسائل الروحية، يمكن أن يوجد — لابل ينبغي أن يوجد — أمير واحد، وملك، يمكنه أن يسوس بمشاعر روحية ممانعة سلطوية في الشرق، وفي الغرب، وفي الجنوب، وفي الشمال، ولا يمكنني أن أرى كيف لهذا أن يحدث، ما لم تتوفر الاعدادات من أجل تعلم اللغات، إما وفق الطريقة التي عرضت أعلاه، أو وفق طريقة ما أفضل، حتى الرب القدير نفسه الذي قد ضرب لنا مثلاً عندما علم بالأعداد وبالأمثلة وأنواع أخرى من الأحاجي، قد أعطى في موعظته لحوارييه ورسله، معرفته بجميع اللغات وبجميع أنواع الحكمة، لأن هؤلاء -كانوا سيتولون التبشير بالانجيل إلى جميع الناس، وقد قال لهم: «عندما ستظهرون أمام الملوك والحكام لا تهتموا كيف أو بما تتكلمون، لأنكم تعطون في تلك الساعة

ما تتكلمون به» [متى: ١٠ / ١٨ — ٢٠، باختزال].

٦٤ : لم يوجد، ولا يوجد، ولن يوجد، أي واحد إلى جانبه، يمكنه أن يعطي مثل هذه الأعطيات العظيمة، ومثل هذه الفضائل العظيمة، فله وحده حفظت قدرة صنع المعجزات، وبالنسبة له مامن شيء مستحيل، يمكن أن يتماشى مع طبيعة الأشياء، وطبعاً هو لا يمكنه صنع أي شيء يكون في الوقت نفسه موجوداً وغير موجود، لكن وجود الافتراضين المتعارضين في الوقت نفسه أمر صحيح، وكذلك تعارضهما بالنسبة إلى الحقيقة، وفي الحقيقة، لم يوجد قط مخلوق كان بإمكان ذاته صنع أقل المعجزات، لكن الرب القدير، أعطى بطريقة إعجازية المبشرين الذين اختارهم ليرسلهم إلى جميع أرجاء العالم، معرفة جميع اللغات والقدرة على التحدث بها، كما لو أنهم كانوا من السكان المحليين لعدة مناطق، وفعل هذا من أجل أن يجعل الناس جميعاً يؤمنون، ويتعمدون، ومن ثم ليكونوا رعايا لبطرس، أمير الرسل، جاعلاً من جميع المؤمنين كومنولساً واحداً.

٦٥ : لا يمكن لخليفة بطرس، نائب المسيح، والذي دون سواه المقلد الوحيد له، أن يمنح المعرفة بشكل مفاجيء وإعجازي، فلماذا إذن لا يقوم باتخاذ إجراءات للتزويد بالمعارف اللغوية والقدرة على التحدث في أي منها، بعدما أطلع على وسائل لجعل الطلاب يعرفون، ويفهمون، ويمكنهم التكلم بجميع اللغات، حتى يجري إرسالهم إلى الخارج للقيام بأعمال التبشير؟ وهذه الوسائل لن تكون متوفرة له فقط، لا بل من السهل الحصول عليها، وقليلة التكاليف، وفيما يتعلق به، قليلة المتاعب، وسيقدم هؤلاء إلى الناس الذين سيبشرون بينهم منافع أخرى، وفوائد ليس فقط إلى أرواحهم بل أيضاً إلى أجسادهم، التي سوف تنتفع بشكل خاص من الطبابة ومن الجراحة، ولسوف ينال مؤسس ومنظم هذا العون وهذه الخدمة أعظم جائزة أبدية وسيتمتع بها، حتى وإن لم يكمل

— أو لم يصل إلى — هدفه المنوي بقيام اتحاد كامل للمسيحيين بالايمان وبالطاعة، ولسوف تبارك الرحمة السماوية بداية هذا العمل ومتابعته، وإكماله.

٦٦ : ومن أجل أن يحقق مصمموا هذا المركز الموصوف به أهدافهم، ينبغي إصدار أمر بوجوب تلاوة مزمور كل يوم في كل واحدة من مدارس المركز على انفراد لصالحهم، شرط أن تكون تلاوة معتدلة، ومثل هذا قداس للأحياء وآخر للأموات، وبذلك يأمل كل واحد من المؤسسين ومن الموصين من الأحياء ومن الأموات بنيل غفران يومي.

٦٧ [42] : ولسوف تكون المنافع الاقتصادية الناتجة عن المركز المقترح ذات فوائد عظيمة لجماعات سكان تلك البلدان الشرقية، فهم سوف يصدرون منتجاتهم، وبذلك سوف يربحون من ذلك أكثر بكثير مما لو كرسوا هذه البضائع بشكل تقوي إلى الفقراء، الذين إن وجدوا سوف يكونوا نادرين، آخذين بالتقدير من جانب أول العدد الهائل للمعدمين، ومن جانب آخر ندرة التوابل والمنتجات الشرقية الأخرى التي نحتاج إليها، وسوف يجري تأمين هذه السلع إلى جميع الكاثوليك بأسعار معتدلة، ولسوف يتم صنع هذا دون مضايقة أي إنسان وإيذائه بشكل فعال، لأن كثيراً من المخاطر المعروفة والمصاعب في البر وفي البحر سوف تتوقف، فبعد إتمام سحق العدو في الأرض المقدسة، والقضاء عليه بنعمة من الرب، يمكن لحاكم تلك البلاد، أن يأمر — وأن يشرف على التنفيذ — بشحن جميع منتجات تلك البلاد بمراكبها إلى هذا الجانب من البحر، وبذلك تصبح التوابل وبقية المنتجات متوفرة، وبالمقابل من الممكن نقل منتجاتنا إلى هناك، ويمكنه أيضاً تنظيم أسعار الشراء وأجور النقل، وبذلك يكون بالإمكان تقدير أسعار عدد كبير من السلع، وكذلك الحد من زيادة الأسعار اليومية مع جشع التجار.

٦٨ : ويمكن للسيد البابا، والكرادلة، ورجال الدين الكبار، وكذلك الملوك والأمراء الذين ستوضع المدارس في مناطقهم، وأيضاً رعاة الديرة الذين من ممتلكاتهم سوف ينفق جزئياً على هذه المدارس، يمكنهم من خلال طلبه هذا المركز تحصيل ليس التوابل فقط، بل كل شيء نادر وثمين يرغبون بالحصول عليه من الشرق، وبالنظر لما تقدموا به من قبل من كرم وإحسان، سوف يجري تزويدهم بهذه المنتجات بدون تكاليف تقريباً.

[43]: لماذا علي أن أكتب حول منافع هذا المركز، إذا كان مؤسسوه وطلابه يرغبون بالانتفاع منه ومن امتيازاته في توزيع المنتجات، فمن غير الممكن أن يتصور إنسان حي لوحده جميع منفعه أو أن يكتب عن ذلك، مثلما قال الفيلسوف: «لا تتكاثر الشياطين بشكل طبيعي، بل بطرائق غير طبيعية».

٦٩ : في الوقت الذي يتبع فيه بعضهم سياسة إنزال الأذى بالمسلمين، بشن الحرب ضدهم، والاستيلاء على أراضيهم، وسلب ونهب ممتلكاتهم الأخرى، لعل الفتيات المدربات في المدارس المقترحة، يمكن أن يعطين بمثابة زوجات إلى القادة المسلمين، إنما مع احتفاظهن بإيمانهن، خشية من مشاركتهن أزواجهن في الكفر، وبجهودهن — مع عون الرب — وبتبشير الرسل — وبذلك يمكن أن ينلن مساعدة من الكاثوليك، لأنهن لا يمكن لهن الاعتماد على المسلمين — يمكن أن يتمكن من إقناع أزواجهن، وجرهم إلى الإيمان الكاثوليكي، وهكذا قليلاً قليلاً، من الممكن جعل عقيدتنا معروفة بينهم، ولسوف تناضل زوجاتهن بحماس شديد من أجل هذا، لأن لدى كل واحد منهم كثيراً من الزوجات، فجميع الأثرياء وذوي السلطان بينهم يارسون حياة شهوانية، هي لغير صالح زوجاتهم، اللاتي ترغب كل واحدة منهن أن يكون لها زوج خاص بها (وهذا مالا يجب أن نندهش منه) بدلاً من

مشاركة سبعة زوجات أو أكثر في زوج واحد، ولهذا السبب — حسبها سمعت مراراً من التجار الذين يترددون على بلادهم — من الممكن بسهولة التأثير بقوة على نساء تلك الطائفة، وجذبهن نحو طرائق الحياة لدينا، من أجل أن يكون لكل رجل زوجة واحدة.

٧٠ [44] : عندما يتحقق إقامة سلام عالمي ووئام بين جميع الكاثوليك الخاضعين للكنيسة الرومانية، وفق الطريقة المقترحة، وعندما تتناقص الحروب والمخاصبات بالوسائل التي سيأتي شرحها، وكذلك من خلال التأثير الذي قضى به موجد الأشياء كلها، سوف يكون إثر هذا الكاثوليك في أوضاع أكثر قدرة فيها على إخضاع الأمم المختلفة، فهم لن يكونوا بعد الآن قادرين على شن الحرب أحدهم على الآخر، ولن يخشوا من إمكانية مثل هذه الحروب، بسبب العقوبات القاسية المعدة لهم، والمعني بذلك: فقدانهم لأراضي أسرهم مع ممتلكاتهم الأخرى، ولهذا السبب، من المحتمل كثيراً، أن يقوم الأمراء المتحمسون، على الفور، بدمج قواهم وتوحيدها ضد الكفار، أو على الأقل إرسال جيوش لا تحصى من المحاربين من جميع الاتجاهات، حتى تبقى بمثابة حاميات دائمة في الأراضي التي سوف يتم الاستيلاء عليها، وبهذه الطريقة سيزداد كومنولث الكاثوليك الخاضعين للكنيسة الرومانية زيادة عظيمة جداً، في وقت قصير، وذلك في مواجهة جميع الآخرين الذين يفتقرون إلى تنظيمات اتحادية، وإحسان نحو الرب، ونحو جيرانهم.

ولا شك أن الاهتمام بدراسة الفلسفة، والحض عليها بقوة في جميع أرجاء كومنولثنا، من الممكن أن يسهم كثيراً في الوصول إلى هذه الغاية، فلقد شايعت زهرة الروح العسكرية التعلم والتمذهب من مملكة إلى مملكة: من الهنود إلى الآشوريين، ومن الآشوريين إلى الإغريق، ومن الإغريق إلى الرومان، ومن الرومان إلى شعوب شمالي الألب (Cismon) واذلك حسبها نقرأ في تواريخ الأقدمين، وإذا ما قامت الطائفة

الكاثوليكية بتكوين كومنولث واحد في جميع الممالك والأماكن، وشجعت الدراسة في جميع الأماكن الموائمة، ينبغي أن تكون النتيجة امتلاك هذا الكومنولث خلال مدة من الزمن السلطة على العالم كله، وستعاضم هذه السلطة وستزداد صلابة مع مرور السنوات، ومن المؤمل — لا بل من الممكن التحقيق — أن هذا سيتبلور في ظل المملكة الروحية وطاعتها وليس في ظل المملكة الدنيوية.

٧١ [45]: من الممكن — لا بل من المتوجب — أن يحدث طلاب هذه المؤسسات تقدماً كبيراً أكثر من الآخرين، وهذا واضح من حقيقة أن أساتذة المركز البارعين والمجربين، سوف يبحثون عن تبني برنامج متسارع بسماته، وبطرائقه، وبدراساته، وبوسائل الحصول على الخبرة، ويتوجب اختيار صبيان في الرابعة، أو الخامسة، أو السادسة من أعمارهم، أو أسن من ذلك، تكون رؤوسهم حسنة الشكل والتكوين، وهم أهل للتقدم، على شرط أن يكونوا ممن لن يعادوا إلى آبائهم، إلا بإذن من المركز، ويتوجب أن يتلقى مائة، أو أكثر من هؤلاء الصبيان تدريباتهم في مكان واحد، مجهز بشكل جيد من أجل هذه الغاية

وأن يدرسوا أولاً ويتدربون على ترتيب المزامير، وأن يقوموا فيما بعد في الجزء الثالث من النهار، بالغناء وبأعمال قريبة من ذلك ومشابهة، ويتوجب تعليمهم في ساعات أخرى من النهار مبادئ النحو اللاتيني (الدوناتيزية Donatus) وأن يكون ذلك وفق الطرائق والعادات الرومانية، وأن يتعلموا أيضاً الفروع الأخرى من فروع النحو، وعندما يستمع أحد الصبيان كتاب كاتو Cato وكتب نصوص صغيرة أخرى، عليه أن يحضر أربعة دروس طويلة في اليوم، أو إنهاء هذه الدروس، وعليه أن يصغي إلى بعض النصوص الرئيسية، وبعد هذا إلى واحد آخر يقوم بإعادتها، وعليه أن يردد وراء المعيد، مثلما يفعل إزاء النصوص التي يتقنها، والذي ينبغي أن يقرأ له أولاً تصريف الأسماء

وأحكام اللهجات، وبعد هذا عليه أن يعيد تلاوة كل ما يطلب منه، وأن يفعل ذلك على الفور، وفقط في المساء يقوم بكتابة مواضيع إنشاء باللاتينية.

وعندما يبدأ الصبيان في إحراز قليلاً من التقدم في هذا، عليهم أن يتكلموا دوماً باللاتينية، فيعودوا أنفسهم على هذا في جميع الأوقات والأماكن، وبعد الانتهاء من النصوص الصغيرة، يتوجب عليهم سماع التوراة في أشكال أولية، وليكن ذلك ثلاث مرات أو أربع مرات في اليوم الواحد، وأن يكتبوا مواضيع إنشائهم من مؤرخيه ومن شعرائه على التوالي، بما أنهم سيكتبون مجرد تدريبات، وعندما تحل الأيام المعدة للإعراب، عليهم أن يعربوا أولاً [أغاني] Gradual ما بعد الـ Bre-viary، إنما ليس الـ Missal، باستثناء ما هو موجود في التوراة، وبعد الانتهاء من الـ Breviary عليهم إعراب الحكايات الذهبية للقديسين [ليعقوب دي فورين Voragine المتوفى حوالي سنة ١٢٩٨]، وبعض الأشعار القصيرة، المنتخبة من حكايات الشعراء، وعليهم كتابة مقالات قائمة على هذه الحكايات، ويظل أفضل نقلها إلى اللاتينية مرة ثانية، وبهذا سوف يكونوا أكثر اعتياداً عليهم في المستقبل، أكثر من التمارين المعتادة التي هي بلا فائدة، وبهذا لن يكونوا قد ضيعوا وقتاً حتى الآن، ولسوف تكون المقالات التي كتبوها ذات فوائد دائمة بالنسبة لهم، وبعدما يكونوا قد فرغوا من سماع التوراة كلها، عليهم أن يعيدوا اثنتي عشرة صفحة منه كل يوم، ومثل هذا حكايات القديسين، وبالنسبة للشعر عليهم نظم بعض الأبيات البسيطة، لكن ليكن ذلك لوقت قصير، وعندما يأتي الوقت أخيراً، ويصبحوا جاهزين لسماع المنطق يتوجب إسماعهم الأعمال الشعرية خلال ثلاثة أشهر الصيف، وليكن ذلك أن يستمعوا في اليوم الأول كاتو Cato، وفي اليوم الثاني ثيودولوس Theodulus، وفي الأيام الثلاثة التالية توياس

Tobias ، وهكذا بالنسبة للشعراء الآخرين، وعليهم الاستماع لستة دروس في كل يوم من أستاذين، وينبغي عليهم فهم هذه الأشعار من قبل أنفسهم، كلهم تقريباً، وذلك بسبب أن القصص والشروح سوف تقدم بلغة بسيطة، لأن الذي هو مطلوب من هذه الكتب تراكيب الجمل فقط، وأشكال من المعرفة صالحة لأي شاب، عندما يبدأ بصنع بعض التقدم، ويمكنه أن يقرأهم ويفهمهم، ولديه الجاهزية لتقبلهم كأشعار رومانسية، وإذا ما أبدى بعض الشباب الاستعداد للتقدم، عليهم العمل في هذا المجال ليلاً ونهاراً لمدة سنة كاملة، إنما باستثناء الأوقات المخصصة للراحة، ولسوف يتمكن معظمهم، بعون الرب، من إكمال هذه التدريبات في جميع فروع المعرفة قبل وصولهم إلى سن العاشرة، أو على الأكثر سن الحادية عشر، وآخرون في سن الثانية عشر على الأكثر، وفي أثناء دراسة الموضوعات الموصوفة آنفاً، على الصبيان سماع [رسالة] دكتورنيل Doctrinale [النحوية]، وليكن ذلك في أوقات يختارها أساتذتهم، وليركزوا بشكل خاص على ما يتعلق بالضمائر والأفعال، وآخر ما عليهم تعلمه هو [رسالة] Graecismus [النحوية حول التفاعيل السداسية]، وليقتصر ذلك على فهم معانيها الأدبية، لكن من دون الإصرار على أية جوانب أخرى.

٧٢ [46] : ولدى إكمال الطلبة لهذه الدراسات، ينبغي تحويلهم إلى مدرسة أخرى، حيث يبدأون دورات تعلم المنطق، وعليهم أن يشرعوا في الوقت نفسه بتعلم الإغريقية أو العربية، أو أي لغة أخرى، حسبما يوجههم المؤسس الجديد للمدرسة ويختار لهم، ولدى دراستهم لأي لغة جديدة، عليهم أن يتعلموا أولاً أشكال كلماتها، مع بنائها النحوي.

أما فيما يتعلق بالمنطق، فعليهم أن يتعلموا أولاً الرسائل المعيارية، والشروح الموجزة لها، وينبغي اتخاذ احتياطات أن يتولى شخص بارع بهذا

الفن اختصارهم لهم وإيجازهم، وأن يوضح المسألة الإشكالية التي طرحها الفيلسوف في كل واحد من كتبه حول المنطق، وأن يكون هذا الايضاح محكماً، وبذلك لن تحتاج الرسائل بعد سماعها خلال دورة الدراسة مرتين أو ثلاثة، إلى شرح مكتوب، وبعد هذا يتوجب أن يستمعوا إلى الكتب مرة أخرى على شكل محاضرات منتظمة، وينبغي إنجاز هذا كله مع بلوغهم الرابعة عشرة من العمر .

وليشروعوا بعد هذا بتعلم العلوم الطبيعية، وبسبب إسهاب هذا الموضوع وعمقه يستحسن اعتماد كتاب «الطبيعيات للراهب ألبرتوس [ماغنوس Magnus]»، الذي يحتوي فعلياً جميع ما فكر به الفلاسفة مع إضافات كثيرة، واستطرادات، وينبغي اختصار هذا الكتاب بقدر الامكان، إنما شريطة أن يكون هذا الاختصار واضحاً بقدر يستطيع فيه الانسان المهتم أن يفهم هذا المختصر، من دون العودة إلى النص الكامل، وعلى الشباب الاستماع لهذا المختصر كاملاً خلال العام الأول على شكل أربعة محاضرات في اليوم، من دون أسئلة، ثم يستمعون إليه مرة ثانية مع أسئلة، ثم يقومون بعد ذلك بسماع الكتب حسبما جرت العادة بقراءتهم في المدارس.

ولسوف يكون أيضاً مفيداً لهم أن يتوفر لديهم أسئلة مختارة من كتابات الراهب توماس [أوف كانتمبري Cantimpre] ، نشط ما بين ١٢٢٨ — ١٢٤٤ [وسيغر [دي براينت، ت ١٢٨٣] وباحثين آخرين، وينبغي أن تدمج كتاباتهم كلها في مصنف واحد، حول المسائل الأساسية: أشكالها، وتكوينها، وعمومياتها، وفسادها، وحول جميع مشاعرها ووظائفها، وحول مزايا الأرواح، وأعمالها وطبيعتها، وحول عناصر الطبيعة وأعمالها، وحول الأجسام السماوية، وطبيعتها، وتأثيراتها، وحركتها، وبعض المواد وفق هذا التسلسل واستيعابها بسبب ترتيبها، ولسوف يكون من الصعب جداً ترتيب المادة وفق هذه الطريق، علماً

بأن ذلك سوف يكون مفيداً جداً على الطريق إلى التعلم، هذا التعلم الذي من الممكن تحصيله بسهولة، وفي وقت قصير، بهذه الوسائل، وما أن يحصل الانسان على هذا التعلم، سوف يتمكن من الاحتفاظ به، وتذكره بعقله متى شاء.

٧٣: وعندما تكتمل هذه الدراسات، عليهم الشروع بسماع محاضرات في علوم القيم والأخلاق، والمقصود بهذا : القيم (المونوستيكا-Mono-stica)، والأخلاق، والخطابة، والسياسة، وتكون هذه المحاضرات مثلما تقدم فيها خلاصات واختصارات، فلقد رأيت الأخلاق في عشرة كتب اختصرها المعلم هيرمان الألماني (كان نشطاً سنة ١٢٥٠)، وبعد هذا العرض المبدئي، سوف يستمعون إلى نصوص الكتب التي تشكلت من قبل من محاضرات، مع أسئلة أعدت مثلما حدث من قبل بالنسبة للأسئلة الطبيعية، وذلك مع قليل من المناظرات قد كتبت من كل واحد من العلوم، لأن الحشد من المحاضرات قد يفضي إلى الفوضى في الثقافة وفي إصدار الأحكام الصحيحة، أكثر مما يقود إلى المعرفة.

٧٤ : وبعد إكمالهم لهذه الدراسات خلال عام واحد، عليهم الشروع بالاستماع إلى محاضرات بنصوص التوراة المشروحة، مرتين في اليوم، وذلك مع كتاب الـ Summae في الصباح، مع أسئلة متجاوزة الأسئلة المتعلقة بالطبيعيات، ويتبع الذين سوف يصبحون مبشرين هذه الدورة التعليمية لمدة عامين أو ثلاثة أعوام، وإذا ما قام بعضهم بذلك، سيكون كافياً للآخرين اتباع هذه الدورة مرة واحدة لمدة سنة، أو حتى لمدة أقصر، وبعد هذا يتوجب على بعض الأفراد استماع محاضرات بالقانون لمدة عامين، مما يمكنهم من سماع المجلدات الخمسة كاملة، وعليهم بعد هذا استماع نص الـ Decretum والـ Decretals الـ Decretum مرتين في اليوم، والـ Decretals مرة واحدة، ويمكن للذين خططوا ليعيشوا بمثابة رجال دين في بيت الرب، التخلي

عن دراسة القوانين، لكن لا يجوز لهم التخلي عن الـ *Decretum* والـ *Decretals*، ويمكن للذين خططوا لحياة مدنية التخلي عن دراسة الطبيعيات، وأن يهتموا أكثر بالقيم، وبالقانون المدني والقانون الكنسي، وعلى كل من أراد الاستماع إلى محاضرات بالطب، أن يفعل ذلك بعد الفراغ من محاضرات الطبيعيات، مع أنه سيكون مفيداً أن يتجاهلوا التوراة والـ *Summae*، بما أن هذين الكتابين يتعاملان مع المبادئ التي هي أسس جميع العلوم، وحسبما قال الفيلسوف: «جميع العلوم متداخلة»، ولسوف يكون مفيداً جداً أن تكون عارفاً بمبادئ جميع فروع المعرفة، أو على الأقل أن لا تكون جاهلاً بها جهلاً تاماً، علماً بأنه سيكون مفيداً جداً لو أنهم حملوا الكتب معهم، وعلينا أن نفترض أن بعض المستمعين سوف تكون الكتب معهم، وأن بعض هؤلاء الذين ليست لديهم الكتب سوف يحصلون عليها، زيادة على هذا، لأنهم امتلكوا أساساً ممتازاً في العلوم، سوف يتقدمون كثيراً من خلال الكتب التي تعلموها اعتماداً على أنفسهم، بعد تركهم المدرسة.

٧٦ : ولسوف يكون مفيداً بالنسبة للطلاب الذين نالوا تدريباً قصيراً، والذين سوف يكونون قضاة وحكاماً لمدن كبيرة ولشعوب، أن يكون معهم قوانينهم في مجلد واحد، كتبت فيه القوانين بشكل واضح ومختصر، وبوضوح لمرة واحدة من دون تكرار للقضايا المتشابهة، ويحتوي على أقوال باتة، من الممكن قراءتها وفهمها من دون شرح أو تعليق، ومن الممكن صنع هذا، بوضع جميع القوانين التي هي من نوع واحد تحت عنوان واحد، بطريقة يتمكن فيها أفراد ذوي ثقافة جيدة من فهمهم وتملكهم من دون أستاذ، وسيكون مفيداً امتلاك الـ *De-cretum* والـ *Decretals* بشكل مختصر، بحيث يتمكن الطلاب الذين لديهم وقت قصير من تناولهم وفهمهم بشكل مختصر، بعيداً عن القوانين المتداخلة والمضطربة، والقوانين العامة والقوانين الخاصة حول

أي موضوع من المواضيع مهما كان، وسوف يتمكنون بمساعدة هذه المختصرات، مضاف إليها الخبرة، من حكم أنفسهم والآخرين بمثابة مواطنين جيدين بتوافق مع القوى العامة والخاصة المثبتة بوساطة العادات، ومع الإفادة من هذه الخبرة، يمكنهم متابعة دراساتهم حتى الاكتمال وذلك بعد حصولهم على كتب القانون.

ولسوف تكون هذه المختصرات والمختارات بمثابة كناشات للطلاب الفقراء، وللذين هم بالعادة منشغلين بفروع المعارف الأخرى، مثل الفلسفة واللاهوت، ممن لا يمكنهم تكريس الوقت المعتاد والضروري من أجل تملك مواد مجلدات كبيرة، فحياة الانسان حقبة قصيرة، ونادراً ما تسمح له مشاغله بالمسائل الروحية والمسائل الدنيوية بإكمال دراسته ومعارفه حول التفاصيل الكثيرة جداً المتعلقة بالقانون المدني والقانون الكنسي، وذلك بالاضافة إلى الفلسفة واللاهوت، ومع هذا يمكن لأشخاص تحقيق إكمال ما يصبون إليه من معرفة، بمتابعة دراساتهم، وفق الطريقة المقترحة من قبل، ويستطيعون قبل وصولهم إلى سن الثلاثين أن يصبحوا بارعين جداً في القانون المدني، والقانون اللاهوتي، وخبراء بطرائقهم في الوعظ، وعندما تكون دراسة الكتابات عن العهدين القديم والجديد، وحياة القديسين قد استكملت في مرحلة الطفولة، ثم جرى تكرارها في محاضرات رسمية حول كتاب الـ Summae لمدة سنة، وقتها يمكن حسبها تقدم الوصف، بعد دراسة الفلسفة، أن يصبحوا منذ الطفولة جاهزين بشكل كبير لفهم، ولتقديم، ولتنفيذ ما يلزم في عدد من طقوس أعمال الوعظ، في كثير متنوع من أيام الأعياد، ولسوف تصبح طرائق الوعظ لديهم عادية جداً إلى حد أن تصير وكأنها طبيعة ثانية، وينبغي أن يترافق هذا ويتمشى مع الأخذ بها جاء في القصة الفلسفية التي حكى كيف درب أ فلاطون الأطفال على أعمال الفضائل، حتى غدت هذه الأعمال بمرور الأيام طبيعة ثانية لهم،

وقد اندفعوا للقيام بهم وتنفيذهم، وكأن ذلك عملاً طبيعياً، وقد أوضح ذلك بقوله: «العادة طبيعة أخرى»، أي أنها تغير الطبيعة.

[48]: لقد أعلنت عدة قوانين مقدسة عن الخبرة، أنها سيدة الأمور، وقد وضح أنها هي التي توجب على الأساقفة الذين هم قادة الكنيسة، أن يتدربوا بشكل دقيق في الفلسفة وفي اللاهوت، وفي القانونين، وفي استخدام وفي ممارسة المعرفة من هذا النوع وهذا واضح بالنسبة للذين لاحظوا عجز الأساقفة الذين تعلموا، وبشكل متقن جداً، القانون المدني فقط، من دون القانون الكنسي، والشرعية اللاهوتية.

٧٧: ويصح الشيء نفسه وينطبق على الذين أتقنوا فقط القانون الشرعي، مثل اتقان بعضهم فقط للقوانين النازمة للرهبان.

٧٨: وينطبق الحال نفسه ويصح بالنسبة للذين حصلوا على معرفة الفلسفة واللاهوت، ويتوجب على الأسقف القيام بهذا شخصياً، وليس من خلال الآخرين، وذلك من أجل ممارسة الأعمال التي لها علاقة بالتأمل، والأعمال المفيدة، من أجل أن يكون أكثر تأثيراً، وتهذيباً، وأن يكون أكثر خشية، وتوافقاً مع كلمات الانجيل: «يسوع ابتداءً يفعله ويعلم به» [أعمال: ١ / ١]، ومع أنه كتب من قبل المحامي الأعظم: «فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن ينزع منها»، [لوقا: ١٠ / ٤٢]، إن هذا لا يكفي من أجل الأساقفة في علاقتهم مع الخاضعين لهم وتحت طاعتهم.

وإذا ما أراد أسقف أن يتفرغ كلياً للتأمل وفق أسلوب مريم وطريقتها، عليه أن يدخل في إحدى طوائف الرهبنة الديرية، أو أن يعيش في الصحراء، تاركاً للآخرين عصا الأسقفية، وإذا ما كان بعض الأساقفة مكرهين على أن يكونوا عاملين في منحيي الحياة، وأن يتباركا وفقاً لهما، يتوجب عليهما أن ينالا من التدريب ما فيه كفاية من أجل

حاجتيهما في المسائل المرتبطة باتجاهي الحياة هذين، وذلك بقدر ما يمكن للطبيعة البشرية أن تتفهم وتحصل من مبادئ المعرفة، ولا يجوز لأي إنسان عندما يحصل على ما يكفي من معلومات، أن يحدد غايته النهائية بالوصول على الكمال، حتى يستريح عندما يصل إليها، لأنه لا يمكن أن يوجد في العالم إنسان بهذا الكمال، بل الذي يوجد هو الذي يحصل المزيد من الفائدة من المزيد من التعليم، والرب وحده هو الذي يمكنه تحقيق الوصول إلى غاية الكمال.

٧٩ [49] : ولسوف يكون مفيداً بالنسبة لبعض طلبة هذا المركز أن يتعلموا في مجال علوم الرياضيات — بقدر ما يراه الاختصاصيون في هذه العلوم موثماً وكافياً، وبشكل مختصر — بسبب كثير من تطبيقاتها العملية — وينطبق هذا بشكل خاص على المسائل التي تناولها الكتاب الصغير الذي صنفه الراهب روجر بيكون، بعنوان «حول منافع الرياضيات»، ويكون من رهبان طائفة الـ Minorites ، ويتوجب الاهتمام الزائد والخاص بالموضوعات التي يمكن أن تكون ذات فائدة من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، ومن المتوجب على كل كاثوليكي، خاصة المتعلمين، أن يعرفوا مظهر، ووضع، ومكان العناصر، وحجمها وسماها، وتراكيب الأجرام السماوية وحجمها، وسرعة الشمس وحركتها وتأثيرها، وكذلك القمر، والنجوم الأخرى، وأن يعرفوا كم الأرض صغيرة، إذا ما قورنت بها، وكم هي عظيمة إذا ما قورنت بالإنسان، وهذا كله من أجل الإنسان عندما يتعجب من هذه الأشياء، يمكنه أن يحمد خالقها، وأن يقيم رغباته الدنيوية وأن يتشامخ ويتكبر بسبب الأشياء الدنيوية، لأن جميع الأشياء في هذا العالم، والأشياء التي هي هنا من تحت، تعدّ لا شيء عندما تقارن به، وهكذا ينبغي أن تقدر.

٨٠ [50] : لنفترض أن أحدهم سوف يعترض، وسيقول مثل عدد

كبير آخر: «إن طرائق التعليم التي اتبعت حتى الآن كانت كافية لآبائنا، الذين ربطات أحذيتهم، الكاتب الحالي لهذا العمل غير جدير بفكها»، وسيكون الجواب: الاقرار بأني بالفعل غير جدير بفكها، ومع هذا إنه قد تحرك برغبة طبيعية من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، وغالباً ما قام كاتب هذا العمل بالتكر والتأمل حول ما هو ضار وما هو مفيد لهذا المقصد، مثل -حداثتي- قام أولاً بتدمير النباتات الضارة، ثم الأشواك، ثم الأعشاب، وقام بعد ذلك بزراعة الحبوب ومزروعات أخرى، استهدف أن يحصدها عندما ستثمر، ولهذا بحث بهذه المسائل، وبالطرائق المتقدمة الذكر المتعلقة بالتعليم، كوسائل مفضية للمساعدة على الحفاظ في الأرض المقدسة، وللإستيلاء عليها، ففي تلك البلاد سوف يكون الطلاب غير قادرين على نيل أي تقدم، أو القدرة على امتلاك الوسائل من أجل إحداث التقدم، حتى تصبح البلاد غير مضطربة ومتحررة من الحروب، وأيضاً لن يتمكنوا بسهولة من إيجاد أساتذة يقومون بتدريبهم من أجل إحداث تقدم سريع في ميادين العلوم العملية النافعة، لأن كل أستاذ سوف يرغب [في ظل النظام القائم] بأن يبقى الطلبة يتعلمون منه لوقت طويل.

وسيعتقد كل أستاذ بشكل عام بأن موضوعه هو الأكثر أهمية ومنفعة من جميع الموضوعات الأخرى، وفوق هذا يعتقد كل واحد بشكل عام بأن المعلومات التي يمتلكها، والتي يرغب بتملكها بشكل كامل هي كافية لأن تقوده هو شخصياً مثلما هي كافية للعالم أجمع، ولقد نسي أنه ليست المعارف العظمى لوحدها ضرورية لقيادة العالم بل أيضاً الخبرة العملية.

كما أن معرفة موضوع من المواضيع مشفوعة بالخبرة العملية لموضوع آخر لن تكون كافية، -مالم يكن الموضوعان متصلان ببعضهما بعضاً، ولا يمكن تحقيق هذه القرابة والصلة، مالم يتم اختزال طريقة الدراسة

ووقتها، للسماح للذين لديهم معلومات نظرية بالحصول على الخبرة العملية بسرعة كبيرة حتى يتمكنوا من تملكها واستخدامها لوقت طويل، قبل أن يبدأوا بالعمل بشكل أحق من خلال انحدار قواهم العقلية، وقدرتهم على إعطاء حكم سليم، فقد قال الفيلسوف: «تشيخ أدوات المشاعر، لكن الفضائل لا تشيخ»، ولهذا علينا أن نكون قادرين على إدراك ضرورة الاحتراز ضد الأحلام المجردة، علماً بأن المعرفة ليست أدوات طاقة، بل هي حاجات للأدوات، وتندر هذه الأدوات وتضعف بسرعة من الرطوبة ومن البرد، وهي تضعف أكثر في البلدان الباردة، من ضعفها في البلدان الدافئة، ولهذا يمتلك الشيوخ في المناطق الدافئة مشاعر عامة أكثر، وقدرة أفضل على التذكر، وتجميع الأمور من الذين يعيشون في بلدان باردة، وبين جميع المناطق، المناخ المعتدل هو المفضل، بما أن التطرف في المحيط يضعف القوى العقلية للإنسان.

٨١ : ولأسباب المذكورة من قبل، يتقدم الشباب بسرعة كبيرة في العلوم ويصلون إلى الخبرة العملية بنشاط كامل، ومع توقع حياة مديدة توافقاً مع مسلمات القانون، والطبيعة، وبعد نيلهم أولاً للمعلومات النظرية، وبعد ذلك للخبرة العملية، المساندة للمعلومات النظرية، سوف يكونوا وقتذاك قادرين على حكم عقول وأجساد الآخرين، لمدة طويلة، بسبب تدريبهم الخاص من أجل المهمة، لأنه كما كتب «ما من أحد يصبح متفوقاً بشكل مفاجيء».

٨٢ : يتوجب على الوقحاء أن لا يكونوا متشوقين لعدم الموافقة على الشروع بمثل هذه التحسينات العظيمة، بل الذي بالحري عليهم — بفضل نعمة الرب — السعي — جا هدين لتحسين وإكمال العمل غير الكامل من أجل المنفعة العامة، أو إذا ما طرحنا القضية جانباً، يتوجب عليهم وقتها بذل الجهد في سبيل شيء أكثر مواءمة، وأكثر فائدة عملية، بقدر ما يسمح الهدف الأساسي، وعليهم الحث على ذلك بلطف

وفصاحة، وقد قال الفيلسوف مؤيداً لهذا — مع أنه قد اكتشف شخصياً بالبراعة طرق الحكمة، ومبادئ رفض القياس المنطقي — : «من الصعب اكتشاف مبادئ أساسية، إنما ما أن يتم اكتشافها سوف يكون من السهل الإضافة إليها»، وتماشياً مع هذا وتوافقاً قال المشرع القانوني: «إن الذي يقوم ببراعة بتحسين الذي جرى اكتشافه، ليس أقل جدارة بالمدح من الذي عمل الاكتشاف أولاً».

٨٣ [1 5] : ولسوف يكون مفيداً إبقاء الضعفاء جداً، غير القادرين على عبور البحر، في كل مدرسة من مدارس هذا المركز، وعندما يتعلم هؤلاء أكثر من برامج الدراسة الموصوف، وذلك بقدر ما تسمح به الظروف، يمكنهم القيام بتعليم الآخرين، وأن يصبحوا في النهاية رؤساء للمدارس، وينبغي طلب عدد كبير من أساتذة الاغريقية والعربية والكلدانية، مع أساتذة آخرين للغات أخرى تعد مفيدة، وعليهم القيام بتعليم آداب لغاتهم إلى أكثر طلابنا ألمية، وإلى آخرين، يمكن أن تكفيهم دراسات أدنى للأدب وإلى اللغة الأم، بقدر ما يمكنهم من العمل كترجمين — كلاميين لغير المتعلمين، وأعتقد، أنه كما نرى بين لاتينياتنا عدة لغات أم متنوعة، موجودة تحت آداب كل لهجة، سوف يكون مفيداً بالنسبة للذين يرون أن لديهم القدرة على تعلم اللغات الأجنبية، أن يتعلموا اللغات العمومية الأكثر بين هذه اللغات، مثل الفرنسية بين لاتينياتنا.

٨٤ [52] : وينبغي تعليم التلاميذ الأشد بنية بين تلاميذ هذا المركز الفنون العسكرية، وبالنسبة للآخرين الذين يتبين مع مرور الأيام أنهم متخلفين في دراسة الآداب، ينبغي تعليمهم الفنون الميكانيكية، خاصة الفروع النافعة منها، والمفيدة لفن الحرب، مثل فن الحداة، وفن النجارة، ذلك أن الفيلسوف يقول: «فن الحرب أكثر نبلاً من جميع الفنون الميكانيكية، وذلك بسبب نبل الهدف الذي يسعى مجتهداً نحوه،

والذي هو السلام»، وينتمي إلى فن الحرب أكثر من سواهم: الحداد. ومنتج الأسلحة، ومثل هذا واضح أن فن النجارة من أجل فن الحرب يعتمد على هذين الفنين.

وينبغي أن يتعلم كيفية صناعة مختلف الأدوات، مثل المرايا المحرقة، والأدوات الأخرى المفيدة في أثناء القتال، واعتماداً على الاقتراحات التي وردت في الكتاب الصغير المتقدم الذكر، أي كتاب «حول منافع الرياضيات»، من الممكن تحقيق هذا وصنعه بمعونة كل من فني الرياضيات والعلوم الطبيعية، فبوساطة هذه الفنون يمكن صنع أشياء لم يسمع بها قط في هذه المناطق الغربية.

ومن الممكن أيضاً أن يتدربوا على كثير من الحرف اليدوية المفيدة من أجل استرداد الأرض المقدسة، والاستيلاء على المناطق المجاورة لها، لأن عدداً كبيراً من الرجال البارعين وذوي الخبرة في هذه المسائل قد ارتؤي أنه مـرغوب فيهم، ومن غير الممكن أن يكون إنساناً واحداً قادراً على إتقان هذه الحرف اليدوية كلها، وهذا واضح مما رأيناه دوماً نحن وأجدادنا.

ومن المؤكد والواضح لكل ذي بصيرة، وما لا يمكن لإنسان أن لا يلاحظه، أنه من النادر وجود إنسان بارع في حرفتين يدويتين، ولم يوجد قط من أتقن ثلاثة حرف، فكيف على هذا أن يوجد إنسان بارع في جميع الحرف، التي هي بيننا لا يمكن تعدادها؟ وإذا ما انعدم هذا في الحرف اليدوية، انعدم أيضاً في جميع مقاصدها، وأسبابها، وتنوعها، ويتبع هذا القول أنه لا يمكن لإنسان واحد أن يتولى تدريس جميع الحرف اليدوية، أو أن يكون مؤلفاً لها جميعاً، ويبدو أن مرد هذا وسببه هو أن صانع الطبيعة، قد رغب في إزالة كل مناسبة من مناسبات التشامخ والرغبة في السعي وراء الأشياء المتوفرة في هذا العالم، وأن يعطي تسويغاً، وسبباً، ومناسبة لكل إنسان، لاحتمال أن يكون هو

نفسه ممتلكاً لممتلكات ومخترعاً لحرف يدوية من دون توفر المزيد من الشره والحسد، فوق الحد المقبول، وبذلك جعل الأشياء اللامحدودة مسؤولية إنسانية، مثلها في ذلك مثل اللغات — والآداب وكذلك العاميات — والأماكن والمناطق، وضاعف أيضاً الحرف إلى حد أن لا إنساناً واحداً، ولا مائة، ولا ألفاً، ولا مائة ألف، ولا مرة ألف ألف، يمكن أن يكون فيهم كفاية للصالح العام، والازدهار العام، في إطار المعنى العام للعبارة، لن يكون رجال منطقة واحدة، أو مملكة، أو ثلاث ممالك، أو عشر ممالك فيهم كفاية لبعضهم بعضاً.

وهذا صحيح، إلى حد يبدو الأمر فيه أن جميع رجال هذا العالم هم بشكل عام مسهمون بشكل متبادل في خيرهم العام، ويتبع هذا أن على الناس أن يكونوا متسامحين، وبلا شره ولا حسد لأي إنسان في حظه السعيد الطبيعي، وأن يكونوا مثل الحيوانات الأليفة التي تتسامح مع بعضها بعضاً، وهكذا قام مخلص الأرواح جميعها بالتعبير عن إرادته، عن طريق أفعاله أكثر منه عن طريق أقواله، وقد وجهنا بكلمته وفعله بما يتطابق ويصحح مع ما قاله الرسول: «كل عمل من أعمال المسيح ينبغي أن يكون توجيهاً لنا» (من روما : ١٥ / ٤)، وقد جاء حول رسالته، وكتب حول تعليمه: «ابتداً يسوع يفعله ويعلم به» (أعمال : ١ / ١)، وقد حذرنا القانون المدني بقوله: «ليس مهماً كيف عبر الشعب الروماني عن إرادته، سواء أكان ذلك بالكلام، أم بالأوامر والأفعال ذاتها».

وبناء عليه ينبغي تعليم تلاميذ المركز مختلف أنواع الحرف التي ستكون ذات فائدة في استرداد الأرض المقدسة، والمحافظة عليها، وفي سعادة سكانها، بحكم كونهم المؤسسين لنظام يكون مناسباً في أوقات الحاجة الماسة، وعلى هذا التجهز وشراء معدات من مناطق نائية عبر البحر، تكون مفيدة جداً لتلك البلاد، وهي معدات نادرة ما توجد — إن وجدت — في داخل حدودها، ولقد قيل بشكل عام أن كل شيء

نادر، يعدّ ثميناً، ويحدث أن جميع الأشياء الضرورية والمفيدة لوجود الانسان ولسعادته، قد تتوفر بكثرة في بعض الأماكن وتتعدم في مناطق أخرى، فهكذا خلق الرب العظيم والرائع جميع هذه الأشياء للانسان، وهكذا وزعهم حتى لا يجعلهم الانسان المعاق بالأضاحي هدفاً له، ورغبة لأن يعيش دائماً هنا بالأسفل.

٨٥ [53]: وينبغي تعليم جميع فتيات المركز، مثلهن مثل الذكور، النحو اللاتيني، والمنطق بعد ذلك، ولغة أجنبية واحدة، ويتنقلوا بعد هذا إلى تعلم أسس العلوم الطبيعية، وأخيراً إلى الجراحة والطبابة، والذي اعتقده أن مثل هذه التدريبات — باستثناء النحو والجراحة — ينبغي أن تعطى إلى الفتيات اللاتي يظهرن أكثر قابلية للتعليم، ولديهن امكانيات أفضل من سواهن، وينبغي أن يتعلمن أيضاً من كل علم من العلوم الأجزاء التي لها علاقة بالطبابة والجراحة، وبطريقة قابلة أكثر للفهم، وأكثر وضوحاً، وأكثر سهولة أيضاً، آخذين بعين التقدير ضعف جنسهن، ولأنهم ينضجن بسرعة اكبر من الذكور، ويحصلن بسرعة أعظم على مثل هذا الكمال، مما هو ممكن للذكور، ونرى الشيء نفسه في الاشجار وفي النباتات الأخرى، ويؤيد هذا ما قاله الفيلسوف، لدى حديثه عن هذه القضية في كتابه «حول الحيوانات»: «ينضج الذين أعمارهم أقصر بسرعة أكبر».

ويمكن لبعض البارعات من هؤلاء الفتيات اللاتي يظهرن أنهن قد لا يتحملن عبور البحر، البقاء هنا بشكل دائم حتى يتولين المسؤولية عن الأخريات، وبمساعدتهن يمكن الاهتمام بالأخريات بإخلاص أكبر، وأن ينلن قسطاً وافياً أكبر في تعلم كل المعارف النظرية والعملية المتعلقة بالجراحة والطبابة، وبالمسائل التي يعرف أنها ذات علاقة بفن، وبحرفة التمجيد والتأليه.

٨٦: بالنسبة للفتيات المقرر أن يتزوجن ممن غير آخذ بمبادئ

إيماننا، التي تتمسك بها الكنيسة الرومانية، وتبشر بها، وتراعيها، ينبغي أن يتعلمن المبادئ حسباً تأخذ بها الكنيسة الرومانية، وأن يحملن معهن جميع المبادئ مختصرة، وقد كتبت بوضوح، وبطريقة يمكنهن فهمها بما فيه الكفاية، ولن تكون المعرفة نفسها مضرّة لا بل قد تكون مفيدة، لعدد كبير من تلاميذ المركز المتقدم الذكر، الذين لم يتلقوا تعليماً وافياً في اللاهوت، زيادة على ما تقدم، سوف يكون مفيداً أن يبقى في المدارس العديدة الخاصة بالطبابة والجراحة، التي تأسست من أجل الفتيات، فتيات، برعن في تعلم الطبابة والجراحة أكثر من البقية، وغدون أكثر خبرة في هذين الفنين، أن يبقين للقيام بالخدمة، ولسوف يتولين تعليم الأخريات في كل من الأمور النظرية والتطبيقية، وبذلك عندما تقوم الفتيات بمغادرة المدرسة، يمكن وقتها أن يمتلكن بعض الخبرة العملية، وذلك بالإضافة إلى المعارف النظرية، ومن الممكن لهن أن يتعلمن في المدرسة — وليس بعد ذلك — بسهولة أكبر، وأن يحصلن على كثير من الخبرة، التي بدونها سوف تكون المعارف النظرية ذات فوائد ضئيلة، ويؤيد هذا ما قاله الفيلسوف: «لقد رأينا في الشؤون البشرية أن الذين لديهم خبرة من دون معارف نظرية يتقدمون أكثر من الذين لديهم معارف نظرية في موضوعهم، من دون خبرة تطبيقية».

٨٧[54]: وبالطريقة نفسها سوف يكون مفيداً إذا ما نال الطلبة المذكور لهذه الموضوعات بعض الخبرة العملية فيهم، وهم ما يزالون في المدرسة، وينبغي إقامة حانات صيدلي هناك، حيث يجري إعداد الأدوية، حتى يتعرف الطلبة إلى الأعشاب والعقاقير الطبية الأخرى، وإلى كيفية إعداد الأدهان، واستخراج الزيوت، والوصفات الأخرى العامة، وبذلك عندما يتركون المدرسة سيكون لديهم الاستعداد الكافي لممارسة هذه الخبرة.

٨٨ : ويتوجب إعطاء طلاب المعارف اللاهوتية بشكل خاص،

فرصاً وافرة لممارسة ذلك الفن بالقيام بوعظ رفاقهم الطلبة، وبتقديم القديسات إلى الأسن منهم، وبعقد المقارنات القصيرة بين النصوص بين آونة وأخرى.

٨٩[55]: وقد يسأل الانسان كيف يمكن إعطاء طلاب القانون في وقت قصير ما يكفي من الخبرة العملية التي تمكنهم من إصدار الأحكام ورفع الالتباسات، وهذا يحتاج إلى وقت طويل خاصة للحصول على مثل هذه الخبرة، فهذا ما يعرفه تماماً الذين أنفسهم يعملون بالممارسات هذه، وإذا لم يكونوا من العاملين، لا بد أنهم قد رأوا أعمال الآخرين، وقدموا الاهتمام الأعظم من أجل التعلم منهم، وهذا واضح ومشروح من قبل رأي هوغتون Hugution المعروف كثيراً، ذلك أنه كان أستاذ قوانين كبير، حيث قال: «سعيد هو الذي يجعله رعب الآخرين حذراً».

ويبدو من الصعب جداً إيجاد مخرج فيه كفاية ومواءمة، يكون سهلاً وليس ثقيلاً جداً، ومع هذا إنه من الممكن الانجاز، لكن مع صعوبة، ولهذا قال الفيلسوف: «ليس للمسألة المبدئية شكلاً في ذاتها، لكنها هامة بالنسبة إلى جميع الأشكال»، وبناء عليه استفاض وزاد فقال: «المسألة هي التي في حال الفعلية، وهي التي تشكل الفعل والاتمام لأي شيء جرى ترتيبه بانتظام»، فنحن نرى مصباحاً من الشمع، مهما كان شكله، يتلقى جميع اشكال الفعلية الهامة بشكل متعادل من خلال براعة النحاتين، وليس من خلال تقديم الأشكال الأخرى.

٩٠: وهكذا قضى خالق الأشياء كلها، أنه بالنسبة للفعلية في كل شيء، من الممكن تملكها في وقت قصير عن طريق خبرة قصيرة تأتي بواسطة ممارسة للمسائل ولأسباب، روحياً ودنيوياً، وذلك مثلما الحال في كثير من الأشياء الأخرى التي ماكانت بسبب انعدام الفنيين أن تأتي إلى الوجود، ويستهدف الإسراع بالحصول على الخبرة العملية،

في إصدار الأحكام، وفي تقديم الالتماسات، ويتطلع نحو ازدهار الأرض المقدسة مع سكانها، ومع أنه مناسب وصحيح أن يستولي على تلك البلاد أناس من كثير من البلدان، لكن إذا مارغب كل إنسان وسعى إلى تطبيق عاداته وشرائع بلاده التي جاء منها، أن يمارس إجراءاتها القانونية، سوف يحدث اضطراب عظيم بين السكان، ولسوف ينجم عنه مناسبات لا عدّها لها ولا حصر من الخلافات، وإنه لأمر مقرر بشكل عام أن يفضل كل إنسان تفضيلاً عظيماً، شرائع بلاده التي جاء منها، وعاداتها، ونظمها، مع أنها قد تكون أقل مواءمة - مما هو عائد إلى بلد آخر، وهذا ما عبر عنه أوفيد بقوله:

لست أدري بأي سحر جميل، الموطن يجذب جميع الناس، ولا يسمح لهم بنسيانه

وقد كتب الفيلسوف يقول: «كل شيء ليس هو عادة مؤلم»، ولسوف ينظر الإنكليز، والألمان، والإسبان، بعين عدم الرضا، إذا ما جرى تبني عادات الفرنسيين وطرائقهم المتعلقة بالقضاء، وستنجم خلافات لا عدّها لها ولا حصر من التباينات بين عادات ومذاهب الإجراءات، وفي النهاية - سوف تتفجر الحروب بين الأخوة، الذين ينبغي أن يكونوا - واحداً في المسيح، وعلى وفاق مع ما قاله الرسول: «وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة»، [أعمال: ٤ / ٣٢].

ولهذا، يبدو من الموائم من أجل تجنب مناسبات الاضطرابات والحروب، التخلي عن العادات الخاصة والطرائق العائدة لأية شعوب هاجرت إلى هناك حديثاً، واستبدال ذلك بطرائق للإجراءات القضائية، هي قبل كل شيء سهلة، وأقل إرهاقاً، وأقل تبديداً [للجهد وللوقت]، وأقصر، ويمكن لسكان الأرض المقدسة - المتمركزين في وسط أعداء السلام - أن يجدوها أسهل من الجميع بالفهم والتذكر، والتدرب عليها، ومن الممكن من خلالها الحصول بسرعة على خبرة عملية،

ويمكنهم بعد هذا اتباع طريقة الإجراءات القضائية نفسها في المحاكم المدنية واللاهوتية، ويمكن وقتها تحديد الأسئلة وفقاً للشرائع المكتوبة، والقوانين المدونة، كما يمكن إزالة المعوقات، والحيل، وإطالة الإجراءات القضائية الموجودة بالعادة في كل مكان آخر، إزالة كاملة.

وبوساطة هذه الطريقة — التي سيجري شرحها بالتفصيل أكثر فيما بعد — يمكن لطلاب هذا المركز، الحائزين على خبرة في ممارسة القانون — حسبما تقدم البحث — أن يصبحوا على الفور قضاة لديهم ما يكفي من الخبرة، ومرافعين عن قضايا في أية محكمة من المحاكم، وهذا أمر لم يسمع بمثله من قبل، ويمكن بوساطة هذه الطريقة لذوي المراتب من الكهنة أن يكونوا مستشارين ومرافعين في بعض القضايا القانونية، وأن يفعلوا ذلك أثناء مكوثهم في كنائسهم، أو في منازلهم، ومن دون أن يدخلوا إلى أماكن المحاكمات، ولن يتمكن المرافعون العموميون من إفراغ أكياس أموال المتقاضين، كما هي العادة في كل مكان آخر، ولن يأخذ البت في القضايا أمام المحاكم وقتاً طويلاً، قد يتجاوز عمر الانسان، كما أنهم لن يكونوا قادرين لمدة طويلة على إعاقة الاهتمامات بالعلوم وبالفضائل، وبالأعمال الأخرى المتعلقة بالسلام.

٩١ [56]: وسوف أقوم الآن بشرح هذه الطريقة الموائمة - جداً في متابعة القضايا القضائية: على أي صاحب ادعاء في قضايا هامة، أن يقوم بعد استدعاء الدفاع إلى مكان القضاء، أن يضع أمام القاضي نقاط الاتهام نقطة نقطة، مما يود أن يبرهن على صحته، ومثل هذا في القضايا الأقل أهمية، عندما يكون الدفاع قد استدعي وهو موجود:

لقد ادعى «ب» ويريد أن يبرهن على صحة دعواه ضد «ت»، ويطلب أن يصدر حكم من قبلكم على «ت» نفسه، إلى حد ما يستطيع البرهنة عليه، أي أن «ب» نفسه قد أقرض «ت» المذكور مبلغ مائة مارك من الفضة الاسترلينية بعد ما عدّ المبلغ وسلمه إياه.

٩٢: بند: «قام» المذكور بحضور «ب» المذكور، بالاعتراف في أوقات أخرى بأن ما ورد أعلاه صحيح. بند: أقر «ت» المذكور، أنه سوف يعيد إلى «ب» المذكور مائة مارك استرليني صحيح، للسبب المتقدم. بند: لقد رفض «ت» المذكور إعادة دفع المال نفسه، مع أنه قد طُلب به مراراً.

٩٣: هذا هو جوهر الشكاية كلها، ومن الضروري الانتهاء عند هذه النقطة، حيث يتوجب على القاضي نقل بنود الشكاية إلى الدفاع، من أجل أن يقوم بعد استعراض القضية كلها، بالإقرار بالجرم، أو برفض التهمة بالطريقة التي يرغب بها، فإذا كانت التهمة زائفة بسبب أن المال لم يجر تعديده قط ولم يجر بالتالي دفعه إلى المتهم، فوقتها يمكنه إنكار كل التهم، و ينتظر من المدعي تقديم البراهين.

فإذا كان المال قد جرى إقراضه بالفعل، وتمّ الدفع بالفعل، لكن القرض قد ألغي، وهناك إيصال به، وقد سدد، أو تمت ترتيبات أخرى مع أشخاص آخرين، مع نية تجديده القرض، يمكن للدفاع أن يقول: إن «ت» مقر بأن قرضاً مقداره مائة مارك من الفضة، قد دفع له منذ سنة خلت، وأنكر بالوقت نفسه جميع التهم الأخرى، وقال إنها غير صحيحة من جوانب أخرى، حيث عزم على أن يبرهن ضد «ب»، أنه دفع من بعد وسدد القرض إلى «ب» نفسه أو أن «ب» قد أعفاه من الدين، بنية جعله هبة، أو أن «ب» قد حلله من جميع التزامات الماضي أو أنه عين مثل هذا المبلغ نفسه إلى آخر، مع نية تجديده وبذلك فرض على نفسه عدم المطالبة بالدين المذكور، وعلى هذه الشاكلة يسير الاستئناف وذلك وفقاً لما تتطلبه طبيعة الحقائق.

وإذا مارغب المدعي تقديم أي شيء عن طريق الدفاع، عندما يكون رد واستئناف الدفاع قد قدم إليه، على هذا المدعي القيام بتقديم إضافات إلى دعواه، وتقديم هذه الإضافة إلى الدفاع، ووفق الطريقة

نفسها يمكن للدفاع أن يضيف ما يود إضافته، سواء أكان سنداً لقضيته أو غير ذلك، وتقديمه إلى المدعي، وأخيراً يتوجب على القاضي التأكد أن الحقائق نفسها لم تقدم بشكل مكرر، وأنه لم يتقبل مسائل لعلقة لها بموضوع الدعوى أو مقحمة فيها، وإذا وجد شيئاً من هذا القبيل، عليه رفضه، مع أية عبارات غير لائقة أو فيها إهانة، أضيفت من قبل المحامين، بعد هذا ينبغي تقديم البراهين ذات العلاقة من قبل الطرفين: أولاً بعرض الاتهام، ثم الاتهام المعاكس، ول يتم ذلك تحت القسم، وبعد هذا يأتي دور تقديم الشهود ووثائق البرهان، وإذا ما أراد الطرفان المتنازعان، تقديم أسانيد إضافية، بعد تقديم هذه الوثائق و الشهادات، ينبغي السماح لهما بفعل ذلك للمرة الثانية، التي ستكون بالفعل الإبراز الثالث للشهادة من كلا الطرفين، ولدى اكتمال هذه الاجراءات، على القاضي إصدار الحكم.

٩٤ : وقد يقول إنسان: «من الواضح أن طريقة الاجراءات هذه بعيدة عن الموائمة، وأدنى من الطريقة المعتادة التي كانت متبعة بشكل عام فيما مضى، ولا يبدو أن تحصيل الخبرة العملية في طريقة الاجراءات الجديدة من الممكن نيلها بسرعة»، وأنا مقتنع أن ذلك ممكناً، وأنا بتبني الطريقة المقترحة سنوفر كثيراً من الوقت، ومن خدع المحامين، ومن الواضح من جانب واحد فقط أن قصر الأمور على الكتابة، يجعل شكوى مكتوبة واحدة كافية للدعاء، وللمناقشات ولفحص الشهود، ومع إمكانية إبداع طريقة رسمية لرفع الشكاوى فهي لن تطوي المناقشات، والنقاط التي حولها سيجري فحص الشهود، وقد تعود الطلبة على التعايش بسهولة أكبر مع الشكايات، وأسرع من القدرة على استيعاب المناقشات والشهادات، ويمكن لهذه الأمور كلها أن تصبح معروفة بالطريقة نفسها، عن طريق المذهب المقترح.

٩٥ : فضلاً عن هذا: من الممكن للقضايا التي تقدم بها الطرفان أن

تدخل في الكتاب السنوي للقضاة، ومن الممكن صنع نسخة منه، بعد إدخال الخلاصات النهائية فيها، لتخصص للاستخدام من قبل رجال الإدعاء، وأخرى من قبل رجال الدفاع، وبهذه الطريقة نفسها يمكن توفير نسختين إضافيتين، وجعلهما تحت تصرف الشهود من أجل إيداع شهاداتهم، حيث من الممكن فحص الشهود العائدين لكلا الطرفين، وأخذ شهاداتهم في الوقت نفسه.

٩٦: وسوف تكون هذه الطريقة في تسير الأعمال القضائية مفيدة جداً للشباب في تحصيل الخبرة العملية في وقت قصير، بلا جهد تقريباً، وإذا كان السيد المقدس الحبر الروماني يرغب في الأخذ بطريقة الاجراءات هذه، فإن كاتب هذه الرسالة على استعداد لتقديم إجراءات للإدعاء والدفاع في كل قضية قد ناقشها اللورد روفريدوس Rof-fredus في كتابه الصغير حول القوانين، وذلك مع جميع القضايا المثارة من قبل، ولم يتعين لها حل، أو من حوادث نجمت حتى الآن، وهذه الخطة عرضة للتصحيح من قبل الرؤوس الحكيمة بالمساعدة مع المصنف، وإذا ما استكملت ووضعت للتنفيذ، فإن الأرض المقدسة سوف تنال المنفعة عن طريق أن يصبح سكانها جميعاً متعلمين للقانون بشكل جيد، وخبراء في أعمال الإدعاء، وفي إصدار الأحكام، وفي الوعظ، وفي التألق بالحكمة اللاهوتية، ويمكنهم الحفاظ على هذه الدرجة العالية من الكفاية لمدة طويلة، في الحقيقة للجزء الأكبر من حياتهم، وذلك عوضاً عن الإخفاق بسرعة، فقط لدى الشروع بالتقدم، كما رأينا مراراً في الماضي، وما زلنا نرى.

ولسوف تسهم الخطة المقترحة بتملك العلوم واستخدامهم بشكل يختلف عن الطرائق المستخدمة حتى الآن، وذلك بتقديم تأثير كبير على الوئام في إدارة الأرض المقدسة، وبعد إعطاء التقدير المستحق لجهود هذه الخطة، والاهتمام الزائد بالتدريبات والخبرة العملية التي تعطيها،

وذلك مع فوائدھا، وبعد تكريس المزيد من الجهد لها أكثر مما يقدره أي إنسان، إنني أعتقد — أنه بعون الرب — أن الكومنولث الروماني كله، لاسيما الخاضعين إلى الكنيسة الرومانية، سوف يتبنون هذه الطريقة لاختصار الاجراءات القضائية، وتلطيّفها بقدر ما يراه أكثر الناس حكمة مفيداً.

٩٧[57]: ومن الممكن حشد حججاً قوية ضد هذا الاقتراح — وهو احتمال قد يتمتن بخدع الشيطان وحيله، مع معاونيه الذين لا عدّ لهم ولا حصر — ومع ذلك على سبيل المثال: «أنك بالطريقة المختصرة التي وصفتها، والتي شددت على التوصية بها بمثابة طريقة مختزلة من أجل تسريع الأعمال القضائية، إنك تقوم عن سابق تصور وإصرار كثيراً من القوانين التي سنت بعد صعوبات جمة، فهي ستصبح وقتها بلا فائدة، وبدون هدف، ولا حاجة لشغلها صفحات الكتب».

ومن الممكن مواجهة هذه الحجة بطرق عدة، فبعض القوانين قد أظهرت كيف يمكن بها تسوية القضايا القضائية، فهذه لم تتغير، وكذلك لم تتغير صلاحياتها، ولم تدمر عدم فائدتها بهذه الخطة، لكن هناك قوانين أخرى، تميل نحو إثارة المشاحنات، وتسبب لأسباب أخرى إثارة التناقضات، ويتبع ذلك عدد لا يحصى من الاحراجات التي تتولد من تطبيقها في أيامنا، ومن المفترض أن يتولد المزيد في المستقبل، لأن الشرور لدى بني البشر في تزايد، ومثل هذه القوانين سوف تحقق بوساطة هذه الخطة، إذا ما وضعت قيد التنفيذ، إنما لن يجري محق القوانين التي هي موجودة في «مجموع القوانين المدنية»، فهؤلاء يشكلون قاعدة جيدة من أجل الحجج القانونية، وهي أفضل من القوانين التي سوف تلغى، بكل ما تعنيه الكلمة، وهؤلاء أيضاً سيكونون موائمين كثيراً لعدد كبير من القضايا القضائية، هذا ولن يكون انحرافاً، في ظل مثل هذه الظروف، الابتعاد بعض الشيء عن بعض المواد النظامية في

هذه الشرائع والقوانين.

وبهذه الخطة سوف تصبح سلطات هذه القوانين عظيمة جداً في الأرض المقدسة، لأنهم لن ينالهم التعديل بوساطة العادات بالمحاكم المدنية، مثلما حدث للقوانين حتى الآن هناك، ولسوف يحافظون على مكانهم أكثر من ذي قبل، لأنهم سوف يتغلبون على العادات، وسوف يجري اتباع الطريقة نفسها من الاجراءات في كل من المحاكم اللاهوتية والمدنية، وسوف تكون الطريقة الاجرائية في تسير القضايا القضائية رسمية واحدة في جميع أرجاء تلك البلاد، لأن تسوية القضايا القضائية، وسن القوانين التي سوف تحكم بموجبها مثل هذه المسائل سوف لن تتغير، ولسوف تتم المحافظة على صرامة القانون دونها إفساد أو تلف، ولن يجري تحديد المواد التي تستخرج منها الأحكام، ولن يسمح لهذه الأحكام بالصدور ما لم تصدر عن براهين هذه المواد، محصلاتها وبراهينها التالية، وهكذا يمكن للجديين المنطقيين أن يقولوا عن القياس المنطقي، عندما يطرحون القاعدة المطلقة بأنه لا يمكن الوصول إلى نتيجة عندما يمكن لمحصلة معاكسة الوقوف مع السابقة، وإليكم ما يقوله المشرعون : من مائة برهان يظل خمسون يتوالدون أو بكلمات أخرى، ولنستخدم هنا تعبيراً عاماً: «الحقيقة المفقودة، لا يبرهن فقدانها على أنها موجودة».

وعلى الانسان مراعاة هذه القاعدة بدقة، كلما كان من الضروري إصدار حكم، سواء استمرت الشكاية أو جرت البرهنة على صحة ما قاله المدعي أو ما قاله الدفاع، وإذا ما تركنا إصدار الحكم يعتمد على الحظ، نكون قد اقترفنا غلطة بحق طبيعة الحكم بالذات، وإذا ما ظهرت هذه الغلطة، يصبح الحكم الصادر لاغياً بوساطة القانون نفسه، ولهذا قال الفيلسوف: «في قليل جداً من القضايا تكون الأصداء وبالتالي الأحكام منطقية، وتظهر بشكل جيد»، وهذا واضح من حقيقة أن كل

محااجة تنبني وتبرهن بناء على قوة القياس المنطقي، والذي ينهي المحااجة هو الأشد اختصاراً بينها جميعاً، وتأقي بالضرورة بالقضية إلى محصلة ذات شكل وبنيان ينتمي إلى جميع المحاججات، ولهذا السبب طرحنا من قبل أن على طلاب هذا المركز أن يتعلموا فن المحااجة والمناظرة، مع قليل من الفلسفة، حتى يمكنهم معرفة طبيعة البراهين وفن المقارنة، مع كيفية إيصال القضايا إلى محصلاتها، بمقارنة المحصلات التي عرضها المشاركون، وأن يعرفوا كيفية تقرير فيما إذا كانت الأسس صحيحة، وفيما إذا كان من الممكن أن نستخرج من صحة الأسس صحة المحصلة التي من الضروري أن تتماشى مع الأحكام المقررة أعلاه، ومن هذا المنطلق حدث أن كثيراً من القضاة البارعين في القانون، لكن غير القادرين على دراسة العديد من القضايا القضائية، قد اعتادوا على إحالة القضايا إلى آخرين أقل براعة وأقل خبرة، وهكذا بعدما تقدم إليهم تقارير حولها، يصدرن أحكامهم على أساس الخلاصات الموجزة للاقتراحات وللبراهين، وبذلك يفرضون حكماً متساوقاً مع البرهان، ومتناسباً.

لأنه كما يقول الفيلسوف: «العقل البشري بسيط وغير مجزأ، وإلى حيث وجهت اهتمامه توجه بشكل كلي»، ولهذا السبب يفهم في وقت واحد شيئاً واحداً فقط، أي في كل لحظة من اللحظات، ولهذا على الإنسان أن يقدر السبب وراء طلب الانصاف القضائي، وفيما إذا كان هذا الطلب قانونياً، ومتساوقاً مع القانون وغير متعارض، ثم فيما إذا كان قد بني على حقيقة، وأخيراً، إذا ما تبرهنت صحته، هل صحة المحصلة المطلوبة والمستخرجة من الضروري اتباعها؟ وبوساطة هذه التحريات والتقديرات لا يمكن للعقل البشري أن ينخدع لدى إصدار الحكم، عندما تكون الشكاوى، والبراهين، والالتماسات الواردة في المحصلة قد عرضت وفق هذه الطريقة.

ولقد قيل بأن معظم الأخبار الرومان الأعظم قداسة، قد اعتادوا على التفوه بالأحكام مرفقة بالمنطق الأصح، وبالبراعة الفلسفية، مع أنهم لم يتولوا قط دراسة القضايا القضائية، ولعل سبب هذا أنها أعطيت إليهم وسلمت من الأول الذي بدأ يفعل ذلك، أو أن ذلك ولد فيهم، أو وهب إليهم بنعمة ربانية.

٩٨: ومع أن المنطق يجهز ويعلم طرائق صحيحة للتعلم، وللفهم، وللمعرفة جميع العلوم، ولتعليمها، مع ذلك يحدث في حالات نادرة، أن إنساناً ما، بحكم مواهبه الطبيعية، يمكن أن يمتلك حكماً صحيحاً صادراً عن منطق طبيعي، إلى حد أن قدرته القضائية، وطريقته المنطقية في التفهم هي متفوقة، وأكثر سمواً من براعة الآخرين، أو مساوية لها، ومن الممكن سوق برهان على صحة ذلك مما قيل بأن جالينوس قد كتب به إلى أبوقراط قائلاً: «ما من إنسان يمكنه، أو أمكنه، فهم فن الطبابة، ما لم يعرف المنطق أولاً، باستثناء أبوقراط وحده لأنه متفوق جداً بالذكاء».

وينبغي على الملوك، والأمراء الآخرين الكبار، والقضاة، التفوه بالأحكام وفقاً لنظام منطقي ما، وعليهم -عدم الاصغاء إلى المشاكسين المنحرفين والمخادعين، ولا إلى الخدع المتغيرة للمدعين، ولا إلى كلامهم المعسول والبارع الذي يتفوهون به بطلاوة وبراعة، مع طرائقهم الخاصة بالكلام وبالضحك، ولا بحركاتهم وبإيماءاتهم التي تنم عن التوسل، أثناء أحاديثهم، والتي إذا ما دونت سوف تصل إلى شيء لا يتجاوز كلاماً أجوفاً وفارغاً قصد به التأثير، وترافق مع تغيير بالنبرات، مثل الصراخ الذي يشبه الرعد أحياناً، وعوضاً عن هذه الطرائق، إنه أفضل بكثير أن يجري تحري القضية من خلال، وبوساطة سجل مكتوت بشكل دائم، وذلك بدلاً من الاعتماد على الكلام العابر، فوقتها يمكن تقديم جواب محدد لشكاوى محددة وليس مجرد كلام انبعث على الفور

ثم زال وتبدد.

٩٩ [58]: تقدست الأرض المقدسة بالدم الثمين، وبالأعمال، وبالحضور الجسدي لمولانا يسوع المسيح، ولهذا من المناسب بأن تكون آمنة مستقرة أكثر من غيرها جميعاً، لأنها الأقرب والأحب إلى ملك السلام، والذي يقال بأنه أعطى لا شيء - سوى السلام إلى - حواريه وإلى أخوانه، وعندما بفضل نعمة ورحمة ذلك المخلص نفسه، سوف تتوقف الحرب في تلك الأرض، لا بل حتى مع استمرار الحرب، يبدو من المناسب كثيراً أن تتوقف المشاجرات بين الكاثوليك المقيمين هناك بوساطة الطريقة المتقدمة الذكر، أو بطرائق أقل إرهاباً وأذى، وأكثر فعالية وسرعة.

وجميع مساعي إعاقاتهم وتأخيرهم مساعي شريرة، ويوجد الآن شرين أو أكثر، أحدهما لا يمكن تجنبه، والأقل هو الذي ينبغي أن يفضل، ولهذا يتوجب بموجب ذلك على الأب الكبير، أن يتفحص، وأن ينتخب وأن يتبنى نظاماً للإجراءات القضائية يكون أسهل وأقصر، وأقل كلفة، وإرهاباً وأذى لأبنائه، وفي ضوء هذه الحقيقة، وبما أن السكان الجدد للأرض المقدسة لن يكون لديهم لا شرائع، ولا عادات، ولانظم خاصة بهم، يتوجب على الحبر الروماني المقدس، الذي هو الأب لجميع الكاثوليك، أن يتفضل ويتلطف بتأسيس النظام المتقدم الذكر إليهم، أو نظاماً أفضل، يتولى تسوية جميع خلافاتهم في أي محكمة من المحاكم، وبهذه الوسائل يكون قد فعل ما ينبغي لإخاد خلافاتهم، ثم عليه أن يغتنم الفرصة التي تهيأت بوساطة الاقتراحات المعروضة أعلاه، فيسعى للإقلاع بإصلاح عام روحياً ودينوياً للأوضاع داخل الكومنولث المسيحي، وذلك حسبما يلهمه أبو الضياء، وينبغي أن يقوم بإصلاحاته بطريقة تعيش فيها هذه الإصلاحات لجميع الأوقات.

وإذا كان من المتوجب عليه إزالة الخلافات وإقامة السلام في مدينة

واحدة أو أسقفية، أو أكثر في مقاطعة، أو حتى أكثر في مملكة، أو ربما في عشر ممالك — كم عليه أن يعمل من أجل سلام دائم: روحياً ودينوياً بين جميع الكاثوليك؟ ومن غير الممكن تحقيق هذا الاقتراح العظيم والرائع إلا من خلال الملك المحب للسلام، بما أنه صادر من عند الرب العظيم، ومن خلال الذي عهد إليه وحده بكامل قواه على الأرض، وبهذا الخصوص قال المانح المشهور للقانون المدني: «لأننا كنا مشغولين بالاهتمام بالكومنولث كله لم يقع اختيارنا على شيء هام جداً»، إلخ.

١٠٠ [59] : على الرغم من حقيقة أن الكاتب الحالي لهذه الرسالة سوف يتخلى عن المبلغ الكبير الذي يأتيه من خلال عمله مستشاراً في القضايا التي تخص السبدين الملكين الرائعين، ملكي فرنسا، وإنكلترا، وفي قضايا قضائية لاهوتية أخرى، وسوف يضطر لعدم الاستمرار في موطنه الأصل، إنه على الرغم من هذا كله على استعداد للقيام بتنظيم القضايا المذكورة أعلاه، لا سيما المدارس العائدة للمركز المقترح، وبمعمونة الرب، وفضله سوف يقدم المساعدة في هذا العمل بكل ما أوتي من قوة، لعله يكون شريكاً مسهماً في هذا المقصد الهام جداً، ومن ثم يغني مع المزمور قائلًا: «أنا رفيق لكل الذين يتقونك ولحافظي وصاياك» [مزامير : ١١٩ / ٦٣]، وأتفق مع الرسول عندما يقول: «فلنعمل الخير إلى جميع الناس بقدر ما نستطيع» [غلاطية : ٦ / ١٠ بتصرف]، وأتفق أيضاً مع الذي اقترح القانون بقوله: «على الانسان أن يعمل كل ما يستطيعه لإنقاذ الحياة الأرضية لإنسان آخر، دون أن يعيق خلاصه الأبدي».

١٠١ : وإذا ما بدا أنه من المناسب إقامة حلف للسلام العالمي، وفق الطريقة التي جرى شرحها، ينبغي أن يكون هناك قراراً جماعياً من قبل مجلس للأساقفة وللأمرأ يقضي -بوجوب أن يحلف جميع الأساقفة مهما كانت مراتبهم، وكذلك الفرسان، العلمانيون حسب خدماتهم، أن يحلفوا

أيماناً مهية بالمحافظة، بكل ما يملكونه من قوة، على حلف السلام هنا، وعلى فرض عقوباته، ومراعاتها بكل سبيل من السبل، وكل من يتمنع، أو يهمل هذا القسم، ينبغي أن ينال عقوبة الحرمان الكنسي الرئيسية، ويتولى فرض ذلك عليه بوساطة السلطات الرسولية، وبوساطة المجمع المقدس، وكل من يخرق في المستقبل حلف السلام هذا يتوجب مهاجمته بكل حدة بقوى جميع فرسان العساكر الدنيوية والروحية، حتى لا يمكنه المقاومة.

١٠٢ [60]: وبعد الانتهاء من هذه المسائل، إن الهم الثقيل الثاني للكاتب الحالي، متركز حول توجيه راهبات طائفة القديس بندكت، وهي جماعة من الممكن أن تتملص من إصلاح أحوال الكنيسة المعروض أعلاه، فبعد تقويم عادي للمخاطر الناجمة عن حياة العزوبة، وتكاليف الحفاظ على أرواحهن، وعلى التبريكات غير العادية التي يمكن أن يحصلن عليها، يبدو أنه من الموائم أن يقوم الخبر الأعظم، بناء على طلب من الأمراء الذين غالباً ما أسسوا الدير من أجل الراهبات المكرسات، أو قدموا الهبات لهن، أن يقوم باتخاذ قرار في المجمع، إنه في الوقت الذي تتوفر فيه نفقات كافية للدير الحاوية للعدراوات المعترفات، ينبغي إنقاص أعدادهن حتى لا يكون في المستقبل في الدير الواحد أكثر من ثلاث عشرة راهبة.

ومن المتوجب إنفاق الهبات المخصصة لدير من هذا القبيل لصالح الفتيات اللائي سوف يتدربن وفق الطريقة التي تقدم عرضها، وينبغي إضافة أعداد الفتيات اللائي يحسن القراءة والغناء إلى أعداد الراهبات، ولسوف يكون هذا العدد كبيراً جداً، وبذلك لن تعاق القداسات اللاهوتية مطلقاً، ما لم يتناقص العدد وفقاً لطريقة طائفة المبشرين، وينبغي حماية المنح المعطاة إلى هذا النوع من الدير والدفاع عنها، بوساطة المسؤولين داخل المركز العتيد المقترح، ومن المتوجب استخراج

مبلغ كاف لتقديمه للانفاق على الراهبات وعلى رؤسائهن حسبما كان الأمر من قبل، لكن ينبغي إيقاف جميع النفقات التي يمكن تجنبها، وكذلك النفقات التي هي بلا فائدة، وعلى الفتيات ذوات الحياة المدنية، اللائي يتبعن النظم المدرسية التي أوجدها مديروا المركز، المشاركة في الصلوات الصباحية وفي القداسات، ومن الممكن إعفاء الفتيات اللائي يبرهن أن تعليمهن أسهل من هذا الواجب.

وسوف تضع السمة الأخيرة لهذه الخطة حداً لكثير من الشرور المعتادة، ولا سيما ممارسة قبول الراهبات مقابل دفع المال، أو لاعتبارات أخرى، وكذلك اختيار الدير لشخصيات ذكية ليكون راعيات أو رئيسات، والترخيص بعدد كبير من التجاوزات الطبيعية وغير الطبيعية، وينبغي الاستمرار بالطقوس التعبدية في الدير كما هي من قبل، وإجراء هذه الطقوس خارج الدير بمساعدة الفتيات المغادرات للدير، وينبغي استخراج ما يزيد على ثلاثين ألف ليرة تورية سنوياً إلى صالح المركز المذكور، وإذا جاء المبلغ المستخرج أقل من هذا المبلغ العظيم، من الممكن، لدى وفاة الولاة الحاليين، ردفه من المبالغ المخصصة لهذه الدير، وذلك بعد حذف نفقات نواب الأساقفة، وكذلك من واردات ومنتجات كثيراً من الكنائس الغنية، التي تحت إشراف هؤلاء.

ومن الممكن أن يحاول إنسان — بناء على تحريض من الشيطان — تعطيل هذا الاقتراح على أنه اقتراح شرير، — قائلًا إنه — من هذا الشر سوف تنبع شروراً أخرى كثيرة، وإذا ما أراد أن يدعم معارضته بوساطة مثل هذه المحصلات غير الممكنة، والمتناقضة، وغير المهمة، من الممكن إجابته بإقرار أن كثيراً من الشرور يمكن أن تنجم عن شيء جيد، إنما مع هذا، لا يجوز للإنسان تجنب فعل الخير.

وحسبما ذكرنا من قبل، إنه لمن الواضح من آراء جميع الفلاسفة الذين علقوا على هذه المسائل، أنه من غير الممكن وجود صلاح كامل بين

الناس الذين يستخدمون قدرة حرية الارادة الممنوحة إليهم من قبل الخالق، ولهذا من المستحيل صياغة قانون عام يمكن من خلاله عدم اتباع كثير من الشرور، علماً بأن القانون يحد ذاته هو خير.

[61]: ويمكننا بوساطة إجراءات بارعة وحكم منطقي، أن نقرر أيّاً من هذين الخيارين سوف يكون أكثر مواءمة، وأعظم خيراً، ولنفترض أن لدينا بيتاً للداوية وبيتاً آخر للاستبارية، ورعوية تابعة للقدس لعازر، وديراً للفتيات، مثل الذي رأيناه حتى الآن، ولنقم من جانب أول بتقويم الخير الذي يمكن أن يصدر عنهم، والشرور التي ترافق سوء استخدامهم، ولنقم من الجانب الآخر، بالطريقة نفسها، بتقويم الخير والشر الذي سوف يصدر عن الخطة التي تقدم وصفها، أو يمكن افتراضاً أن يصدر، ثم دعونا بعد هذا نعقد مقارنة بين شرور وشرور، وبين خير وخير، وبذلك يمكننا أن نختار بين شرين أو بين شرور أكثر — مهما كان عددها — الشر الأقل، وأن نختار بين سمات الخير المتنوعة أحسنها وأفضلها.

وبمناقشتنا المسألة بهذه الطريقة، ولدى وصولنا إلى محصلة من خلال المحاكمة المنطقية، وبعدما قدرنا الخير والشر تقديراً صحيحاً وعادلاً وصادقاً، ألن يقع اختيارنا وفقاً لهذا المنهج على الشر الأقل والخير الأكثر؟ وما من أحد يمكن أن يكون صالحاً ما لم يقيم أولاً بالتخلي عن جميع الشرور، وفعل الخير بعد ذلك، ولهذا دعونا نقدر الخير والشر الذي يمكن أن يصدر عن هذا الجانب وعن ذاك، ومن الممكن أن نعهد بسلطة الحكم والاختيار إلى طائفة الواعظين، وإلى طائفة القلة، لأن رجال هاتين الطائفتين، أكثر من سواهم من بين الناس الأحياء معرفة بأوضاع الجانبين، فبعد الاصغاء إلى الحجج المختلفة من كلا الجانبين، وبعد تفحص جميع الوثائق، والبراهين الاضافية، التي باتوا عارفين بها، إنني أعتقد أن من الممكن أن نحصل منهم على الرأي المعتمد والأكثر

صحة، وبهذه الطريقة — كما أعتقد — يمكننا الحصول على أصح الأحكام المنطقية، وذلك بقدر ما تسمح قوانا البشرية الهشة به.

وبالتمسك بهذه الطريقة من الاجراءات، يبدو من غير المحتمل إيجاد أي شيء، وتقديم أي شيء يثار ضد الكتاب، والرغبات الطيبة لهذا الاقتراح بالتغيير.

ومن المؤكد أن الذين يختارون الالتزام الدائم بمقترحات القانون اللاهوتي حالهم أكثر كمالاً من الذين اختاروا الالتزام بظلاله فقط، ومن المؤكد أيضاً أنه جيد بما فيه الكفاية الالتزام تماماً بظلاله، لكنه شر الالتزام بأقل من المقترحات، وعليه يذنب الذين لا يلتزمون تماماً بهذه المقترحات ويسقطون، ولذلك ينبغي أن لا يختار الانسان موقع الكمال التام، ما لم يعد نفسه قادراً بشكل صحيح على الالتزام به تماماً، ونتيجة لهذا على بني البشر في أيامنا — لا سيما من عنصر النساء — لضعفهن المشهور — أن يختاروا الجزء الأسلم، خشية أنه في غياب الراعي وعصاه سوف تنه الشياه قرب الغابة، فيفترسها الذئب إذا ما دخلت إليها، لكن إذا بقيت في الخارج فسوف تتلقى المدح والمكافأة، وإذا لم تفعل ذلك فسوف تفترس، فأين هو الانسان العاقل والمجرب الذي سيتطوع بإخضاع أولاده وتعريضهم لمثل هذا الخطر وهذه العقوبة؟

وكما قال الفيلسوف: «الحركات الأولى ليست في قدرتنا»، ففي الوضع الحالي للمشروع المرغوب به، من النادر أن يتمكن أي إنسان من مقاومة طغيان الشهوانية وقدرتها، ومقاومة الأقلية أدنى احتمالاً بتعويض أرض الآباء السماوية من انعدام المقاومة من قبل عدد كبير من المحتمل قيامهم بإلحاق الضرر بها، ولو فقط أن الآباء المقدسين — قبل إقامتهم لهذه المصائد — التي صنعوها بمقاصد طيبة، عندما زادت من الذنوب وضاعفتها بحيث تجاوزت تعاليم كل من العهدين القديم والجديد — لم أنهم فقط رأوا آنذاك هذه المصائد كما يرونها الآن، وهي مصائد نصبوها

متطوعين، وكذلك لو رأوا أعداد الذين أدينوا بسببها، وبما أن الطبيعة البشرية نزاعة للابتعاد عن الإيثار، وميالة نحو الاعتداءات، ينبغي الابتعاد عن إغواءات الوقوع بالذنب، وأيضاً عن تدمير قطع المسيح من خلال الابتعاد دوماً عن الذنب.

وبناء عليه يبدو أنه من الموائم تقديم حل لطيف ومساعدات لطوائف الرهبان المتسولين — مع أنهم لا ينشدون ذلك — من ممتلكات الكومنولث لكل من رجال الدين والعلمانيين، وبذلك يتحررون من كثير من الأفعال التي يقومون بها تحت ضغط الحاجة، ويمكنهم بذلك الحصول على الوقت من أجل التأمل، ويتوقفون من الآن فصاعداً عن التسول، فقد أمر الرب بتأمين موارد العيش إلى سبط لاوي، دون أن يكون لهم نصيب في ميراث آبائهم، مع أنهم استحقوا ذلك أكثر من الآخرين، وحبذا لو تقوم الكنيسة بتزويد الرهبان المتسولين بالخبز، والخمرة، وبما يكفي من الألبسة، والأحذية، مع فرصة نيل بعض الأعطيات، فلعل ذلك يكون كافياً لسد حاجاتهم الأخرى، آخذين بعين التقدير، العقل، والحكمة، والخبرة لدى بعض أفرادهم.

ولعله يكفي إتياننا على ذكر هذه المسائل، وطرح الوسائل الوحيدة بالتخطيط بشكل فعال للوصول إلى الغاية التالية، ذلك أن يقوم ذوي العقول الحكيمة بينهم، بتقدير الشر والخير الناجم عن فقرهم، وأن يختاروا الحل الأسلم، ومن ثم يضعونه أمام المجمع في ضوء معلوماتهم، وعندما يتناقش المجمع المقدس حول مستقبل الأمور غير المؤكدة، يمكنه أن يقرر المنهج الأكثر فائدة.

١٠٣ [62]: وإذا ما أخفق المجمع في اتخاذ إجراء تهدئة للصراع الذي تفجر بين ورثة مملكة كاستيل، فقد يعيق ذلك فعلياً استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، وقد قيل بأن الذي يملك المملكة الآن، موقفه غير عادل تماماً، فقد عقد اتفاق بين الابن الأسن للملك — الذي

انتخب امبراطوراً في أيام الصراع — وبين ابنة القديس لويس، ملك فرنسا، وكان قد عقد اتفاق، وجرت تسوية، أنه إذا ما مات ذلك الولد قبل والده، فإن الحفيد ينبغي أن يتولى العرش، وقد وافق على هذا الملك نفسه، وأساقفة وبارونات مملكته، ومراغمة لهذه الاتفاقية، لابل مراغمة للعدالة العامة وللقانون الطبيعي والإلهي، عندما مات هذا الولد، مخلصاً ولدين، قام الأب نفسه، أي جد الولدين، فتزوج ابنه الحي، وبذلك حرم حفيديه، وخرق تعهده، وحنث بعهده وبكلمة الشرف التي أعطاهما، فذلك الابن المتزوج لا حق له شرعياً بالمملكة، وهو متمسك بها بشكل مضر لخلاصه الآخروي ولخلاص المؤيدين له، وفي ذلك إيذاء أيضاً إلى الوريث الحقيقي.

وهذا الذنب العظيم، واضح من خلال جميع أدلة الحقيقة ذاتها، وهو مشاهد بوضوح من قبل جميع الذين يقفون إلى جانب المغتصب، ولا يمكن لأي منهم ادعاء الجهل، ولهذا عمل والدهم الروحي، الذي هو غير جاهل بالحقائق، ومن واجبه تقديم حل، خشية أن يطلب دمهم من يديه، وربما يمكن إنجاز هذا بسهولة، ومن دون أي اضطراب، باتهام المغتصب بذنوب الاغتصاب العظيم، وبأنه يقوم بمراعاة المسلمين الذين يتولون مملكة غرناطة بتفويض منه، مقابل الجزية، والذين غالباً ما يقومون بقتل المسيحيين، ويمكن للمولى البابا أن يقول لهذا الذي هو تحت هذه التهمة الشديدة، والمهدد: «من أجل صالح الأرض المقدسة، نحن نرغب بمختلف الوسائل أن تقيموا السلام فيما بينكم».

ويبدو أن هذا الخلاف من الممكن فضله بكل سهولة: بأن نجعل الحفيد الأول ولادة يتولى مملكة غرناطة، وأن يتولى أخاه مملكة البرتغال، أو مملكة أخرى من الممالك الكثيرة التي هي بيد المغتصب، ويمكن للمغتصب الاحتفاظ شخصياً بمملكة كاستيل، بشرط أن يقوم بما لديه من قوات من الفرسان والرجالة بتقديم العون إلى مملكة غرناطة لطرد

جميع المسلمين منها، ولمقاومة المنفيين أينما تطلبت الحاجة، وعليه الالتزام بهذه الشروط تحت تهديد فقدانه لمملكة كاستيل أيضاً، وسوف تكون خطة مفيدة القيام بإقناع الملوك المجاورين لتلك البلاد، وأقصد بذلك ملوك أراغون، ونافار، ومايروكا، والحكام الآخرين حيثما كانوا في إسبانيا، بمساعدة ملك غرناطة الجديد، والقيام بمحاصرة المسلمين والضغط عليهم من كل اتجاه، وبذلك يمكن طردهم بكل سرعة، وإثر هذا يترك الآخرون من ملوك إسبانيا وأمرائها، ملك غرناطة ليقوم بالدفاع عن بلاده، ويقومون هم، مثلما هو مطلوب من الآخرين، بالعبور إلى الأرض المقدسة، وتقديم مساعدة كبيرة هناك، وهذه الوسيلة من الممكن للانغذوك حشد جيش كبير، يمكنه العبور إلى سردينيا، ليحررها من فردريك صاحب أراغون، الذي يتوجب عليه وقتها إعادة مملكة صقلية إلى ملكها الشرعي.

١٠٤ [63]: ومن أفضل الطرق لتنفيذ هذا المشروع القيام بتنظيم أربعة جيوش، تتوجه ثلاثة منها وتسافر بحراً، أما الرابع وهو الأكبر فيتوجه عبر الطريق البري، وبذلك يحذو حذو شارلمان، والامبراطور فردريك الأول، وغودفري دي بولليون، ولقد قام أعداء الإيمان بحصار عدة أماكن والتضييق عليها، ولهذا فإن قواهم متفرقة، ولذلك من الممكن طردهم بسرعة أكبر، ومن المحتمل أنهم عندما يسمعون بأخبار حلف السلام المذكور من قبل، وأنه قد أقيم من أجل محققهم، وأن هناك حشوداً عظيمة من الناس تزحف ضدهم وسوف تزحف، وقتها من المحتمل أن يتخلوا عن طواعية عن جميع أرض الميعاد بلا حرب، وإذا ما فعلوا هذا من دون تدمير للقلاع ولأماكن السكنى الأخرى، ومن دون سلب الكنائس ونهب ما فيها من آثار وآنية مقدسة، يمكن إعفاءهم من نيل موت عنيف، والعكس سوف يكون إذا ما أبدوا أية مقاومة، فوقتها سيجري سحقهم كلياً، ولن يترك لهم مكان في البلاد.

وبعد هذا، سوف يحسن الأمراء صنعاً، في أن يتركوا في الأرض المقدسة قوة كافية للدفاع عنها، وأن يعودوا عبر طريق بلاد الاغريق، فوقتها سوف يكونون — بناء على نصيحة الكنيسة الرومانية — على استعداد للقتال بشدة لصالح اللورد شارل أوف فالويس، ضد المغتصب غير الشرعي باليولوجوس [أندرونيكوس الثاني — ١٢٨٢ — ١٣٢٨]، ما لم يكن على استعداد للتخلي عن السلطة، وينبغي أن يكون هناك اتفاق سلفي، بأن يقوم اللورد شارل — بعد الحصول على النصر، وبعد تملكه للامبراطورية الاغريقية — بمنح فرصة لمعونة الأرض المقدسة، والدفاع عنها، كلما قامت الحاجة، لأنه سوف يكون الأقرب إليها من غيره من الأمراء، وعلى هذا سوف يكون حمله أخف بكثير، من حمل الأمراء الأبعد مسافة منه، كما سيكون مفيداً للملك ألمانيا، ولجميع الحملات المستقبلية المسيحية التي سوف ترسل لمساعدة الأرض المقدسة، حيث أيضاً من الممكن تنظيمها بشكل أكثر فعالية.

١٠٥ : وعندما — بنعمة من الرب — تكون هذه المشاريع قد نفذت، سوف يكون الكاثوليك من العقلية نفسها قد صاروا ممتلكين لشاطئ البحر المتوسط كله، الممتد من الغرب طوال الطريق إلى الشرق على الطريق الشمالي، مع الجزء الأعظم المصاقب لأرض الميعاد في الجنوب، ووقتها لن يكون بمقدور العرب الإزدهار بشكل مادي، ما لم يشاركوا مع الكاثوليك في تجارات منتجاتهم، وينطبق هذا على أحوال الشعوب الشرقية وعلى منتجاتها.

١٠٦ [64]: ويتوجب أولاً فحص هذه الخطة المتصورة من قبل المشرعين المسيحيين مع نائب المولى يسوع المسيح على الأرض، وخليفة المبارك بطرس، أمير الرسل، وسوف تصل إلى حد الكمال بتوجيه من الرب الذي هو قائد الجيوش، ولعله يرضي صاحب الجلالة الملكية المجربة، فيتلطف بعد انتهاء هذه الحروب بنجاح، أن يطلب بصنع هذه

الأشياء، وأن يشرف على تنفيذها، مع الأفكار الإضافية التي - قد تأتي إلهاماً من ينبوع الحياة، الذي عنه تصدر جميع المباركات.

ويبدو من المرغوب فيه، من أجل تنفيذ هذا المشروع، الالتماس من البابا أن يعقد مجمعاً عاماً على هذا الجانب من الجبال، من أجل تفحص هذه المسائل، وعليه أن يدعو إلى هذا المجمع الأساقفة، والأمراء الكاثوليك المطيعين له، لا سيما الملوك والآخرين الذين لا يعترفون بسيد لهم على الأرض، دون أن ينسى الباليولوجوس المغتصب لعرش القسطنطينية، ومغتصب مملكة كاستيل، وولدي أخيه اللذان يناضلان في سبيل العرش، وملك ألمانيا وناخبه، فمن هؤلاء سوف يتلقى المشورة، والعون، والاقتراحات المساعدة في قضية الاسترداد، والاصلاح، والحفاظ على الأرض المقدسة، وكذلك حول كل ما يفيد الكومنولث المسيحي العالمي.

وبعد تحسين هذا الكتاب الصغير من قبل العقول المفكرة لخيرة الخبراء من قادة الحرب، ينبغي تقديمه إلى المولى البابا، من قبل رجال عقلاء جداً، وخبراء بالشؤون الانسانية، يمكنهم الرد على جميع الاعتراضات، وتجنب تحريضات ملائكة الشرور، ويتوجب اتخاذ التدابير التي تضمن أن يعرض فقط على الخبراء والمستشارين المقربين من السيد البابا، لأن من المؤكد أن هذا الكتاب التقوي الصغير، سوف يلقي - بتحريض من الشيطان ومن حشده الشائن - كثيراً من الخصوم الذين لا قيمة لهم، والذين سوف يعارضونه، وسوف يقاتل الشيطان مع مؤيديه بشراسة ضد هذا الاندحار، الذي هو أعظم ما عانوه منذ حادثة آلام، وقيام الكلمة المجسدة، ولا أعتقد أن الطبيعة البشرية لأي إنسان حي مستعصية على مثل هذه الإثارات ما لم تلق الدعم من أبي الضياء الأبدي، من خلال ثبات ونشاط قدرته التي لا حدود لها.

وسوف يلاقي هذا المشروع، الذي هو بحدود طبيعة الأشياء الممكنة،

النجاح، إذا — بنعمة من الرب — ما تعاون بحرارة، من أجل تحقيق هدف هذه الخطة، ولدى تنفيذها، الوصي الرئيسي على سلامة الكومنولث هنا على الأرض [البابا]، وأكثر الأمراء خبرة في فن الحرب، وفي استخدام وممارسة الأعمال العسكرية [إدوارد الأول]، وذلك من أجل إطالة عمر، ليس فقط الحياة الروحية بل أيضاً الحياة الدنيوية، ومن أجل الرغبات السعيدة للانجاز لدى هذين الاثنين اللذان يحافظان بتقوى عظيمة على مصالح الأرض المقدسة، ويعتنيان بها، وسط كثير من مشاغلها واهتماماتها، وينبغي على كل واحد يهمل في سبيل هذا الهدف الرائع الاستمرار على الاعتماد بقلوب مؤمنة تقية وبصوت واحد، على الخالق الأعلى للحياة، الذي من خلال نفوذه وعنايته وحفظه تعيش جميع الأشياء وتستمر تبعاً لطبائعها، وبلا استمرار بالأخذ بالنهج الذي منحهم كل الفضائل التي يمتلكون.

١٠٧ [65]: وبعد الفراغ من هذه المسائل، تقفز بحدة إلى الذهن حقيقة أن الناس سوف يشعرون بعدم الرضا، وسوف يتمتمون، لأنه لا في الماضي ولا في الحاضر، بدا أن الهبّات التي منحت إلى الأرض المقدسة مع المبالغ الأخرى التي جمعت من أجل عون الأرض المقدسة باسم الداوية والاسبتارية، وبطرق أخرى متنوعة، بدا بوضوح أنها لم تستخدم لصالح ما جمعت من أجله، ويستحسن إلغاء، أو توزيع المنح التي أديرت بإهمال، بشكل نهائي.

ومن أجل إيقاف هذه المخالفات، سوف يكون مفيداً إقامة صندوق تبرعات عام في الكنيسة الكاتدرائية لكل أسقفية، أي إنشاء غرفة خزينة، يجري فيها حفظ الأموال التي كرس لهذا الهدف، وحيثما توفرت الحاجة لأية مساعدة، من الممكن تقديم الأموال ومنحها إلى المقاتلين الذين يستعدون للذهاب إلى تلك الأرض، ويكون ذلك بناء على توصية من الأسقفية المحلية، ومن إدارة المركز المتقدم

الذكر، والمقصود بالمقاتلين هنا، المقاتلين الذين ينتمون إلى الأسقفية، أو إلى أسقفيات أخرى، وهم على نية عبور البحر، وينبغي أن يبقى أعيان الناس في تلك الأسقفية، أو المقاطعة، أو المملكة، على دراية بالأمور، وأن تجري استشارتهم مع الأسقفية، وإذا ما جرى تنفيذ هذه الإصلاحات، سوف يجري تقديم المزيد — لا بل الكثير الكثير — من الهبات إلى المركز المتقدم الذكر، وينبغي إخراج الديون المستحقة له إلى النور، وهي الديون التي كانت قد فقدت من قبل نظراً للسكوت عنها، وبالنظر لتزايد الأموال — سوف يمكن العثور على المقاتلين الجاهزين في كل مكان، وعندما تتوفر الحاجة إليهم.

ومن أجل تحقيق نتائج أكثر جاهزية، ينبغي اتخاذ قرار داخل المجمع يقضي بأن يعمل الأساقفة المحليون، وغيرهم من الأساقفة، والمبشرون، والـ Minorites، على حث وإقناع كل الناس مهما كانت مشاربهم في الحياة، على تطويع الناس البارعين من كلا الجنسين المفيد للأرض المقدسة، ومن حيثما جاء هؤلاء الناس، يجب إرسالهم إلى السواحل مجهزين بجهاز حسن على حساب الذين طوعوهم، أو إذا تعذر ذلك ليكن على حساب بعض المحسنين الأتقياء، وهبات أخرى، ولسوف يجري إرسالهم عبر البحر على حساب المركز المتقدم الذكر، وينبغي إرسالهم على شكل مجموعات في كل مجموعة مائة رجل، قد ارتدوا زياً موحداً، والأعلام فوق رؤوسهم، والأبواق تصدح أمامهم، وبهذا يمكنهم الذهاب بشجاعة وحماسة، وبذلك يؤثرون على كثير من الآخرين حتى يلحقوا بهم، ويتوجب على الذين ينتمون إلى المدينة نفسها وإلى الأسقفية ذاتها، الاحتشاد في وقت واحد ومكان واحد، وفي مكان واحد فيما بعد للذين هم من الاقليم الواحد نفسه، وعلى الذين معهم زوجاتهم، الاحتشاد في جماعة واحدة، وينبغي أن يكون لكل جماعة ضابط رئيس واحد، يقدم الجميع إليه طاعة مطلقة.

ولإذا ما كان لدى بعض الذين يودون العبور بعض الأطفال الصغار، عليهم إرسال القابلين للتعليم منهم إلى المركز المذكور حتى يتعلموا فيه على حسابه، وعندما يكملون تدريباتهم ويتعلمون، يمكنهم اللحاق بآبائهم ومن المتوقع أن تكون مختلف المقاطعات، والمدن، والأماكن متشوقة للاستيلاء على المناطق التي ستمنح لهم في الأرض المقدسة، وأن ترسل عدداً كبيراً من المستوطنين لكي يستولوا عليها ويستقروا بها بكل سرعة، ومن أجل أن يكون هؤلاء كافين للدفاع عنها، وينبغي أن يكون جميع الذين أرسلوا إلى هناك مدربين، حتى يكونوا قادرين على الفور القتال بكفاءة كجنود رجالة.

١٠٨ [66]: ولدى توزيع المدن والمناطق، سوف يكون مفيداً عدم نسيان المبادئ التالية، وذلك من أجل الصالح العام، والمعني بهذه المبادئ أن يكون هناك اتفاق في داخل المجلس من البداية، أن يجري تخصيص المدن الحدودية والحصون القائمة على الجبهة في الأرض المذكورة، إلى الرجال الأعظم نشاطاً، والذين اعتادوا في مواطنهم على القتال [ضد المسلمين] من أمثال الإسبان وآخرين كثير، وبذلك فإنهم بقتالهم من وراء الدفاعات ضد العدو — بقدر ما تتوفر الحاجة — يمكنهم حماية حدود الأرض المقدسة، ومدنها، وحصونها، وأن يكونوا مستعدين دوماً لاستدعاء النجيدات من الآخرين، إذا ما اقتضت الحاجة، وهكذا عندما تحاط الأرض المقدسة بسياج من المقاتلين الشجعان، من الممكن الدفاع عن حدودها بشكل فعال وتتمكن المناطق الداخلية من الازدهار، ويتوجب أن تحكم الأرض المقدسة — بمعونة الرب — بعناية وتقوى فيما يتعلق كلياً بالسيفين: الروحي والديني، وباحترام الأماكن المقدسة كما ينبغي، وبإجلالها، وبإقامة القداسات فيها بشكل متواصل، سوف يكون من الممكن تهدئة غضب مخلصنا، الذي برحمته غير المحدودة، ارتضى أن يعاني الموت جسدياً هناك، من أجل

إنقاذ الجنس البشري.

[67]: إنه لمن الواضح، ومما يمكن البرهنة عليه من الكتابات المقدسة، وبوساطة حجج دامغة، أن إصلاح الأوضاع الخلقية والقيم في الكنيسة العالمية ضروري، وذلك إذا ما أريد إيقاف الحروب، واسترداد الأرض المقدسة — ذات السحر الخاص الذي تبرهن الكتابات المقدسة صحته — وإسكانها من قبل المسيحيين.

إن ذنب إنسان واحد هو سبب ضعفه، ومن خلال التكرار، سيكون سبب موت المذنب، ومن الممكن البرهنة على هذا من خلال كلمة الرب عندما قال إلى الإنسان المريض: «لا تخطيء أيضاً لئلا يكون لك أثر» [يوحنا: ٥ / ١٤]، وبوساطة الفتوى المبينة عليها، وللسبب نفسه إن ذنب مدينة، أو ذنوب شيوخها هو سبب الخلافات، والحروب، والموت، والشيء نفسه ينطبق على ذنوب المناطق، والممالك، والامبراطوريات، لأنه مهما كانت العلاقة بين جزء وجزء، كذلك العلاقة بين كل وكل هي نفسها، والعكس هو صحيح، وحيث تتوفر الأسباب نفسها يتوفر الحق نفسه، وحيث يكون السبب نفسه، يكون التأثير نفسه، وذلك حسبما تعلن الشرائع، ويناضل منطق الفيلسوف في سبيله، وحسبما قال الرسول: «لأن كل ما سبق فكتب كتب لأجل تعليمنا» [رومية: ١٥ / ٤]، ونحن نرى أن الكتابات المقدسة، التي هي وسائل الفهم، الذي هو، إيمان، تحتوي في سفرى المكابيين أنه لمدة تزيد على سبعين سنة كانت هناك ذنوب كثيرة، وموت كثير، وأحزان عظيمة، كلها قد حدثت من أجل الخير، بسبب ذنوب الناس الأشرار، فكيف يمكن لرئيس الكهنة، الحاكم على الكنيسة كلها، الشاغل لكرسي بطرس، نائب مولانا يسوع على الأرض، الذي ناضل بحماس من أجل خلاص المذنبين، كيف يمكن له أن يفكر أن الأرض المقدسة يمكن استردادها وإسكانها من قبل المذنبين وذلك في الوقت الذي كتب فيه

من قبل النبي: «الأماكن لا تمنح القدسية للناس، لكن الناس يمنحون الأماكن القدسية»؟.

أولا يرى أن الكتابات المقدسة، التي تمتت الحروب، والوعاظ الذين يعلنون هذا بالطول وبالعرض، أنهم غير-مؤثرين الآن، كما كانوا في الماضي؟ ولو أنهم كانوا مؤثرين الآن وفيما بعد، أو لن تكون هذه الأمثلة نادرة جداً، لو أن جميع العالم الخاضع له أخذ بعين التقدير؟، أولاً تظهر أعداد لا تحصى من إيضاحات الماضي وتجاربه منذ بداية خلق الدنيا، وتري وتبرهن — ما حرمه الرب — على بصيرة النظام الذي في الرؤوس الرئيسية لمثل هذا العدد من الأعضاء؟ ولسوف تستمر هذه الحالة المتردية من الأوضاع، ما لم يسعى في سبيل — ويحقق بأقصى سرعة ممكنة إيجاد — سلام صحيح، وكامل ومستمر، وإصلاح لأوضاع الكنيسة العالمية، وجميع كومنولث المسيحيين الخاضعين له، بحكم كونه أبوهم الأعلى، ولقد جرى تقديم خطة محكمة إليه، ومع أنها غير كاملة ومختصرة، من الممكن إيصالها إلى حالة الكمال من قبله، أو أن يقدم بإلهام رباني خطة أخرى أفضل منها،

١٠٩ [68]: يتوجب على الكاهن الرئيس، الراعي لجميع الناس، بحكم واجبه المتقيد به، أن يؤسس، وأن يضاعف جميع الروابط الممكنة لإتمام السلام، بين أبنائه، فذلك سوف يليه قيام سلام عالمي دائم، ومن الممكن البرهنة على الصحة المطلقة لهذا الاقتراح، ليس فقط بوساطة الاصلاحات اللاهوتية، بل أيضاً بوساطة الاصلاحات الفلسفية، لأن من المعروف أن الفلاسفة يعتمدون على القانون الطبيعي، ويرفضون القانون الموسوي، الذي منح روحياً إليهم من قبل بني إسرائيل، وبقياهم الأمور منطقياً للوصول إلى محصلة ضرورية، وبإقامتهم مناظرهم على السبب والتأثير، توصلوا إلى محصلة لا يمكن دحضها، بأن هناك فاعل أو رئيس، هو الذي يتولى تحريك جميع الأشياء لكنه لا

يحرك من قبل أحد منها، وهو المسبب لجميع الأشياء، وهو نفسه غير مُسبب، قد حقق وجوده فقط من خلال ذاته، وهي ذات خيرة، وبتوزيعها لخيراتهما — وليس بشكل آخر — جعلت كل الأشياء تتسلم الخير منها وتشارك به، ومن جوهرها جاءت جميع الأشياء الخيرة والصادقة، والشئ نفسه ينطبق على جميع الفضائل التي قدرت في المحصلة، وندعو هذا الرئيس والمسبب الأول باسم الرب.

وفي أثناء حديث الفيلسوف في كتابه On meteors عن الرئيس، وحيث اقترح سبباً لتكوين العناصر قال هو الرب، وقال: «هكذا أوجدهم الرب الرائع والعظيم»، وقال في كتاب «حول السماء والأرض»: «لا يوجد شيء خلف السماء الأولى، غير مكان إقامة الرب، والأرواح، والفضيلة، والمجد إلى أبد الأبدين»، وأعتقد أن الرسول جيمس هو الذي قال عنه: «الذي معه لا يوجد تغيير، ولا أثر للتبديل»، والآن إنه هو الملك وصانع السلام ووالده، والشيطان هو والد وصانع الخلافات، والآثام، والكذب، ويتبع هذا بالضرورة أن جميع محبي السلام، والناس ذوي الفضائل، مهما كانت طبيعة الفضيلة أو سموها الخلقي، التي حصلوا عليها أو تمثلوها، يدعون أفاضل لأنهم شركاء في فضيلة الرب نفسه، وقد وصلوا إلى هذه الغاية قريباً أو التصاقاً تبعاً للدرجة التي شابهوه فيها، وشاركوه فيها بطبيعته، التي هي غاية بالبساطة، ومع هذا تحتوي وتتضمن جميع الأشياء ليس بسبب أنها كاملة، بل لأنها الأعظم كمالاً، والآن بسبب الاسم نجد أن الكمال هو الذي لا ينقصه شيء، ولهذا السبب القوي إن غاية الكمال، فريدة، لأنها تنطبق على واحد فقط، وذلك حسبما جاء في تعريف متفوق في الكتاب الخامس من «الميتافيزيك» «يحتوي الكمال على كل شيء دونما نقصان».

ولهذا اعتقد جميع الفلاسفة أن جميع الفضائل في الرب في جوهره نفسه، والفضائل معه، وتصدر عنه، ويتشارك بها الناس من خلال

شبههم به، لكن الفيلسوف يقول: «الفضيلة عادة ليس من السهل تغييرها»، ونجد شهادة على صحة ذلك في الكتابات المقدسة حيث جاء «في حين يقارب الجميع الفضائل من أجل المكافأة، الذي يحافظ عليها وحده يتوج»، فقليلة هي المنفعة التي يحصل عليها المخفق في صنع أعمال جيدة بما أن المقترف في نقطة واحدة يعد مذنباً بالجميع.

ليقم أبو الأرواح جميعاً، الرسول الرئيس، بقراءة كيف أن الناس، منذ بداية الخليقة حتى الوقت الحالي، قد حرضوا بكل سهولة وأثروا نحو الآثام والحروب، فهل يرغب بجعل جميع الكاثوليك يعيشون بسلام، وأن يكونوا بالتالي أبناء الرب، وأن يتعدوا عن الخضوع للشياطين؟ وبما أن الوعظ والعقوبات المعتادة غير فعالة، عليه أن يمعن التفكير، بحكم الوظيفة المسندة إليه، وأن يسعى في سبيل سلام شامل، ثابت ومتين الأحوال، في كل مكان من العالم، سلام يمكن أن يستمر وأن يعيش أبداً، وعليه أن يقوم بتثيت العقوبات من أجل خرق السلام، وأن تكون عقوبات يخشى منها، لكن أن تكون عملية، ونافعة، وقليلة الأذى، بالنسبة لاسترداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، وأن تفيد بالوقت نفسه كمدكر ومحذر دائم.

[69]: إذا كانت عقوبة النفي الدائم، وفقدان جميع الممتلكات سوف تكون مخشية أكثر من أي شيء آخر، لأنها سوف تطبق ليس على فاعلي الحروب بل على آبائهم، وأولادهم، وزوجاتهم، وإذا كانت ستزيد من تقديم الرغبة المقترحة لمعونة الأرض المقدسة، دعونا إذن نختار رباط السلام، نظراً لتفوقه على غيره جميعاً، وإذا ما وجد رباط آخر أفضل، ليتم اختياره، وكان بريسشان Briscian [النحوي ٥٠٠ ق.م] قد قال: «إنني أفترض أن ما من شيء في النوازع البشرية يمكن أن يكون كاملاً من جميع الجوانب»، وأعلن الفيلسوف العظيم في كتابه «السياسة»، أن هذا الذي ينبغي أن يفعل، وذلك عندما قال: «لأن ما ناله الناس من

معلومات ومن قناعات حول ما هو جيد وما هو عادل، لم تكن كافية، لقد وجد أنه من الضروري أن يتأسس في الدول قوة القسر لدى القاضي، من أجل أن يفعل الناس ما هو جيد وعادل لجيرانهم ولعاصريهم، والذي قاله الفيلسوف نفسه في كتاب الأخلاق ويتمشى مع هذا هو: «لو أننا جميعاً أناساً عادلين (شرح: من الواضح أنه أراد الشعور الداخلي بالعدالة، الذي هو هبة وكمال العقل المنطقي) لما احتجنا إلى العدالة، (شرح: من الواضح أن العدالة في العلاقات الخارجية هي إجبارية من خلال القوة العسكرية)».

وهكذا لم تستطع لا أقوال الكتابات المقدسة، ولا وعظ الواعظين المستخرج من الكتابات المقدسة، ولا النحيب المتدفق، ولا صراخ الوعاظ، ولم تنجح في إيقاف الحروب المتوالية للكاثوليك، مع الموت الروحي والمادي لعدد كبير من عظماء الرجال، الناجم عنها، فلماذا لا يتبرهن أن اقتراح تقديم العون إلى الأرض المقدسة في النهاية هو مخرج جديد لاستخدام القوة العسكرية، وهذه عدالة من الضروري فرضها، كما هي، حسبما رأينا من الفرضيات الموضحة، ومما شهدت به الكتابات المقدسة إنها موجودة منذ بداية الخليقة؟.

وهذا طرح من المستحيل إجابته، متحدثين أخلاقياً وأديباً، لأن «المناقشة ينبغي أن تكون متوافقة مع القضية قيد المناقشة»، فهذا ما قاله الفيلسوف، وجرى عرضه في القانون المدني، وعلى هذا الأساس قال الفيلسوف: «يخطئ الذي يطلب برهاناً واضحاً من الكلام المنمق، وحجة منطقية من الهندسة»، ولدى استخراج برهان ما من خلال الأسباب، من الضروري الاستخلاص والوصول إلى نتيجة، والنتيجة هي «عرف»، إنما لدى الحديث بأدب من خلال فرضيات منطقية نحن نستخرج «حسناً» من الماضي والحاضر نحو المستقبل، فلقد قال الفيلسوف: «يحدد أي شيء بأنه جميل جداً عندما يعطى تحديد الأشياء

بشكل متوافق مع السمات الظاهرة إلى جميع العقول»، ونقرأ في القانون المدني: «في القضايا غير المؤكدة هناك مكان للحدس»، ويفترض أن ذلك ليس في جميع القضايا بشكل مطلق، بل فقط في القضايا المنطقية والممكنة.

ونحن نرى أنه وفقاً للسبب العادي المتوفر للطبيعة الناس الفاسدين وميولهم نحو الشر، والانغماس باللذات، والشره هم دوماً بازدياد، وذلك في مقابل أننا نجد أن التقوى، والفصاحة، وتأثير معارف الوعاظ الذين يمتقنون الحروب دوماً في نقصان، وإذا لم تتمكن تقوى، ومواعظ وفصاحة الآباء المقدسين من وضع حد للحروب المربعة للكاثوليك، كيف يمكن للأب الرسولي أن يفترض أن بلاغة ومواعظ رجال الكنيسة الحاليين والمستقبليين، سوف تتمكن في المستقبل من وضع حد للحروب، وللانغماس باللذات وللشره الذي تسببه الحروب؟ وإذا لم يمكن إيجاد بعض العقوبات الأخرى التي من الممكن أن تكون مخيفة أكثر، وأعظم نفعاً، ينبغي تطوير هذه العقوبة ووضعها قيد التنفيذ، فبوساطتها سوف يزودنا ملك السلام بفضله ورحمته برجال عقلاء ومجربين، وبالقداسات المستمرة، وبالصلوات الدائمة المقدمة من الكنيسة المسكونية، ويمكن للمجمع المقدس للأساقفة، والأمراء أن يجتمع من أجل مناقشة، وإكمال، وتعديل، وتغيير هذه المقترحات، بشكل موائم جداً في طولوز، وذلك تفضيلاً لها على أية أماكن أخرى.

[انتهى هنا جزء الرسالة الذي جرى توجيهها إلى أدوارد الأول، وجرى توجيه الجزء التالي إلى فيليب الجميل].

- ٣٣٥٥ -

القسم الثاني

استرداد الأرض المقدسة
القسم الثاني

١١٠ : أرسلت الوثيقة المتقدمة إلى السيد ملك إنكلترا، مع رسائل مختومة، تلفت انتباهه باختصار إلى فوائدها في المسائل الروحية، وتحته على أن يقوم بفحصها باهتمام وبسرية، من قبل رجال حكماء ومخلصين له وللرب، ويمكن أن يكونوا من المبشرين أو من القلة « Minorites »، ومن الممكن حذف كل ما ينبغي حذفه أو إسقاطه، وأن يضاف كل ما يبدو موافقاً إلى جلالته الملكية المجربة والحكيمة، وإلى مستشاريه العقلاء، الذين بعقلانية سيطلب منهم — بفضل من الرب — وسيعهد إليهم بمهمة الفحص، والتصحيح، والتقويم، وعليه بعد هذا أن يقوم من دون تأخير بتحويل هذا المشروع، مع مشورة كاملة من قبل سفراء مخلصين، وعقلاء، ومجربين إلى السيد البابا، وأن يكون هؤلاء السفراء سريين، والغاية من هذا الإرسال أن يستفيد منه المجمع الذي سوف يعقد وفق طريقة جرى شرحها بما يكفي في الوثيقة المتقدمة.

١١١ [70] : لدى الكاتب موهبة ربانية طبيعية بالميل نحو سرعة الخاطر، التي هي — تبعاً للفيلسوف — البراعة في إيجاد المصطلحات الوسيطة، أي أسباب الأشياء التي ما زلنا نراها عقلياً فقط، ولسوف يذكر فقط وبشكل محدد المنافع التي ينبغي أن تحصل من الاقتراحات المتقدمة الذكر، وترتبط بالمشجعين الرئيسيين لها، وأعني بذلك أصحاب السيادة: البابا، والملك الفرنسي، وأخوانه وأولاده، وملكي صقلية وألمانيا، وفردناند صاحب إسبانيا وأخيه [ألفونسو].

وعندما تنتهي الحروب بالوسائل المقترحة هنا، وعندما من جهة أخرى يعهد — مقابل عطاء سنوي مضمون — بحكومة البابا، وبممتلكاته، وبما يشغله بالأمر الديني، بشكل دائم إلى السيد ملك فرنسا، لتدار من قبل أخوانه وأولاده حسبما يراه مناسباً، وعندما تتوقف المؤامرات المؤذية للرومان واللومبارد، وقتها من الممكن جداً أن يكون السيد البابا قادراً على أن يتمتع بحياة سليمة طويلة في موطنه الأصيل،

الذي هو مملكة فرنسا، وأن يمتلك الوقت الكافي ليكرس انتباهه إلى حكم الأرواح فقط، ويتجنب بهذا أجواء روما العاصفة، التي لم يعتد عليها منذ ولادته، وسوف يكون في هذا منفعة لا يمكن تقديرها، وهي دائمة، إلى جميع أصدقاء السيد البابا، وجيرانه وأقربائه، وبشكل خاص إلى مملكة فرنسا كلها، بما أن رجال الدين الطليان لن ينالوا دخل المصالح الغنية العائدة إلى الكنائس الفرنسية والألمانية — حسبما كانوا في الماضي — من أجل بناء قلاع لأنفسهم ولأقربائهم، بسلب الكنائس حتى على حساب القداسات الربانية، كما أنهم لن يتابعوا الاشراف على هذه المصالح الغنية، التي لن يستحوذ عليها بعد الآن رجال الكنيسة الكبار، عوضاً عن الفرنسيين، حسبما كانت العادة من قبل بسبب دهاء الطليان وبراعتهم الطبيعية، وهؤلاء الطليان راغبون في تشاغلهم أن يدوسوا على إنسانية الفرنسيين، ولقد حاولوا أن يقوموا بما لم يسمع به قط من قبل، والادعاء بالحق الديني لحكم المملكة الفرنسية، ولحكم أميرها الأعلى، يريدون من وراء ذلك تعريض هذه المملكة التي تعيش في سلام وفي وئام إلى فتنة دائمة، وعصيان مستمر، ولحسن الحظ خمدت العاصفة التي ثارت مع هذه التطلعات، لأن ملك السلام منح وفاقاً عظيماً، وأخذ هذه الخلافات.

وبما أن البابا الروماني قد أساء استخدام سلطاته، وفعل ذلك بسبب الرومان، إنه لمن الأفضل والأصح، ومما يتوافق كذلك ويتماشى مع رغبات ومراسيم الآباء المقدسين، أن يقوم الرومان في سبيل حفظ المجد البابوي وزيادته بالسماح — ولو مكرهين — بأن يجري التمتع بهذا الشرف العظيم بشكل دائم من قبل أفراد لن يكونوا راغبين بالسرقة، على حساب الفخار الأساسي لأعظم الأمراء المسيحيين، الذي لن يتجاوز الحدود التي أرساها الآباء المقدسون، والذي سوف يسمح لأي قيصر أن يحكم في مملكته، ولأن يدير ممتلكاته وأن يتمتع بها، وقد علمنا

مخلصنا هذا وقال بوجوب فعله، حسبما جاء ذلك موثقاً في الانجيل، فهو قد قام حتى يتجنب الخلاف، بتوجيه بطرس لدفع الضريبة المستحقة عنه شخصياً وعن بطرس، وقد أخبر بطرس بالمثل التالي ليبقى إلى خلفائه حيث قال: «أعطوا لقيصر الأشياء التي لقيصر، وللرب الأشياء التي للرب» (متى : ٢٢ / ٢١)، وعندما قام بغسل أقدام حواريه قال: «لأنني أعطيتكم مثلاً حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً» (يو حنا : ١٣ / ١٥).

وبسبب انفعالات ما قد طرح، قد يواجه كاتب هذه الكلمات معارضة، وقد توقع هذا عندما تعرض لهذه المسائل في كتابه «حجج لا تدحض»، الذي كتبه في باريس في يوم السبت الذي تقدم على يوم الأحد الذي شهد نشر مرسوم البابا الظالم [Ausculta Fili]، وأرسل في اليوم نفسه إلى صديقه [رتشارد لينيفو] الذي هو الآن أسقف بيزير Bezier [في ذلك الكتاب المذكور] يقول بأن القاضي الأعلى، الخفية قراراته، قد قضى بوسائل مشاحنات الرومان، أن يسند منصب الخبر الأعظم إلى رجل يمثل هذه الأخلاق العالية، حتى يتم من خلاله سحب هذه السلطة التي توجب سحبها منذ زمن طويل من أشخاص أشرار بسبب ذنوبهم وطغيانهم، وأن يبقى مع آخرين ليسوا متشوقين لسرقة حريات الآخرين وانتزاعها، وبعد هذا عليهم أن يدركوا أن السلطة التي منحت على الأرض إلى بطرس أمير الرسل، قد سحبت بهذه الطريقة منهم بسبب ذنوبهم البغيضة، لأن الملك شاول عندما جاء تعيينه بأمر الرب، ومسح ملكاً، لم يصغ إلى الرب، ولم يأخذ بأوامره، بل استخدم منطق، عوضاً عن منطق الرب، أو منطق الكتابات المقدسة، فكان أن تلقى أمراً خاصاً من الرب بفقدانه مملكته.

ويصدر الرب الآن مثل هذه الأوامر من خلال الكتابات المقدسة، ومن خلال تفاسيرها، ففيهم، وبوساطتهم ينبغي أن ننشد الأسباب

المعقولة والممكنة لجميع المحصلات التي ينبغي أن نراعيها، ويتماشى هذا مع ما قاله الرسول: «لأن كل ماسبق فكتب كتب لأجل تعليمنا» [روما : ١٥ / ٤]، فلماذا غالباً ما نقرأ في الكتابات المقدسة نصوصاً تبين كم هي عظيمة ومتنوعة الشرور التي وقعت بسبب مختلف الذنوب، وإذا لم نخف من أمثلة مثل هذه الأحداث، من اعتراف ذنوب فإن الشرور، لا بل الأسوأ منها، سوف يتبع؟، لأنه كما قال الفيلسوف: «إذا كنا جميعاً عادلين (أي بمعنى الشعور الداخلي بالعدل) سوف لن نحتاج إلى العدل (أي بمعنى العدل الخارجي)»، وبسبب الذين لم يمنعهم الخوف من الرب ولا حبه من الشر، والذين لم يرغمهم على الابتعاد عن الشر، العصا الفولاذية مطلوبة لهم أحياناً، وهي التي بعث بها الرب — حسبما جاء في كلماته: «أنت سوف تحكمهم بقضيب من حديد» [المزامير : ٢ / ٩]، والذين لا يصغون إلى أسباب مثل هذه القضبان، هم يشبهون فرعون بقسوة قلبه، ولهذا سوف يعاقبون دنيوياً، وفي النهاية أبدياً، وذلك إذا لم يثوبوا إلى رشدهم، ولهذا يتوجب علينا التحري بإخلاص حول جميع الأسباب الممكنة لجميع المحصلات التي نشهد وقوعها، وليكن هذا تماشياً مع القول المشهور الذي حذرنا فيه هوغوتون: «سعيد هو الذي يمكنه فهم أسباب الأشياء».

وقال الفيلسوف: «لأنهم بدأوا يتساءلون، بدأ الكهنة في مصر أولاً يشغلون دور الفيلسوف، فطلبوا الأسباب المعقولة، ومن ثم النتائج المحتملة لما رأوه، ولقد أذنبوا ضد مبادئ ما جاء في الكتابات المقدسة، التي تعزو الشرور إلى الفرص وليس إلى الذنوب، أو لم يقل الرب: «بسبب ذنوب الناس سأجعل الفاجر يملك» [أيوب : ٣٤ / ٣٠ بتصرف كبير]، وكذلك ألم يرد في القانون الأوغسطيني: «بسبب ذنوب الناس أعطوا أحياناً ملكاً شريراً، وأسقفاً شريراً»، لأن الناس لا يستحقون أميراً جيداً ولا أسقفاً جيداً؟ وللسبب نفسه ينبغي الخوف من

الأمراء ومن الأساقفة خشية من جعل الناس أشراراً بسبب ذنوبهم، ومن ثم يثورون ضدهم، فعلى كل إنسان أن يتهم نفسه، ولا يسوغ أعماله.

١١٢ : وإذا بقي السيد البابامدة طويلة في مملكة فرنسا، ربما سيتمكن من إيجاد عدد كبير من الكرادلة من تلك المملكة، وبذلك سوف تبقى البابوية معنا، ونتخلص كلياً من أيدي الرومان، وسيكون هذا واضحاً، حتى ينتهبوا في المستقبل ويتجنبوا انتزاع حقوق الآخرين والاستيلاء عليها، خشية أن يحل بهم مصيراً أسوأ.

١١٣ [٧١] : ومن البديهي أن ملك صقلية سوف يحصل على منافع كبيرة من الترتيبات المقترحة، ولسوف تكون مملكة القدس ذات قيمة أعظم، بالنسبة له، من جميع ما يمتلكه الآن، لأن جميع الأراضي يمكن وضعها تحت جزية سنوية، والمملكة سوف تنال الدعم من ممتلكات الداوية، والاستبارية، والآخرين الذين ورد ذكرهم من قبل، وهو سيسترد أيضاً مملكة صقلية، ومملكة سردينيا سوف تكون من نصيبه بعد تحريرها من فردريك [أوف أراغون]، حسبما ذكرنا من قبل.

١١٤ : ولسوف يمتلك ملك ألمانيا الذي هو الآن ملك مؤقت وبشكل عابر، المملكة، ومنصب الامبراطور الشرفي لنفسه ولورثته بشكل دائم.

١١٥ — ويمكن للورد شارل [أوف فالويس] عندما تنتهي حروب المسيحيين الخاضعين للسيد البابا، أن يستولي — بعون الرب — على امبراطورية القسطنطينية، ووفق الترتيبات المقترحة سيكون لديه مقاتلين لهذه الغاية، ومن المحتمل أنه من دون ذلك لن يكون لديه أحداً.

١١٦ وإذا ما وقعت هذه الأمور كلها هكذا بشكل موائم، هي الآن، وستكون من بعد أعظم فائدة لمولانا السامي، ملك فرنسا، ولأولاده

ولأخوانه، ولا زدهاره العام، وسيكون هذا الازدهار أعظم مما يمكن كتابته، وإذا ما جرى تنفيذ هذه الاقتراحات بنجاح، سيكون قادراً على التحالف مع جميع الملوك والأمراء الخاضعين للكنيسة الرومانية، والتحالف سيكون معه شخصياً، ومع أخيه، الذي في ضوء فرصة الاستيلاء على امبراطورية الإغريق، من دون اضطراب في مملكة فرنسا، عليه أن لا يتأخر في الشروع في الحرب ومواصلتها حتى الموت.

ولسوف يكون مصدراً لكثير من المجد والمنفعة إلى المولى ملك فرنسا إذا ما تمكن من الحصول على مملكة ألمانيا وامبراطوريتها لأخيه، ولأبناء أخيه بشكل دائم، وسيكون مفيداً لتحقيق اتفاق حول هذه المسألة مع الملك الحالي، قبل أن يسمع بالخطة الجديدة للسلام.

وحسبما جرى — كما قيل — الاتفاق من قبل في مكان آخر، وقتها سيحصل الملك لنفسه ولورثته على جميع المنطقة القائمة على هذا الطرف من الراين عند كولون، أو أن يحصل في جميع الأحوال على سيادة مباشرة، وإشراف على مناطق بروفانس، وسافوي، مع جميع الحقوق التي يمارسها الامبراطور في لومبارديا، وفي مدن ومناطق جنوى والبندقية، وبهذه الطريقة سوف يحصل السيد الملك على ممر حر إلى لومبارديا، وينبغي عقد هذه الاتفاقية بشكل سري بين ملك الفرنسيين وملك ألمانيا، مع موافقة البابا وتأييده، وهكذا عندما يجري الاتفاق على هذه الصورة، ويتأكد، سوف تتأكد تبعية الامبراطورية إلى ملك ألمانيا، وسيكون ذلك لصالحه ولا زدهاره، ومن الممكن تقديم الأعطيات إلى ناخبي [الامبراطور] أو على الأقل إلى الناخبين العلمانيين، من أجل الحصول على موافقتهم ويمكن للبابا بنجاح أن يطلب من الناخبين اللاهوتيين تقديم الموافقة، ذلك أنه سيكون لصالحهم من كثير من الجوانب أن تتوقف الحروب المعتادة للامبراطورية ولرعاياها.

ثم يقوم البابا، مقابل الحصول على عطاء سنوي دائم، بتحويل جميع

الميراث الوقفي للكنائس إلى المولى الملك، مع الاشراف الدنيوي القضائي على الأتباع الإقطاعيين لهذا الميراث، الذين سيكون بينهم كثير من الملوك، ويمكن أن يشترط ويتم الاتفاق على أن يقوم المولى الملك بتعيين واحداً من أخوانه أو أولاده سيناتوراً رومانياً وسيكون هذا الفرد، في أثناء غياب الملك نفسه، هو السلطة القضائية العليا في الميراث، ومن الممكن تقديم استئنافات ضد قراراته إلى السيد البابا، الذي يقوم بعد تفحصه للأجراءات في القضايا التي يحق له التدخل فيها، بنقض القرارات، أو تأكيدها، أو أن يتولى تعديلها.

وإذا ما كان اللومبارد، والجنويون، والبنادقة غير راغبين بتقديم الطاعة إلى الملك، وبدفع الجزية والضرائب التي كانوا يدفعونها إلى الامبراطور من قبل، ينبغي على الفور منعهم من التعامل مع الكاثوليك المطيعين إلى المولى البابا، والذين يراعون تطبيق خطة السلام الجديدة ونظامها، ولسوف يحظر عليهم أيضاً المتاجرة بجميع البضائع، ويمكن للملك أن يدخل بحرية إلى لومبارديا عبر طريق سافوي، ويأتي السيناتور، والامبراطور، وملك صقلية من الاتجاهات الأخرى، وبذلك يخضعونها تماماً، وينبغي بعد هذا إرسال المتمردين إلى منفى دائم، وبسبب نظام السلام الجديد، المحظور انتهاك حرمة، والذي تأسس من قبل الخلفاء، سوف لن تستمر رعوتهم المعتادة، لكنها سوف تسقط بالضرورة، ومثل ذلك رعونة الرومان، والتوسكان، والشامبنيين، والأبوليين، والكالبريين، والصقليين، وجميع الممالك الأخرى والمقاطعات المطيعة للبابا.

وبهذه الوسائل سيكون ملوك إنكلترا، وأراغون، ومايوركا طائعين للمولى الملك، مثلما هو مطلوب منهم الآن طاعة البابا في المسائل الدنيوية، ومن الممكن عقد اتفاق مع الملك المستقبلي لغرناطة، فهو أيضاً ينبغي أن يطيع الملك، وبالمناسبة يمكن اتخاذ إجراءات في المجمع بأن

يقوم المعتصب ظلماً لمملكة كاستيل — مع احتفاظه لنفسه بتاج كاستيل وبمواردها — بالقبول بالالتزام بتحكيم البابا، الذي يمكنه آنذاك صنع بعض الترتيبات من أجل الآخرين، لأن المعتصب قد أذنب ذنباً عظيماً ضد ابن أخيه البكر لأبيهما، باحتفاظه بالمملكة مراغمة للعدالة العامة، لا بل حتى مراغمة للاتفاقيات التي عقدت بين الملك القديس لويس، وبين والد المعتصب المتهور، والأساقفة والبارونات في مملكة كاستيل، وكان قد تقدم عقد اتفاق زواج فيما بين الولد البكر للملك كاستيل، والأميرة بلانشي، ابنة القديس لويس، اشترط فيه أن تكون ولاية العهد في المملكة إلى أولاد الولد البكر، إذا — كما حدث — ما مات أبوهم قبل جدهم.

ثم ترك كاستيل لمتملكها المتهور، الذي يمكنه أن يعطي مملكة غرناطة إلى ابن أخيه الذي خرق الاتفاقية معه، ومملكة أخرى إلى ابن أخيه الآخر، على شرط أن يطيعا الملك الفرنسي من أجل الحصول على مساعدته ضد المسلمين، وبهذه الطريقة سيصبح الملك الفرنسي في وضع يمكنه من احتلال مملكة كاستيل، وسوف لن يكون غريباً إذا ما سعى ملك فرنسا — مع استثناء السيادة الصحيحة لإسبانيا — نحو الحصول على ولاء وإخلاص بلاد، حصل عليها جده شارلمان لدى طرده المسلمين، والتي تحق له أيضاً بالوراثة من أم القديس لويس، وبالنسبة لهذه القضية سوف يقوم البابا باتخاذ قرار نهائي حول مصير مملكة كاستيل، وذلك بعد تثبيت الترتيبات الأخرى، وسيقوم في الوقت نفسه السيدان فرناند [دي لى سيردا Cerdá] وأخوه بالاستيلاء على مملكتيهما بدون عوائق، وسوف يتهج المولى الملك في تملكه المتبقي من الأراضي المستولى عليها والمتقدم ذكرها.

١١٧ [72]: وفي المجمع ينبغي أن يسعى السيد الملك مع أخيه، بقدر ما هو ممكن في طلب، وفي تأكيد التحالف مع جميع الأمراء الذين

اجتمعوا هناك، من أجل الحصول على معونة الجميع في الحصول على امبراطورية الاغريق، وذلك بعد فتح طريق إلى الأرض المقدسة، وسوف يكون ملك صقلية — أو ينبغي أن يكون — أول من يفعل هذا، وهو راغب تماماً، ومعه جميع قواته، ولا سيما لصالح الذين سوف يقدمون لمساعدته بالشكل الرائع الذي تقدم ذكره، ويمكنه أن يفعل هذا بواسطة الوعد بتقديم العون بجميع قوى سفنه، ورجاله، وإمداداته.

ووقتها سوف يميل الجميع للوعد، ومن ثم لتقديم العون بجاهزية أكبر مما كانوا سيفعلونه لو أن التعهد العام لم يصنع مطلقاً.

وعندما تهدأ الحروب المعتادة بين الكاثوليك وتتوقف، وقتها يمكن بسهولة أكبر إقناع رجال الحرب، الذين بقيوا بالحري بدون عمل في بلادهم، بالاستعداد لتقديم العون الحربي إلى بلاد نائية، وإذا ما جرى تبني الاقتراحات المتقدمة الذكر، من الممكن للذين يعيشون بين الغرب وبين بلاد الاغريق، على هذا الجانب من البحر المتوسط — أو على الأقل الذين قرب الساحل — أن يحشدوا المقاتلين لديهم مع التجهيزات البحرية.

وسيكون مفيداً مهاجمة بلاد الاغريق وامبراطوريتهم من كثير من الاتجاهات براً وبحراً، وذلك باتباع تفاصيل التكتيكات الشاملة التي جرى شرحها مطولاً في الكتاب الصغير الذي عنوانه «حول اختصار الحروب والتكتيكات المتعلقة بها»، فقد جرى إعداده من قبل الكاتب الحالي، وقد بعث به إلى صديق الملك المخلص والمحنك، جين دي فورت، وكان ذلك في طولوز، عندما كان صاحب الجلالة الملك مع أخيه شارل [أوف فالويس] هناك، وصنع هذا بمقصد إقناع اللورد شارل ومستشاريه وأصدقائه، للقيام بتقدير هذه التكتيكات، والاقتراحات الأخرى المتعلقة بها، بدرجة من الاهتمام، ومن ثم تبنيها.

وبعد فحص ذلك الكتاب الصغير، واغتنام الفرصة المناسبة التي يوفرها، ينبغي على جلالة الملك وأخيه شارل، ومعهما الأصدقاء المتدربين على ممارسة الحروب والبارعين في فنون القتال، عليهم توجيه بعض الرجال الحكماء والخبراء والمخلصين لهم للإشراف بعناية وباستمرار على جميع الترتيبات التي أعدت لهذه الغاية، وواضح مما تقدم من قبل، ومن الكتاب الصغير المشار إليه، أنه سيكون من الصعب الإقامة في بلاد لغتها الأدبية، وجميع اللهجات المتحدث بها، غير معروفة إلى جميع الفرنسيين، وسيكون من الصعب أيضاً طلب صداقة وتحالف السكان المحليين، الذين بشكل طبيعي يكرهون اللاتين، ومن ثم حكمهم إذا ما خضعوا، والاختلاط بهم، وينبغي على الأمير الجيد أن لا يستهدف تدمير جميع الناس، وإذا ما كانت هذه غايته، فإن قضيته لا تستحق النجاح، ثم إنه لن يكون قادراً على تحقيق هدفه والوصول إليه.

فكيف على هذا يمكن للإنسان أن يحصل على حب الذين بقيوا أحياء؟ وكيف يمكن أن يحكموا من قبل الذين لا يفهمونهم، أكثر من فهمهم لصياح الطيور في الهواء، ولزئير الوحوش، ولفحيح الأفاعي، ولن تتحقق الكفاية بالترجمين الأجانب للغاتهم، بما أنه سيكون خطراً الوثوق بهم، كما أنه لن تتوفر الكفاية في الأشخاص إن عدداً أو حكمة، من أجل إدارة امبراطورية، وسيكون الناس من البلاد الأجنبية — الذين يعدون برابرة في أعين الفرنسيين، مثلهم في ذلك مثل جميع الناس الذين يفهمون لغة الإغريق — متأثرين تماماً، وقد ارتشوا، من أجل خيانة و خداع الذين أيضاً يعدون من قبلهم برابرة في تلك البلاد.

وقد عرف بولص المبارك مع الرسل الآخرين — الذين كانوا جميعاً يهوداً — اللغة العبرية فقط، التي كانت اللغة الأدبية، وكذلك لغة الحديث في المنطقة المحيطة بالقدس، فكيف استطاعوا الوعظ والتبشير بإنجيل الرب بشكل معقول إلى جميع الشعوب البربرية، لولا أن الرب

نفسه قد منحهم القدرة على استخدام جميع اللغات؟ حيث لم يكن بإمكانهم التفاهم بوسيلة أخرى مع البرابرة، وينصح بكل سبيل من السبل، لا بل هو أمر ضروري، الحصول مقدماً على أناس يجيدون اللغات وقد نالوا تدريبات جيدة فيها، ولا يمكن الحصول على مثل هذا التدريب وابتياحه بالذهب والفضة أو بالأحجار الكريمة، لذلك من المرغوب اتخاذ إجراء قبل أن تتوفر الحاجة، إما وفق الطريقة التي عرضت من قبل، أو وفق طريقة أخرى أسهل وأحسن.

١١٨ [73]: وفيما يخص السيد الملك شخصياً، من المؤكد أن كثيرين سوف يعترضون، ويتمتمون، بأنه لا يمكنه بشكل جيد تحمل متاعب القيام بمثل هذا العدد الكبير من أعمال الاستيلاء، ولا إخضاع هذه الكثرة الكثيرة من البلدان المحبة للحروب، ولهذا عليه عدم القيام بمثل هذه المشاريع العملاقة، ويمكن للإنسان أن يرد منطقياً ويجيب بأن من المرغوب به للملك أن يكرس الوقت من أجل المسائل الهامة، وأن يقلع بها، آخذين بذلك بالمبدأ الذي أعلنه المشرع جستنيان في بداية كتابه حيث قال: «على الرغم من أننا كنا مشغولين بالعبادة بالكومنولث كله، فقد اخترنا عدم عد أي شيء ليس هاماً» إلخ، ولو أن كل أمير، كان — كما هو متوجب — سامي التفكير، وشهماً، وكريماً، من المؤكد أن هذا الأمير ينبغي أن يكون هو أكثر من الآخرين بين هذا النوع، وصحيح أنه من الصعب، وقضية خطيرة، بأن يقوم مثل هذا الملك العظيم شخصياً بتجهيز الحملات، وأن يشترك في المعارك العامة، حيث يمكن لواحد من أخوان هذا الأمير، أو أبنائه أو أقربائه، القيام بذلك وفعله بنفقات أقل، ومخاطر أدنى مما لو قام هو بذلك، وبعدد أصغر من المقاتلين — النصف أو الثلث أو ما يقارب ذلك — لكن لن يكون أمراً سليماً ولا ينصح به محاولة القيام بذلك، إلا بالارتباط مع الخطة المقترحة من أجل سلام عالمي شامل.

ومن المستبعد أن يجد العصاة حلفاء، لأن الجميع سوف يعانون من العقوبة ومن الحرمان الكنسي، وسوف يكون قادتهم ومقدميهم مجرمين بالحنث باليمين، وعلى هذا سوف يوصمون بالعار، ويسبب ذلك سوف يسقطون في ازدراء أبدي، وينبغي عدم الاعلان عن الاستيلاء على الأراضي — باستثناء تحويل ميراث المبارك بطرس — قبل تسوية مشكلة الأرض المقدسة، وعليهم الالتزام بروابط السلام العالمي الدائم، الذي أعلن في كل مكان، وذلك بشكل تلقائي، وذلك بسبب الحماس والضغط من أجل الذهاب إلى معونة الأرض المقدسة، وسوف يقسم على روابط السلام من قبل جميع الأمراء، والأساقفة والنبلاء، وتصبح سارية بموجب وثائق رسمية، بطريقة تربط ورثتهم وترغمهم على أداء أيمان مشابهة، وعندما تجلب هذه الوثائق إلى قاعة الخزانة التابعة للكنيسة الرومانية من أجل حفظها، وتدخل في السجل العام وتدون فيه، وقتها يمكن للحملة إلى الأرض المقدسة أن تبدأ، وأن تلقى بمعونة الرب نهاية ناجحة.

ثم يمكن لأصحاب السيادة البابا والملوك إنذار جميع الرعايا في المناطق المستولى عليها حديثاً بوجوب طاعة الأحكام الملكية، وإلا سوف يتعرضون إلى جميع العقوبات التي يمكنهم فرضها، وسوف ينال المتمردون طبقاً لميثاق السلام العقوبة على الفور وبالقسوة الممكنة، وهكذا يتدبر الأمر بأن تلقي العقوبة المفروضة على عدد قليل الرعب في قلوب الكثيرين، وبذلك يصبح جميع الناس جيدين: الذين لديهم الاستعداد الجيد بالترغيب بالجوائز، والأشرار بالخوف من عقوبة دائمة لهم شخصياً وجميع ذريتهم.

ويتوجب على الأمير المسؤول المباشر إخضاع الذين قاتلوا ميثاق السلام، وإرسالهم إلى الأرض المقدسة للدفاع عنها، والعمل الفوري لهذه الغاية ضروري، حتى لا يتجرأ آخرون، على تقديم المساعدة لهم،

وذلك خوفاً من العقوبة، ويبدو من غير المحتمل أن يقدم عن طوعية جميع الأساقفة والنبلاء العائدين لأي منطقة، على اقتراح مثل هذا الخرق، ومن الممكن — على هذا — أن ينقسموا ضد بعضهم بعضاً بواسطة المعلمين والمستشارين العائدين للملوك الآخذين بالسلام: «فكل مملكة منقسمة على نفسها سوف تتمزق ولن تدوم»، فهذا ما حدث عندما تحالف الامبراطور [فردريك الثاني] مع حزب المعارضة في كل مدينة من مدن لومبارديا رفضت طاعته، ودعا حزبه باسم حزب الغبليين، ودعا الحزب الآخر الذي وقف إلى جانب البابا باسم حزب الغولف، ولقد تمكن بمساعدة الحزب الذي تحالف معه، بكل سرعة، من إخضاعها معاً، ويتضح من هذه الحادثة أن حزب الغبليين، الذي تعاون مع السيد الحقيقي، كان أعقل من الحزب الذي أخضع نفسه إلى البابا، وابتعد عن الخضوع وتقديم الطاعة إلى أميره.

وحدث أيضاً، منذ وقت طويل مضى، أن قام اللومبارد بسبب رعوتهم، وثروتهم، والدفاعات المتوفرة في مدخل بلادهم، بالانفصال، وبادروا بتهور إلى إعلان العصيان، وأنكروا الخضوع إلى الامبراطور، دون أن يتمكنوا من الحصول على استثناء قانوني، وبذلك خرقوا بشكل عنيف وجدي قانون السيادة اليولياني، ولقد استحقوا لهذا العدوان هم وذريتهم جميعاً العقوبة بمصادرة جميع ممتلكاتهم، وإذا ما غامر البابا، في ضوء جريمتهم العظمى بالدفاع عنهم ضد الأمير، الذي هو راعيه ومؤسس ومعطي جميع الميراث الوقفي الكنسي، سيبدو البابا وقتها — إذا جاز القول وجازت الكتابة — عاقاً، مقترفاً لجناية ينبغي أن ينال تجاهها عقوبة قانونية.

١١٩ [74]: وسوف يكون متماشياً تماماً مع المنطق، أن يبقى السيد الملك بدون نشاط، ليمتلك الوقت من أجل إنجاب الأولاد، ومن ثم القيام بتنشئة أولاده وتعليمهم، وللتفوه بالأحكام، وليتولى شخصياً

فض القضايا الهامة، والتعامل مع المسائل الخطيرة، أو أن يأمر آخرين بالقيام بها، وأن يوجه الحملات من خلال توكيل أقرب القادة العسكريين إليه، وأكثرهم ثقة، وأن يجهز الجند، وأن يوفر الامدادات الضرورية والنافعة لمتابعة الحرب، وهذا واضح مما قاله الفيلسوف في كتابه «السياسة»: «الرجال ذوي الذكاء الوقاد هم بشكل طبيعي الحكام والسادة على الآخرين»، كما قال أيضاً في الكتاب السابع من «الفيزيك Physic»: «يصبح العقل الهادى منطقياً وحكماً»، وهكذا مكث القديس داود بدون نشاط، متمتعاً بالوقت من أجل التأمل، وأرسل بالوقت نفسه بني إسرائيل لمباشرة الحملات العسكرية.

ويمكن لقادة الحرب الذين أرسلوا وفق هذه الطريقة أن يقوموا بالحركات العسكرية بسرعة، وأن يبدأوا القتال بشكل مفاجئ، وأن يزحفوا ببراعة، ينتقلون من هنا إلى هناك بالنهار وبالليل لمضايقة العدو، وأن يعتمدوا إلى أبعد الحدود في الانفاق على أنفسهم من أسلاب العدو، ولا يمكن لملك عظيم أو أمير أن يفعل هذا، لأنه لا يليق به أن يذهب إلى الحرب لصالح قلة، فيهمل إدارة عدد كبير لا يقارن من الناس، وسيكون مؤذياً أن يقوم أمير عظيم من هذا القبيل بإهمال واجباته الادارية الهامة والكثيرة جداً، وأن يعرض نفسه للخطر، ولإمكانية الموت من خلال حادث مفاجئ من الحوادث، خشية أنه عندما يصاب الراعي بتحريض من الشيطان تتفرق شياه القطيع».

ومن المفيد جداً للأمير عندما يرسل جيشاً إلى إحدى المقاطعات بهدف إخماد ثورة ما، أن يأمر، أنه إذا ما صدف ومات القائد، أو جرح، أو وقع مريضاً، أو بات عاجزاً بشكل ما آخر، بقيام آخر بالحلول محله على الفور: بدون شرط أو تراجع إذا ما كان القائد قد مات، لكن إذا كان عاجزاً فقط، يكون ذلك حتى يشفى.

وعلى القائد البديل متابعة النشاط على الفور، وفي الوقت المناسب،

تبعاً لخطة متفق عليها، ولسوف يكون عيباً قاتلاً في الأوضاع التنظيمية لجيش كبير، أن يبقى بدون نشاط ومشلولاً وممزقاً، بسبب عجز فرد واحد.

وقال بيوثيوس Boethius: «في هذا العالم يجري الحديث فقط عن المحاسن التي أمرت بها الطبيعة، والتي تخدمها»، ومثل هذا قال الفيلسوف: «مثلما العالم هو وحدة، من خلال وحدة المطلب الذي يستهدفه الجميع، والذي ندعوه بالمقام الأول باسم الرب، كذلك الجيش هو وحدة بموجب هدفه، الذي هو النصر، الذي يسعى من أجله قائد الحرب، والذي يتوجب على كل رجل في الجيش أن ينشده»، وكان مفيداً للأمير أن يوجه طاقاته نحو هذا الهدف، أي هدف الحصول على سلام دائم، لأنه في وقت السلم يمكن للناس أن يمتلكوا وقتاً كافياً، وحرراً، وتاماً، للحصول على الفضائل وعلى العلوم، وقد بين الفيلسوف أن «الذي يطلب الحرب من أجل الحرب فقط هو الغاية في الشر»، والذي ينشد بتواضع النصر والسلام بوساطة قدرة الرب، وليس بوساطة جهوده، سوف يجد السلام في الرب، الذي هو كما قال الرسول: «يفوق كل عقل» [فيلبي: ٤ / ٧].

١٢٠: إذا لم يمتلك أمير عظيم مثل ملك فرنسا سوى ولد واحد ليخلفه على العرش، لا يجوز أن يعينه قائداً لحرب خطيرة، من دون مواجهة خوف عظيم من إمكانية تعرضه لمكروه، لكن إذا ما جرى تعيين مثل هذا الولد الوحيد، عليه عدم مقاربة رعب الحرب من دون اهتمام وتفكير، وكأن لديه عدة أخوة، ولهذا ينبغي أن يمتلك الملك وابنه البكر الوقت لانجاب الأولاد، وأن يجري تعيين الأبناء الآخرين والأخوة قادة للحرب، فقد قال الفيلسوف: «الشجاعة التي تجعل جميع الجنود راثعين وجيدين، وممتازين، هي الاقتراب من رعب الحرب، ومن تهديد الموت، من أجل الصالح العام، وليس من أجل صالح فرد فقط»،

وزاد على هذا فقال في كتاب «السياسة»: «إن أميراً يحكم من أجل منفعته الخاصة وليس من أجل المنفعة العامة ينبغي أن لا يدعى أميراً، بل طاغية»، لكنه إذا ما توجه بتواضع نحو الرب، وأراد من خلال قدرته، الصالح العام، أي سلامة الكومنولث وحده، فإن منافعه الخاصة ومصالحه سوف تتبع، مثلما جاءت جميع الأشياء الجيدة في العالم إلى سليمان، وكذلك الحكمة التي طلبها لوحدها من الرب.

[75] : لقد طرحت هذه المسائل مع وسائل اختزال الحروب في العصور الحديثة وجعلها أقصر مما كانت عليه من قبل، في كتاب «حول اختزال الحروب والدعاوى القضائية في مملكة فرنسا، وإصلاح أوضاع الكومنولث العالمي للمسيحيين»، فهناك كتبت هذه الاقتراحات، ليس بسبب أنني اعتقدت أنها تغطي كل شيء، بل من أجل إعطاء الرجال الحكماء والمجربين الفرصة لإنجاز عمل كامل حول هذه المواضيع والمواضيع المرتبطة بها، وقليلة هي الأشياء في هذا العالم التي صنعت بشكل جيد، حيث لا يمكن أن يخطط ولا ينفذ بكمال أكثر، ولا بطريقة موائمة أحسن مما نفذ، ولسوف يرى المولى الملك هذا، إذا ما توقف عن التفكير كم سيخفف عن نفسه وعن شعبه عندما يشن الحرب، إذا ما اتبع ونفذ الخدمة العسكرية التي هي حق له وفق الطريقة التالية، وليس وفق الطريقة المعتادة.

١٢١ [76]: صحيح أن واجب الخدمة العسكرية من أجل الدفاع عن المملكة قد أُلقي على عاتق الإقطاعيات الأكبر والأهم، فهذه الخدمة العسكرية هي الواجب الإقطاعي المعتاد، المفروض على كل من لديهم إقطاعات، أو بواسطة أناس آخرين مناسبين، ليس بشكل منتظم كل سنة، بل فقط عندما تتطلب الحاجة، ومسؤولية الدفاع عن المملكة هي مسألة لا تخص فقط المولى الملك، والذين بأيديهم إقطاعات مقابل مثل هذه الخدمة، بل تخص أيضاً الأعداد الكبيرة من الآخرين الذين بأيديهم

إقطاعات حرة غير مثقلة بخدمات خاصة، وهي أيضاً تخص — لكن ليس كثيراً جداً — كل الذين بأيديهم إقطاعات، هي في معظم الأحيان أقل قيمة، وهي أيضاً مثقلة بمبالغ تدفع سنوياً، وهذه المبالغ في كثير من الأحيان تساوي القيمة الإجمالية تقريباً للإقطاع سنوياً، أو تساوي نصف القيمة.

١٢٢: والدفاع عن المملكة هي أيضاً مسألة تخص رجال الدين الأدنى مرتبة بسبب امتيازاتهم المعتبرة روحياً ودينوياً، وهكذا ينبغي استدعاء جميع المتوجب عليهم أداء خدمات عسكرية لمقصدين ولسبيين، لهما وزنها من أكثر من جانب، والمقصود بذلك هو أن عليهم أداء هذه الخدمة عندما تستدعي حالة الطوارئ، فهم قد نالوا ما بأيديهم من إقطاعات مقابل أداء هذه الخدمة، وكان السيد الملك آنذاك الذي منحهم إقطاعات، قد منحهم إياها وفق هذا الشرط، وهو قد دافع — ومطلوب منه أن يدافع — عن كل واحد منهم، ضد أي واحد قد هاجمهم بقوة السلاح، ولذلك إنه لصالحهم تقديم كل خدمة متوجبة عليهم، لأنهم بدون ذلك لن ينالوا السلام، كما أنهم لن يحظوا بالوقت للتمتع بممتلكاتهم والحصول على محاسن العلوم وفضائلها، ولهذا عندما يقوم تهديد بحالة طوارئ، ينبغي استدعاؤهم أولاً، وإذا كان العون الذي عليهم تقديمه هو — أو يعتقد أنه — كاف، وقام الملك باستدعاء الذين ليس متوجباً عليهم شرف خدمته، يكون بهذا العمل قد سعى بالحري إلى إلحاق الضرر بهم، بدلاً من تقديم العون إلى نفسه، ويتبع هذا، إنه بموجب مواد القانون، يعد ذلك عدواناً لا يغتفر، ويصبح هو مذنباً بجرم عظيم، لأنه استدعى وتحكم بهؤلاء الذين كان من المتوجب عدم استدعائهم، لأنهم ليسوا خاضعين للتكليف.

١٢٣: وإذا ما عمل السيد الملك وفق أفضل النصائح المتوفرة، عليه أن يقنع أن عون جميع الذين يدينون له بالخدمة العسكرية هي كافية،

ويمكنه أن يقوم بعملية استدعاء *Levee en masse* ، أي أن تقول العون الأول للذين بأيديهم إقطاعيات حرة، وإذا كان ذلك كافياً عليه أن يقنع، وإذا كان غير كاف، عليه استدعاء عون الشعب، أي جميع الذين يقفون خارج العلاقات الإقطاعية، إلى الحد الذي يرى فيه تقدير أمين أنه قد حصل على حاجته.

[77] : وإذا ما افترض أن موارد السيد الملك والاقطاعيين الآخرين الذين يدينون له بواجب الخدمة، مع الذين ذكروا أعلاه ممن بأيديهم إقطاعيات حرة، سواء أكانوا يدينون له بواجب الخدمة أم لا يدينون، افترض أنها غير كافية من أجل الدفاع، وقتها في أحوال الضرورة للدفاع عن المملكة — وخروجاً على القانون — يمكن للملك أن يفرض ضرائب على ممتلكات الكنائس وعلى المؤسسات اللاهوتية، أو الاستيلاء عليها، وذلك بحدود ما يحتاجه من وسائل من أجل الدفاع الكافي، وهذا هو المصدر النهائي والأخير الذي يمكن للملك أن يلجأ إليه، وكون كفايته واضح من حقيقة أنه نادراً — أو مطلقاً — ما جرى الاستيلاء على مثل هذه المساعدة من الكنائس ومن المؤسسات اللاهوتية، ومرد هذا إلى سبب أنها في أية مرة جرى الاستيلاء عليها، جاء هذا الاستيلاء مضاداً للموقف العام، وموقف القانون الكنسي وموقف القانون المدني، ولهذا يعد هذا العمل جناية عظيمة، ما لم يتوفر قانون، يمكن بموجب فضيلته ومنطقه القيام بمثل هذا الاستيلاء، ولا يوجد هنا سوى قانون واحد فقط، وأعني به الضرورة الملحة للدفاع، وهذه الضرورة ليست حتمية، بمعنى أنها ضرورية من أجل أن تشرق الشمس، إنها مشروطة، بمعنى أن التغذية للحيوان شرط ضروري إذا ما أريد إنقاذه، وبقائه حياً، وهذا ما نقرأه في الكتاب الخامس من الـ *Analytics* في فصل «حول الضروريات».

١٢٤ : وبناء عليه إنه من حق الملك، ومن واجبه أن يطلب

الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة من أجل الدفاع عن المملكة، على أن يكون ذلك الملاذ الأخير، عندما يتبرهن أن موارده، وردیفها من الضرائب الاقطاعية ومن الـ **Levee en Masse** غير كافية من أجل المهمة، لكن دعونا نفترض أن مائة ألف مارك فضي كافية من أجل هذا الدفاع، وأن الملك سوف يستولي على مائتي ألف مارك، فهل يمكنه أن يفعل ذلك دون اقتراف لجناية عظمى؟ من المؤكد لا، لأنه عندما يتوقف السبب تتوقف المؤثرات، فجميع العلوم توافق على هذه النقطة وتضفي عليها الشرعية.

ونتيجة لما تقدم، عندما يصبح سبب الاستيلاء هذا غير شرعي، فإنه لا يجوز للملك الاستيلاء على شيء، ما لم يكن راغباً بشكل مكشوف أن يسرق وينهب، وبالمناطق نفسه، إذا ما كان بحاجة إلى مائة ألف مارك من الفضة أو من الذهب، وقام بالاستيلاء على الأكثر، فإنه يكون قد مارس النهب والسرقه، بكلمة مزيفة وبفعل أخرق، عندما ادعي وجود حاجة ضرورية وهي لم تكن موجودة، وإذا ما فعل الملك هذا وهو على دراية كاملة بواقع الحال، يعدّ كاذباً، وبسبب ذلك الكذب — الذي يجرمه الرب — تنكر للرب وصار ابناً للشيطان، الذي هو والد الكذب، وجميع الكذابين أولاده: مثلما يدعي الذين يقولون الصدق — في هذا المجال — أبناء الرب.

وقد تبرهن هذا في عدد من نصوص الكتاب المقدس، خاصة في الرسالة إلى تيطس، ومن ثم عدّ ذلك قانوناً شرعياً، وهكذا جاء في السبب ٩، والسؤال ٣ والفصل [٧٨]: «يفسد الحكم بأربعة طرق» وكذلك في الفصول التالية، ومن الواضح إلى جميع المرتبطين بالإيمان الكاثوليكي، أن استخراج الضرائب فوق الحاجة جنائية عظمى، لا يمكن غفرانها، ما لم ترد الأموال المستخرجة لغير الضرورة، وإذا كان هذا صحيحاً بالنسبة إلى جميع المال المستخرج، إنه على هذا صحيح أيضاً

بالنسبة للجزء، لأنه حسبما جاء في تحذير القانون المدني «هناك العلاقة نفسها بين الكل والكُل كما هي بالنسبة للجزء إلى الجزء».

[78]: وواضح مما تقدم أنه صعب جداً بالنسبة للسيد الملك أن يحكم بإنصاف في قضية الضرورة هذه، وصعب بالدرجة نفسها بالنسبة لمساعديه ومستشاريه أن ينصحوه بشكل عادل حول هذه القضية، باختيار حل وسط تبعاً لحصص الهندسة الحقيقية وليس تبعاً لحصص الرياضيات.

وإذا ما قضى الملك بشكل صحيح في هذه المسألة، وقدم له مستشاروه نصيحة عادلة وصحيحة، فإنهم بذلك يفعلون خيراً وفضيلة، إذا لم يكن بعض الشر قد أضّر بهم من جهة أخرى، وبما أن الخير والشر شيان متضادان، حسبما قال الفيلسوف، لا يمكنها التعايش والوجود في الموضوع نفسه، وبناء عليه يفسد شر واحد ويدمر جميع الفضائل العائدة للموضوع الذي وجد فيه، ولهذا قدّر الفيلسوف تقديراً عالياً ما قاله هرقل، وعبر عن ذلك بشكل جيد عندما كتب: «تضيء الفضيلة دوماً عندما تكون المجريات صعبة جداً»، وأضاف قائلاً: «إنه بالنسبة لنا صعب جداً أن نكون جيدين»، وينبغي بالنسبة لنا أن نلتزم بدون انحراف بالطريق الوسط، متجنبين الإسراف الشديد، والعوز، وأيد الفيلسوف هذا بإشارة مشابهة بقوله: «هناك مسلك واحد، هو المسلك المستقيم، الذي يأخذ السهم إلى هدفه، والخطوط التي تتشعب من الخط المستقيم، هي معوجة وهي غير محصورة العدد، وقال إنه بناء على ذلك، أن يلتزم الإنسان بالخط الوسط في ممارسة الفضيلة هو صعب بقدر صعوبة إطلاق سهم، يقوم بخرق الهدف، ولا ينحرف عن الخط المستقيم.

١٢٥ : وبعد لفت الانتباه الدقيق لما تقدم، ربما سيرغب صاحب الجلالة الملكية، لأن يقدر، ولأن يحكم بعدل، بدون إلحاق ضرر بأي

إنسان، فيما إذا من الممكن إبداع وسائل أخرى، يمكنه بها بشكل عادل وقانوني أن يستخرج بقوة من الناس المتمنعين العون العائد لـ *Levee en Masse*، وللكنائس.

١٢٦ : ومن البديهي أن السيد الملك، الذي هو مسؤول بعمق أكثر، وبطرق أيضاً أكثر، لا بد له من الدفاع عن مملكته، وعليه أن يكون مستعداً للدفاع عنها عندما يهددها الخطر، وأن يقاتل ليس تقديراً لمملكته فقط — كما فعل أجداده من قبل — بل كما يليق برتبته، وبتقدمه، وبثروته.

١٢٧ : ومن الممالك، والدوقيات، والكونتيات، والبارونيات، والقلاع، والاقطاعيات الأخرى، التي استحوذ عليها الملك في هذا الجانب [من الألب] في ماضي مئات السنين، منها جميعاً ينبغي أن يطلب على الأقل العدد المقرر من العساكر المتوجب على أوضاعهم حسبما تقضي بذلك حقوقه الاقطاعية، وعلى السيد الملك إجبار كل واحد من أتباعه الاقطاعيين والدوقات والكونتات، والبارونات، وأصحاب القلاع، والفرسان، وبشكل عام كل واحد يدين له بخدمة ثابتة، إجبارهم جميعاً على تقديم هذه الخدمات وتأديتها دونما غش أو نقصان، وعليه أن لا ينقص أو أن يتخلى عن أي جزء من هذه الخدمات أو إهمال فرضها، وذلك بغية معاقبة الذين تتوجب دعوتهم فقط من خلال *Levee en Masse*.

١٢٨ : غير أنه يحكى بأن السيد الملك غير متفكر بهذا، وقد أودع نفسه وأحكامه بأيدي مستشاريه، الذين اعتاد على دعوتهم لمساعدته في الحرب، أحياناً على حسابه، هذا وينبغي على هؤلاء الكونتات، والبارونات، والفرسان، والأتباع — بحكم وجوب تقديمهم خدمات عسكرية — أن يقوموا بحملات على حسابهم، وأن يسدوا تعويضات بخدمات عسكرية مقابل إقطاعياتهم فضلاً عن هذا، يقوم الدوقات،

والكونتات، والبارونات، والفرسان، والآخرين المتوجب عليهم تقديم خدمات عسكرية، يقومون غير راغبين بأداء الحملات وتقديم الخدمات وحدها، فاعتادوا على أن يأخذوا معهم، وعلى أن يستبقوا بخدمتهم آخرين كثر على حسابهم، في حين أن المتوجب على هؤلاء تقديم خدمات على حسابهم مستحقة عليهم، وفي هذا يتركون بدون عمل آخرين من الشجعان ومن النبلاء الأقوياء يكونون مسرورين بالقيام بحملات على حساب الآخرين لو جرى استدعاؤهم لذلك.

وفي ظل هذه المعطيات حدث مراراً، أن يقوم الفارس الذي عليه أداء خدمة عسكرية، بإرسال واحد من أولاده مع ثلاثة أو أربعة من الرجال، ويبقى هو شخصياً في مسكنه مع خيوله وسلاحه، ويقوم الابن الذي يتولى أداء الخدمة المتوجبة على أبيه، وعلى حساب هذا الأب، باستخراج مال يدفع له من فارس جار لأبيه، ليتولى أيضاً أداء واجباته عنه، وعلى هذا نراه قد عمل عوضاً عن نفسه وعن جاره، ونراه فيما بعد ينجح في وضع نفسه في خدمة مدفوعة لدى واحد من الكونتات أو البارونات، وكذلك على حساب واحد من النبلاء يقوم باستقباله، وعلى هذا نراه يقوم بتأدية واجب خدمة عسكرية مزدوجة عن كل من أبيه وجاره، وبذلك يحصل على أجر مضاعف.

وبمثل هذا التراخي والإهمال في الالتزام بالحقيقة، وفي التهرب من الخدمة العسكرية من قبل عدد كبير ممن يتوجب عليهم ذلك، وقيامهم في كثير من المناسبات باستهلاك نفقات الخدمات المدانين بها إليه، قام السيد الملك بفرض الـ *Levee en Masse*، في حالات توجب فيها عدم الدعوة، وعدم الفرض، وبقيام الملك بغض النظر عن الخدمات المتوجبة، وبإيجاب الخدمة على الذين غير متوجبة عليهم، يثقل بذلك نفسه روحياً بشكل رهيب، ويثقلهم دنيوياً، ومثل هذا حدث بالادعاء بوجود ضرورة في قضية الكنائس، فبناء على ذلك الافتراض استخرج

العون منهم، مع أن الحقيقة معروفة، حيث لم تتوفر الحاجة، أو على الأقل لم تكن حالة الطوارئ عظيمة بما فيه الكفاية، وهكذا اقترف جناية عظمى باستخراجه العون بدون حاجة.

١٢٩ : فكيف على هذا، يمكن لأمر أن يستفيد من الحرب، وكيف يمكنه الاحتفاظ بالملكات التي صادرها من أجل حروبه، في وقت تجاهل فيه أحكام القانون والعادات، بقيامه بظلم عدد كبير من الناس، وبالتخلي إلى الأثرياء — غير شاكرين له، لعدم فهم الأوضاع — عن الجزء الأعظم أو عن كل الذي استخرجه من الفقراء ؟ ومع أن الكنيسة لم تدرك هذا كله، مع هذا عدت نفسها متأذية، فتوقفت عن تقديم صلواتها المعتادة لصالح السيد الملك، ومع أن الملك لم يتبع هذا الطريق برغبة ذاتية منه، بل اقتيد إليه من قبل مستشاريه، يبدو لي أنه ما كان له ليفعل ذلك، بسبب أن عليه أن ينجح أمام الرب الذي يرى الجميع، ذلك أنه كان مهملًا، بالأخذ بنصيحة رديئة، وأخفق في السعي وراء مشورة صحيحة جيدة، بالتنازل إلى المدانين له عما استخرجه من الذين غير مدانين له، وهكذا يتوجب طلب عون الـ *Levee en Masse* وعون الكنيسة، وتسلم ذلك، فقط عندما يسمح مذهب الاجراءات الموصوف أعلاه ويجري اتباعه.

١٣٠ [79] : وواضح مما تقدم أن عليه أن يسير وفق الخطة التالية التي عليه تبنيها، لأن من المتوجب وجود نظام في كل مكان (باستثناء في جهنم، حيث كما قال القديس : لاترتيب، بل رعب مقيم دائم — أيوب : ١٠ / ٢٢)، فعندما توجد حالة طوارئ، ولكي يتجنب الملك ظلم رعاياه، عليه أن يسعى أولاً للحصول لنفسه على ما يكفي من العساكر الاقطاعية والتجهز بهم، مثلما اعتاد أجداده على تزويد أنفسهم قبل حصولهم على دوقية نورماندي وما شابهها من الدوقيات الأخرى، والكونتيات، والبارونيات، والاقطاعات التي تم الحصول عليها قبل

وصوله إلى العرش، وإلى هؤلاء ينبغي أن يضاف الضرائب الاقطاعية المفروضة على المناطق التي حصل هو عليها شخصياً في أثناء حكمه، وعليه بعد هذا أن يجهز من الاقطاعيات التي سيتم عليها الحصول الآن، مثلما سوف يفعل الدوقات، والكونتات، والبارونات، ويجهزون أنفسهم، لو أنها ما زالت في أيديهم، وعليه أخيراً استدعاء الذين غير المتوجب عليهم تقديم الخدمة العسكرية، لكن وفق طريقة لا يبدو بها مضرراً برعيته، ولا منزلاً الظلم بها، أي بطلبه عونها في وقت لا حاجة لذلك فيه، وعلى الانسان أن لا يخاف من فعل الشر فقط، بل من التظاهر بفعل الشر، وعندما يكون قد استعد بشكل وافر يمكنه أن يستدعي إلى حربه النبلاء، والكونتات، والبارونات، وأية رجال آخرين مدربين.

١٣١ : ويتبغي على الملك أيضاً أن يتنبه إلى جميع رعاياه الذين عليهم تأدية خدمات مسلحة، أن يظهروا مع العساكر كلها من أجل ضرورة تأدية واجب الخدمة العسكرية الملزمين به، أي أن يجندوا وفق طريقة، بحيث ما من أحد يدخل في الوحدة التي عليه تأدية الخدمة فيها على حسابه الشخصي، أو أن يكون بدلاً عن آخر، وباتباع هذا الاجراء، وباستخدام كاف فقط لسلطاته العليا والملكية، سوف يكون مع الملك جميع — أو تقريباً جميع — نبلائه، ولن يستولي بوسائل الـ *Levee en Masse* على ما اعتاد أن يتنازل عنه إلى الذين عليهم تأدية خدمات مسلحة، وكذلك لن يثقل كاهل الكنيسة، ولن يتوقف الناس عن تأدية صلواتهم المكرسة، بفضله وحده — وليس بقواهم — الذي اعتاد قادة الجيوش على نيل النصر.

١٣٢ [80]: وإذا ما رغب أي إنسان في إدانة هذه الطريقة في تعبئة جيش من الجيوش — لأن أجداد السيد الملك لم يعتادوا في الماضي على فرض الخدمة العسكرية بهذه الطريقة — من الممكن أن نجد الجواب في

تحذير القانون المدني بقوله: «على الانسان أن لا يولي الاهتمام لما حدث في روما، بل لما ينبغي أن يحدث» وقوله ثانية: «على الانسان أن لا يحكم بناء على الأمثلة، بل بموجب الشرائع»، ويتماشى هذا مع ما قاله أستاذ الفلسفة الكبير، المعلم سيغر دي برابنت، الذي كنت تلميذه آنذاك، وقرره على قاعدة أرسطو في «السياسة»: «إنه لأفضل بكثير أن تحكم الدولة بشرائع عادلة، من أن تحكم برجل عادل مستقيم»، ذلك أنه لم يكن، ولا يمكن أن يكون هناك رجل مستقيم إلى حد لا يمكن إفساده فيه بالغضب، وبالكراهية، وبالحب، وبالخوف، وبالجشع، فهذا ما نهينا إليه قانون الشريعة في السبب ١١، السؤال ٣، الفصل [٧٨] بقوله: «يفسد الحكم بأربعة طرق»، وكذلك بما قاله في الفصول التالية، ووافقه الفيلسوف عندما قال في كتاب «السياسة» المتقدم الذكر أعلاه: «حكمت في البداية بعض الدول من قبل الملك، أي بإرادة شخص كان السيد بينهم، لكن بما أن الملوك يعاقبون أصدقائهم بعقوبات خفيفة، وأعداءهم بعقوبات ثقيلة عندما يعتدون، من هنا انبعثت الشقاكات والحروب، ولهذا، ومن أجل إنهاء هذه الشرور بدأ الناس يحكمون بشكل أكثر عمومية بوساطة القوانين والنظم التي لا توفر أحداً.

١٣٣ : ومرة أخرى الناس في هذه الأيام أكثر شرهاً وسوءاً مما كانوا من قبل، وأكثر دهاء وبراعة في المكر، وقد قال الفيلسوف في «السياسة»: «يفكر الرجل الحكيم الذي استسلم إلى الشر، بمختلف أنواع الشر، ويهارسها».

١٣٤ : وقال ثانية في الكتاب نفسه: «تبلغ العداوة أسوأ أوضاعها لدى اللجوء إلى السلاح»، أي سلاح الحكمة، وجاء في مدونة الامبراطور جستنيان: «لا يوجد أسوأ من إنسان حكيم استسلم إلى الشر، فهو لا يمكن نصيحته»، ولهذا من التدبير الحسن اللجوء إلى وسائل معالجة جديدة ضد الأعمال الشريرة للناس المتوجب عليهم القيام بخدمات

عسكرية، لكنهم لا يقومون بها، مما يلحق الضرر الكبير بأمرهم الرئيسي وبالعدد الأكبر من أتباعهم، ثم إن هذه الخطيئة العظيمة، التي سوف يصدر عنها كثيراً من الذنوب، والأخطاء، وأعمال الظلم، سوف تتوقف في المستقبل، وسيتم أيضاً محق العدوى المهينة لهذه الخطيئة، التي أصابت عدداً كبيراً جداً من الأرواح، بموافقة من السيد الملك، ورجال الدين والشعب، وسيكون هناك بعض التعويض للمظلومين، لكن ليس للظالمين.

١٣٥ [81]: من إيقاف الخدمة العسكرية، عندما تبدو الحاجة أنها قامت لذلك، ومن توفر الحاجة إلى إنقاص عيار العملة في المملكة، التي يتسلم كل إنسان في المملكة بها دخله، فإن الأكرية سوف تفقد في البداية ربع قيمتها ودخلها، ثم الثلث، وبعد ذلك النصف، وأخيراً الثلثين، ولقد حسبت أنا كاتب الرسالة الحالية، وعرفت من خلال تناقص سعر العملة المستمر، أنني قد فقدت على الأقل خمسمائة ليرة تورية، وكان هذا بعد الشروع بإنقاص عيار العملة، وإذا ما قدرنا كل شيء، أعتقد أن السيد الملك قد فقد، وسوف يتابع الفقدان والخسارة بإنقاص عيار العملة أكثر بكثير مما حصله من منافع أو يمكن أن يحصله في المستقبل، وبسبب إنقاص عيار العملة هذا، ارتفعت أسعار الحاجيات كثيراً، إلى حد أن الأسعار ربما لن تنقص وتعود إلى المستوى القديم، ومن أجل التعويض على الناس الذين عانوا من هذه الشدائد العامة، يتوجب معاقبة الذين خططوا، وصنعوا، ونفذوا مثل هذا الحل، وأنقصوا عيار العملة مراغمة لجميع مبادئ وقواعد القانون، وأيضاً مراغمة لعادات مملكة فرنسا التي تبرهن أنها ظلت بلا خرق منذ ما قبل ما يستطيع الناس الأحياء أن يتذكروه، وسيكون مفيداً لفت انتباه صاحب الجلالة إلى هذه المسألة: ذلك أن التجاهل بلاهة وغباء، ولا يمكن مطلقاً أن يكون تسويغاً مقبولاً للخطيئة، لأن الجريمة الكبرى موجودة على معيار

مع نية شريرة.

وفي الحقيقة، هناك لوم عظيم بالبقاء جاهلاً بما يعرفه الجميع بلقبه، وذلك حسبنا حذرنا القانون المدني، وأنا لا أعتقد أن إنساناً بعقل سليم يمكنه — أو ينبغي — أن يعتقد أن الملك كان سيقوم هكذا بتغيير نقوده وإنقاص عيارها، لو اعتقد أنه سيصدر عن ذلك مثل هذا القدر من الشرور، ثم لأنه نشأ وسط رفاه عظيم، وثراء كبير، واعتاد دوماً على ذلك، لا يمكنه أن يدرك شخصياً تماماً النقص والحاجة، وأنواع العوز والفقر التي لا تحصى، وهو على هذا مثل الذين عاشوا زمناً طويلاً دون المعاناة من أي مرض، ولهذا ليس لديهم ميل للخوف من أسباب المرض ومن مصادره، لأنهم لم يتذوقوا الطعم المر للمرض.

ولقد قرأنا عن عدد كبير من الأمراء الذين حصلوا على الخبرة، بتجريب جميع ألوان الحياة من أجل الوصول إلى معرفة أحوال العالم وأوضاعه، وصحيح ما قاله الفيلسوف أن «الحكمة الدنيوية» التي أكد أنها ملكة جميع الفضائل الخلقية، لأنها تتضمنهم جميعاً «نحصل عليها بالتجربة»، لكن هناك حاجة إلى وقت مديد للحصول على الخبرة في الشؤون الانسانية، وعلى هذا خلص إلى القول بأن ما من عقل صحيح يختار الشباب قادة، بسبب أنه لم يعدّهم حكماء، لأنهم لا يمكنهم الحصول على تجربة واسعة ومعرفة كبيرة في وقت قصير.

١٣٦ [82]: ولهذا إنه على الملك أن يدرك وأن يتأمل ميسول مستشاريه، نحو فرض الخدمة العسكرية، وكيف أنهم يقومون سراً بشطبها عن الذين يتوجب عليهم القيام بها، ويستخرجون ما ليس ضرورياً من خلال Levee en masse وما فرض على الكنيسة، ومن آخرين، ما كان من المفترض استخراجه من الذين عليهم واجب أداء الخدمة العسكرية، وعليه أن يبحث عن الذين أغنوا أنفسهم بوساطة هذه الاعفاءات، وعن الذين مع أنه متوجب عليهم القيام بحملات على

حسابهم، وأن يؤدوا خدمات عسكرية مقابل إقطاعياتهم، قاموا بحملات على حساب جيرانهم الذين بقيوا في مساكنهم، وعن السادة الذين دعوهم لاكمال تعداد مقاتليهم، وبعدما حصلوا على كثير من المال بهذه الطريقة، وبعدما أثروا أنفسهم من أثاث الفقراء، عادوا أخيراً إلى نسائهم، ومن الطبيعي أن أمثال هؤلاء الناس يرغبون بأن يقوم الملك دوماً بحشد جيش كبير، وإذا ما أراد السيد الملك التحري بدقة حول صدق الأمور المتقدمة الذكر، سوف يجد أن هذه الممارسات قد طبقت.

ولا أريد أن يعرف بأني حرصت على القيام بمثل هذا التحري، بسبب أنني أعتقد أن ذلك إذا ما بات معروفاً فلن أنجو من التآمر ضد حياتي شخصياً، وأنه سوف يجري التأثير بشدة على أصدقائي ليكونوا ضدي، ومع هذا أردت عرض هذه القضايا وإثارها، آخذاً بمذهب الفيلسوف الذي قال: «على الذين يؤمنون بالصدق أن يلتزموا بقوة وبقرب بالصدق، وليكن ذلك أكثر من الصداقة»، وكذلك بمبادئ الانسان العاقل اللذين هما مبدآن: أولهما أن لا يتكلم بشكل زائف عما يعرفه، والثاني أن يكون قادراً على كشف الذي يتكلم بشكل زائف»، وقد قرأنا في القانون: «أن تعاني من الذل في سبيل الصدق أفضل من نيل المنافع عن طريق النفاق».

ومن المؤكد أن جميع الذين يزيفون من أجل ضرر آخرين، يقتربون إثماً عظيماً، وهم أبناء الشيطان، وهم ينكرون الرب بأعمالهم، مثلما قال الرسول وأكد بأنهم مثل الذين يعترفون بأنهم يعرفون الرب، لكن ينكرونه بكل عمل شرير من أعمالهم، وعلى العكس يدعى جميع الذين يقولون الصدق، بأبناء الرب، وبما أنني محامي استئناف لقضايا الملك، ومرتبطة به باليمين، سوف أعد نفسي مقترباً للذنب العظيم، لدى سكوتي عن حقيقة ما تقدم بالنسبة للضرر الروحي والديني لمولاي وللعدد الذي لا يحصى من رعاياه، لأنه كما قال

الفيلسوف: «الشجاعة» التي هي فضيلة نبيلة، وتليق بشكل خاص بالأمراء، وبالفرسان هي: «الهجوم على الأوضاع المرعبة، حيث يتوفر التهديد بالموت، وذلك من أجل الصالح العام»، وقد جاء في الكتاب المقدس: «حينما يحفظ الرجل القوي بلاطه، تكون جميع الأشياء التي يملكها بسلام» [لوقا : ١١ / ٢١ — بتصرف].

١٣٧ : الذي وقع في الماضي لا يمكن إعادته، وذلك حسبها قال القانون: «ما أن تتقرر القضايا لا يمكن إعادة فتحها من أجل خاطر العدالة»، وينبغي على كل حال على السيد الملك أن يفهم الماضي وأن يتعلم منه، وعليه أن يتبنى سياسة جديدة حتى لا تتكرر المخالفات التي ورد ذكرها أعلاه في المستقبل، وعليه شخصياً، بناء على نصيحة الكنيسة وأعقل مستشاريه، أن يعد بتعويض رجال الدين والشعب، فبذلك يقنعهم بعدم متابعة إيقافهم تزويده بصلواتهم الحارة، وبذلك سيتمكن من إنهاء غضب الرب، حيث أننا نقرأ في القانون: «الخوف من الائم دليل على قلب جيد، حتى حيث لا يوجد إثم»، وإذا ما ابتغى أمير الحصول على الحكمة وسعى من أجلها، في سبيل حب خالقه، وإذا ما كرس جميع طاقاته من أجل تقديم العدالة في وقتها، وإذا ما مارس الرقابة على قضائه من أجل البت بالقضايا بسرعة وبعدل، وبذلك يوفر برحة على رعاياه الأذى، والاضطرابات والنفقات، وقتها سوف يكون مثل سليمان، الذي تلقى جميع خيرات هذه الدنيا، مع هبة الحكمة الحقيقية والعدل، وسوف يتحرك الناس نحو غفران جميع الأخطاء التي عانوا منها.

وسيكون مثل هذا الحل مرغوب به كثيراً، لأنه سيكون من غير الممكن التقدير تماماً مدى الضرر الذي عانى منه كل واحد من التجاوزات التي ورد ذكرها أعلاه، وأعتقد بشكل أكيد أن رجال الدين والناس بشكل عام سوف يكونون على استعداد للموافقة على إجراء

يقوم بموجه السيد الملك — من أجل خلاصهم — بتكريس جميع ما استخرجه من رعاياه فوق واجباتهم، من أجل مصلحة الأرض المقدسة، وذلك ما يعادل جميع الأضرار التي ألحقها بهم بإتباعه آراء الآخرين، ومن السهل الحصول على موافقتهم بالدعوة إلى حمل الصليب، مع منح الغفران المطلق من السيد البابا.

١٣٨ : ويمكن أيضاً للسيد ملك إنكلترا، والأمراء الآخرين، والأعيان، والذين سوف يعبرون إلى الأرض المقدسة، أو يرسلون آخرين إليها، يمكنهم أن يسعوا من أجل تسوية مماثلة، وأن يضعوها قيد التنفيذ، وليكن ذلك مع جميع الذين لهم ديون عليهم لم تتم تسويتها، والتي هي غامضة، أو غير محددة لأي سبب آخر، ووفقاً لقواعد إيماننا، لا يمكن غفران ذنب من الذنوب ما لم تتم إعادة ما سلب، وإذا كان الذين سيذهبون للقتال من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، كانوا مثقلين وموسومين باحتفاظهم بممتلكات الآخرين، ولهذا واقعين في شرك ذنب عظيم، فإن ذنوبهم سوف تعيق أعمال الآخرين الجيدة.

ولهذا يتوجب على النائب الحقيقي والمعترف، أن يقوم قبل كل شيء بالانفاق هناك لصالح المدان لهم، وأن يسدد لهم كل ما يطلبون تسديده، وبهذه الوسيلة يمكن لكل إنسان أن يمتلك الغفران، وبذلك سوف تكون جهود الجميع مؤثرة وقتلهم فعلاً، وسيمكن وقتها إزاحة العدو القديم وطرده، وهو الذي يمسك بيديه بسجلات مثل هذه الآثام ويحتفظ بها، ويؤخر ويعيق محوها بقدر ما يمكنه، وذلك خشية أن تنجو الأرواح من مصائده، وإنني أعتقد بشكل جازم أن كل إنسان سوف يصغي إلى الوعظ المرتبط بالغفران البابوي سوف يغفر للسيد الملك كل ما يدعيه ضده.

وإذا ما وجد هناك أي واحد أراد أن يقلد فرعون بقسوة قلبه،

وسوف يرفض التخلي عن ادعاءاته، على أساس أنه يستحق تعويضاً أعظم، على القضاء الملكي المحلي الموجود لهذه الغاية، مع محاكم أخرى يجري تعيينها للقيام بهذه المهمة، عليها القيام بتسجيل أسماء المدعين، وبمطالبهم، وبالأَسباب، وبذلك يمكن القيام بتعويضهم بقدر ما يكون ذلك مرضياً وعادلاً، وينبغي عدم إرغام أحد من الناس على التخلي عن دعواه من أجل تقديم العون إلى الأرض المقدسة.

١٣٩[83]: كان جند المملكة الفرنسية حتى الآن، ومن المفترض استمرارهم بأن يكونوا، الحقيقة الدائمة في استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، ولا يمكن لهذه القوات البقاء هناك إذا — لا سمح الرب — ما مات الملك، مثلما حدث للقديس لويس، أو أن ينتقل إلى الرب أثناء الزحف، أو أن يعود إلى الوطن لسبب ما، ولهذا ارتأيت أنه سيكون من الأفضل، والمرغوب به، بقاء الملك وابنه البكر في الوطن، لامتلاك الوقت من أجل إدارة المملكة، ولانجاب الأولاد، ولتربيتهم وتدريبهم، ومن أجل تجهيز النجديات السنوية لإرسالها عبر البحر، لدى توفر الحاجة لذلك، وبسبب أعمال الاستيلاء التي تمت الإشارة إليها من قبل، وكثرة وتنوع واجباتها الإدارية، سوف يكون مفيداً للسيد الملك ولابنه البقاء طويلاً في مملكتهم، والموت فيها، بدلاً من الوفاة في أرض أجنبية، وينبغي عليهما إنجاب أولادهما في المناطق المجاورة لباريس، من أجل أن يلدوا هناك، وهناك يتربوا، لأن من المعروف أن تلك المنطقة واقعة في ظل مؤثرات أجسام سماوية أكثر فائدة من أي مكان آخر، ولهذا السبب، حسبما لوحظ في الماضي، إن الرجال الذين تمّ الحمل بهم هناك وولدوا كذلك هناك هم أفضل تكويناً واختصاصاً، وموهبة، من أي من الذين ولدوا في مناطق أخرى.

١٤٠ : وسوف تكون خطة جيدة أيضاً، عندما تتوفر الحاجة، أن يقوم الملك بتوجيه حملته، بقيادة الجيش من خلال شخص أخ آخر له،

أو من خلال ابن أصغر له، من أجل أن يتجنب إمكانية تقصير حياته، وذلك في ضوء الحوادث والأسباب التي سرّعت موت أجداده الثلاثة الأواخر(١)، فعلى مثل هذا الأمير عدم تعريض نفسه لمخاطر الصدف والحظوظ، ولا يمكنه القيام بحملة من دون كتلة كبيرة من العساكر، كما لا يمكنه تحريك قواته والزحف بسرعة مثل الآخرين، الذين يعملون أحياناً ليلاً ونهاراً، ثم إننا لا نمتلك في الأرض المقدسة، لا مدناً ولا حصوناً، ولا أماكن أخرى معدّة، حيث يمكن فيها الإلتقاء من أشعة الشمس المحرقة، وأشعة المريخ والنجوم الأخرى، والاحتفاء من المناخ المتقلب الذي لن يكون موائماً لهم البتة.

١٤١: وقد يعترض إنسان فيقول: «إنك بهذا تعيق تقدم الأرض المقدسة»، وله أجيب قائلاً: لن تكون هناك إعاقة، ما دام السيد الملك سيكون قادراً، وسوف يطلب إرسال جيش كبير مع أخوانه أو مع ابنه الثاني، وكأنه هو شخصياً سيذهب، ويمكنه أن يرتب استلام عدة قادة الإمرة أحدهم بعد الآخر، وذلك إذا ما مات أحدهم، أو أصيب بالعجز لسبب ما، فوقتها يمكن لآخر أن يتسلم الإمرة على الفور، وسيطيعه الجميع وكأنه الملك بذاته، ويبدو أنه لن تكون هناك مخاطرة ظاهرة إذا ما ذهب ملك إنكلترا، أو ملك آخر إلى هناك، خاصة الملوك الشيـوخ الذين توقفوا إلى أبعد الحدود عن إنجاب الأولاد، وإذا ما مكث السيد ملك فرنسا في الوطن، يمكنه أن يتولى تجهيز فرق العساكر الموعودة، المكونة من كل من الرّجال والفرسان، وتقديم السلاح أيضاً وفقاً لطلبات وتقديرات قادة جيشه، ومن الصعب على الملك الذي ولد في قصر فخم، ونشأ في مناخ معتدل، أن يتحمل مشاق الحملات،

١ — توفي لويس السابع بالاسهال في سنة ١٢٢٦، أثناء عودته من حملة صليبية ضد الألبينيين Albigensians ، وتوفي لويس التاسع بالطاعون سنة ١٢٧٠، عندما كان محصوراً في معسكره في تونس، وسقط فيليب الثالث نتيجة إصابته بالحمى في سنة ١٢٨٥ أثناء حملته ضد بدرو الثالث صاحب أراغون.

في أراض متغيرة الأنواء، وبذلك يتعرض — من دون حماية كافية — إلى أشعة الشمس المباشرة، وإلى الأجسام الأخرى، ولم أذكر أنني قرأت عن أي أمير قام بحملات في بلدان أجنبية أو نائية غير شارلمان الذي قام بحملات شخصية لمدة مائة عام وأكثر، وبذلك لم يكن له نظير، فبعدما حصل على البراعة في القتال من خلال الخبرة الطويلة، تقدم كثيراً خلال الاثني عشر عاماً التي أمضاها امبراطوراً للامبراطورية الرومانية، وكان ذلك أكثر مما عمله خلال الأربعين سنة المتقدمة، وذلك حسبما تشهد على أفاعيله أكثر من منطقة.

١٤٢ : على الملك أن يقوم بشكل خاص باستعراض الماضي، واستباق الحاضر وتوقعات المستقبل، أي مستقبل أوضاع المملكة، ومعرفة أي السبل يرغب في اختياره، بين جميع السبل النافعة والمتوفرة لديه، من أجل الحملة إلى الأرض المقدسة، ومن أجل مملكته، وذلك وفقاً للخطة التي تم عرضها هنا، وينبغي استكمال هذه الخطة وتعديلها من قبل أكثر مستشاريه وأعيان دولته حكمة وعقلاً، وعليه أن ينتهز الفرصة، التي توفرت بسعادة له وبوساطة الخطة المتقدمة الذكر، وأن يناضل في سبيل سلام ثابت ودائم في جميع أرجاء الكومنولث المسيحي، وذلك وفق الطريقة المقترحة، أو وفق طريقة أخرى أفضل، وعليه القيام — بعد الحصول على موافقة البابا وجميع الأمراء الآخرين — التلطف في السعي الحثيث في أن تكون الارادة الطيبة وسلطة الكومنولث الكاثوليك المطيعين للسيد البابا، موجهة نحو الاسترداد السعيد للأرض المقدسة والحفاظ عليها، وكذلك الاستيلاء على امبراطورية القسطنطينية، وأن يتقرر الوصول إلى الهدف المنشود بكل سرعة تحت قيادة الرب قائد الجيوش كلها.

- ۳۳۹۳ -

ملحق

رأي واحد يحث ملك فرنسا للعمل على الاستيلاء على مملكة القدس، وقبرص، من أجل الثاني من أولاده، ومن أجل غزو مملكة مصر.

١: قال الرسول: «كل عمل من أعمال المسيح ينبغي أن يكون من أجل تعليمنا، وكل ما تقدم فكتب كتب لأجل تعليمنا» [روما : ١٥ / ٤، ثيموثاوس : ٣ / ١٦، بدمج وتصرف]، ونقرأ في السفر الأول من أخبار الملوك، أنه عندما طلب شعب إسرائيل — الذي أحبه الرب أكثر من غيره من الشعوب — من الرب أن يعطيهم ملكاً، أعطاهم الرب شاول ليكون ملكاً عليهم، فتشامخ برأسه وكتفيه فوق جميع الشعب، وقد عرف الرب أنه لن يكون مطيعاً له، ولهذا السبب لن يعيش ملكه طويلاً، ويبدو أن الرب قد تحرك لإختياره من أجل أن يعطينا حجة واضحة من أجل توجيهنا، أي عندما يتوجب اختيار ملك، قد نقوم نحن الذين نجهل حوادث المستقبل بين الناس، والذين في أذهاننا، التميز الرائع، والتقوى المفترضة والكامنة في السمات الحسنة، قد نقوم باختيار وتسمية شخص مماثل للملكة العظمى للقاهرة ومصر، التي تدعى مملكة الآشوريين، ونترك الباقي لإرادة الخالق وترتيبه، فهو الذي يعرف جميع الأشياء من البداية، ومثل هذا الشخص هو المولى فيليب، الابن الثاني ولادة للمولى ملك فرنسا، وسيبدو أمراً بعيداً عن السعادة إذا لم يدع لتسلم واحد من المناصب الشرفية لهذا العالم.

وبما أنه كتب في القانون: «ينبغي أن لا يأخذ إنسان الشرف لنفسه، بل ليأخذ ذلك الذي يدعى من قبل الرب، مثلما كان هرون»، وقد ارتأى واحد من محبي سلامة الكومنولث المسيحي كله، أن فضائل العالم المذكورة أعلاه، وفضائل أخرى كثيرة، ينبغي أن توضع قيد الاستخدام، لأنها تساعد كثيراً، وهي مرئية بشكل طبيعي، فهو قد وضع الصالح العام قبل سلامته، ومربحه، كما سوف يظهر من كتاباته الكثيرة، فبعد التأمل في هذه القضايا، وتقليبها في ذهنه، قد رغب في عرض أفكاره

وتقديمها، بسبب قلقه من أجل الملك المذكور، ومع تجنبه الأطناب،
رغب في الوقت الحاضر أن يكتب باختصار، وأن يبرهن بشكل مقنع
ضد أي خصوم، بأن السيد الملك يمكنه بسهولة تشريف ابنه الشريف
وإغنائه، وجعله أعلى من جميع الناس الأحياء من دون أن يؤدي أحداً
من الناس، وأن يتجنب بالوقت نفسه اقتراف ذنب عظيم، كما ينبغي أن
يفعل في كل نشاطاته.

٢ — ومن المعروف بشكل جيد أن مملكة عكا شاغرة منذ وقت
طويل، ذلك أن كونت دي إيو هو المتوقع، وقد أهمل هذا الكونت
وأجداده قد أهملوا الآن ومنذ وقت طويل حكم هذه المملكة، ولذلك
السبب يمكن القول بأنهم فقدوا الحق في مواردها، لكن لتجنب أي
شك، يمكن للملك أن يسأل الكونت، الذي لن يخيبه، بل إنه سيتنازل
لابن الملك عن أي حق من حقوقه، إذا كان لديه أية حقوق، وهو أمر
يعتقد بعدم وجوده، ولدى اكتمال التخلي، يمكن للملك أن يتدبر مسح
ابنه وتتويجه ملكاً من قبل البابا، ومن الممكن أن يتنازل له سراً عن ملك
عكا، والقاهرة، ومصر وأشور، ما لم يكن السلطان على استعداد لإعادة
الأرض المقدسة إلى الكنيسة الرومانية والتنازل عنها بشكل سلمي، وأن
يشمل التنازل التخلي عن الإشراف القضائي على سكانها، مع ثمن
وارداتها ومنتجاتها التي حصل عليها بشكل غير عادل.

ولدى الفراغ من هذه الترتيبات، أو عندما يبدو أنها سوف تترتب
بشكل جيد، على السيد الملك أن يسعى، لابل أن يبذل غاية جهده من
أجل عقد مجمع يضم الأمراء الكاثوليك والأساقفة، من أجل العمل
على استرداد الأرض المقدسة، والمحافظة عليها، وإيجاد حكومة جيدة
لها، ولاتخاذ قرار حول هذه الأمور، ولوضعه قيد التنفيذ باتخاذ جميع
الاجراءات اللازمة لذلك، وينبغي تبني هذه الإجراءات، ليس فقط
حسبها وضعت في الرسالة إلى البابا، والتي أرسلت إلى الملك في شينون

أثناء الاحتفال الأخير بصعود الرب، بل يبقى من الأفضل بكثير ما يراه السيد الملك أنسب للتبني بناء على نصيحة الرجال الحكماء والمجربين.

٣ : بالاضافة إلى المقترحات الواردة في الرسالة المشار إليها، يبدون الموائم، في ضوء الادعاء الذي يدعيه ملك صقلية بالنسبة لمملكة القدس بحجة شرائه حقوق الأميرة مريم المقدسية، تأمين تعويض كبير يخصص له من قبل المجلس، مقابل ادعائه ونفقاته، وينبغي أن يكون هذا التعويض مناسباً مع أنه قد قيل، بأن بارونات المملكة يرون بأن بيعاً من هذا القبيل كان غير قانوني، وأن الحق بالمملكة يعود إلى ملك قبرص.

ومن أجل الصالح العام للعالم كله، من المفيد دمج طائفة الاسبتارية بالطوائف الأخرى التي وجدت لمصلحة الأرض المقدسة، في طائفة واحدة، باستثناء الداوية، ومن المتوجب تأجير جميع ممتلكات الداوية في الأرض المقدسة وقبرص إلى المستأجر الذي يدفع أكثر، مقابل أجر دائم، وينبغي إقناع ملك قبرص بالانضمام إلى الطائفة المقترحة، وأن يتخلى لها عن جميع ممتلكاته، ولا سيما ادعائه — إذا كان له أي ادعاء — بالحق في مملكة القدس، وينبغي إحلال طائفة رهبان عسكرية ملكية محل الطوائف المذكورة، وأن يوضع ملك قبرص في القيادة، حسبما ورد في الرسالة المشار إليها، وأن تؤول القيادة من بعده إلى أي ملك كاثوليكي للقدس، هو من أفراد الطائفة، ويتوجب على مثل هذا الملك — بناء على توجيه من البابا ومن ملك فرنسا — أن يستخدم جميع قواته من أجل تقديم العون إلى ملكي القاهرة، وعكا والملوك الكاثوليك الآخرين، في الحروب ضد جميع الكفار والمنشقين، وعليه أن يقدم سنوياً حساباً حول المبالغ المتبقية، أي أية مبالغ زائدة عن نفقات الطائفة الملكية، وبذلك لن يثقل رهبان الطائفة — مثل يهوذا المجنون — الذين لديهم أكياس مال، وكاهل الطائفة، وكذلك من أجل تجنب إلحاق الأذى بكونمولث المسيحيين، والملوك المذكورين، وأيضاً عدم إثقال

الممتلكات الصحيحة المكرسة من أجل حفظ الكومنولث وبقائه.

٤ : وأما بشأن الممتلكات التي قيل بأنها عائدة إلى الداوية، أي بضائعهم القابلة للتحرك، ودخولهم، ومستحقاتهم بالنسبة للسنوات الخمس أو الست المقبلة، فمن الممكن أيضاً تكريسها لمساعدة الطائفة الجديدة، ومن الممكن مضايقة السلطان بوساطة مائة غليون أو أكثر مع قوة مناسبة من الجنود المجهزين بشكل جيد، وأيضاً حماية البحر، ويمكن أيضاً بذلك مضايقة المناطق القريبة من البحر وإفكارها، وهي المناطق التي قيل بأنها تمتد ما يساوي رحلة ثلاثين يوماً، وبهذا العمل لن يتمكن السلطان من مقاومة الحملة العامة التي سوف تأتي، وفي الوقت نفسه، بما أن الأعداء سوف يكونون من دون المساعدات التي تأتيهم عبر البحر، ومن دون البضائع التي اعتادوا على تلقيها بوساطة الماء، وقتها سيكون بالإمكان — بعمون الرب — هزيمتهم بكل يسر وقهرهم، ويقول الفرسان المحنكين والعقلاء من الذين ولدوا في تلك المناطق، والذين هم على دراية بأحوال القاهرة ومصر، وسكانها، سيقولون بعد تفحص دقيق لهذه الخطة، بأنها خطة ممكنة.

٥ : ويبدو مفيداً — مع نصيحة المجمع — القيام بتدمير طائفة الداوية كلياً، ذلك أن محصلات العدالة تقضي بحلها تماماً، وتكريس ممتلكاتها لصالح الحملة العامة حسبما ورد أعلاه.

٦ : يبدو أنها مسألة صعبة، إحداث ترتيبات دائمة حول تملكات أراضي من هذا النوع بعد الحملة، مع تجنب النزاعات والخلافات بين الأمراء المحليين، ويبدو من المفيد بالنسبة للوقت الحالي، بعد تقرير قيمة مثل هذه المناطق القيام بعرضها للايجار بشكل دائم، وينبغي إيداع ريع الايجار الذي يأتي من هذه الممتلكات في أماكن خاصة، فعندما تهدد حالة طوارئ ملوك مصر، وعكا، والقدس، أو أي ملوك كاثوليك آخرين خاضعين بتقوى للكنيسة الرومانية، ينبغي اختيار عساكر

مناسيين في كل مملكة، ومقاطعة أو إقليم، ويتوجب تزويد هؤلاء الجند من الأموال المذكورة أعلاه بأسلحة جيدة، وبوسائط نقل تتوافق مع رتبهم، وهم في حالة ابتهاج مع الأبواق ومع عتاد مناسب، إرسالهم إلى الأرض المقدسة، أو أية مناطق أخرى عبر البحار، مع تمويل كاف لرحلتهم، وبالنسبة لممتلكات العساكر الذين يموتون أثناء الزحف أو خلال حملة عسكرية، ينبغي أن تكرر كاملة إلى الأحياء، وبذلك يمكن الاستمرار في تحويلها لتستخدم لصالح الحملة.

وسوف يجمع الملوك الشرقيون بوساطة هذه الخطة — إذا ما عاشوا بسلام لسنوات طويلة، ثروات كبيرة جداً على هذا الجانب من البحر، في قبرص وفي أرض الميعاد، فإذا ما قامت حالة طوارئ، وقتها لن يعانون من قلة المال، بل على العكس سوف يحصلون من كل منطقة للدواية فيها ممتلكات، على نجدات تتكون من حشود كبيرة من المقاتلين الشجعان، ومن كميات هائلة من السلاح، وينبغي أيضاً أن يتم الاتفاق بين الملوك المعينين حديثاً بمساعدة أحدهم الآخر بعدد محدد من المحاربين، وبحصة من أساطيل كل واحد منهم، وعليهم أيضاً إعداد أماكن على طول السواحل حيث تتوفر أخشاب رائعة، وحيث هي ليست مملكة من قبل أحد، وتخصيص هذه الأماكن لبناء الغلايين ومراكب التحميل، ليجلب بها الحديد والمنتجات الوافرة الأخرى من الشمال، والتي هي نادرة وغالية الأسعار في الجنوب، وعلى هذا يمكن جلب هذه المنتجات من هناك، وكذلك الأسلحة غير الجاهزة، لكن من السهل ابتياعها من هناك، مع أشياء أخرى مناسبة للعيش وكذلك للقتال بكفاية، وعلى هذه المراكب حمل العساكر في أوقات السلام، خشية أن يبقوا كسالى، ويمكنها أن تحمل معها في طريق العودة توابل عطرية، وحاجيات أخرى مفيدة لنا.

٧ : وإذا ما اعترض معترض وقال بأنه سوف يكون من الصعب

مهاجمة القاهرة ومصر، سيجيبه الرجال الحكماء والمجربين بأن ذلك لن يكون صعباً، بما أن الرجال الذين ولدوا في تلك البلاد متخلفين في استخدام السلاح، ومشهورون بأنهم بلا شجاعة، وسهل فقط وصول الجيش إلى تلك البلاد بوساطة البحر، فمصر التي تمتد مسافة عشرين يوماً سافراً، والتي عرضها على محاذاة النيل أربع مراحل أو أكثر في بعض الأماكن، هي مطوقة بصحارى غير مسكونة، ولا يمكن اجتيازها، إلا باتجاه أرض الميعاد، وأنداك سيكون ذلك وسط مصاعب كبيرة ومخاطرة، لأنه لمدة سفر ستة أيام هناك لا يمكن الحصول على أية أطعمة باستثناء الماء، ولهذا إنه من الأفضل مهاجمة تلك البلاد بوساطة البحر وذلك بجيش كاف، وذلك بعد أن يكون قد جرى أولاً توجيه جيش كبير نحو عكا، وبذلك يصبح من السهل الاستيلاء على بلاد القاهرة ومصر، وذلك عندما يجري تجريفها من العساكر، وما أن يتم الاستيلاء عليها حتى ستكون ذات فائدة عظيمة إلى السيد الملك، أكثر منها لمملكة فرنسا، بما أن جميع سكان الأرياف هم عبيد، والبلاد خصبة جداً.

٨ : ولا يحتاج السيد الملك إلى التردد بإصدار الأمر بمهاجمة هذه البلاد، وذلك خشية منه أنه لن يرى ابنه ثانية، ذلك أن هذا الولد يستطيع أن يعود إلى أرض أبيه، حيث يترك قائد الجيش هناك، لأن تلك البلاد سيكون من السهل الدفاع عنها، لاسيما بعدما يكون قد جرى إخضاع أرض الميعاد، واستولى عليها الكاثوليك.

٩ : وإذا ما تم الاتفاق على ملاحظات السلام الدائم، حسبما جرى اقتراحها في الرسالة المشار إليها، سوف يكون مناسباً للسيد الملك البقاء في مملكته، ومع أنه قد يكون قد حمل الصليب، فبإمكانه أن يرسل إلى هناك أخاه اللورد لويس، كبديل عنه، مع جيش كبير، ومعه ابنه المتقدم الذكر (فيليب الذي صار فيليب الخامس، ١٣١٦ — ١٣٢٢)، وسيكون

هذا المنهج مسوغاً لأسباب كثيرة، فالسيد الملك الذي تزوج ثانية، عليه أن يمتلك الوقت، بأسرع وقت ممكن، من أجل إنجاب الأولاد، وتربيتهم، وتدريبهم، وعليه البقاء في مملكته من أجل إدارتها، مثل ملك بلاد التتار، الذي لم يغادر بلاده قط، بل عين ملكاً من الجيش، وأعطاه البلاد التي عليه احتلالها، ويمكن للسيد الملك بهذه الطريقة أن يزود أخاه وابنه بالعساكر، لترسل إليهما بين وقت وآخر، وذلك حسبما يجد ذلك ضرورياً.

وبسبب خطر الموت، والمرض، والفوضى في إدارة مملكته، ارتؤي أنه نافع أكثر، وأكثر سلامة إلى الملك، أن يبعث، ولا يذهب شخصياً، وفي تلك الحالة من الضروري جداً البقاء في الوطن، وذلك تبعاً للفيلسوف الذي قال: «نحن نحصل على الحكمة في هذا العالم من خلال الخبرة في الشؤون، وتحتاج الخبرة إلى وقت طويل»، ولهذا سوف يكون خطراً جداً بالنسبة لمملكة فرنسا — مثل أي مملكة أخرى — أن تحكم من قبل رجل شاب، ويتوافق هذا مع قول آخر للفيلسوف نفسه: «ما من أحد يختار الشباب قادة، لأنه لا يعدهم حكماء»، وعلى الأبوين الملكيين، اللذان يحبان أولادهما الشباب، أن يسعيا لإطالة عمرهما، خشية أن يتركا إلى الفتیان مخاطر واجب الحكم.

وعلى الملك ما أن يجد الوقت، أن يقوم على الفور بقراءة الرسالة المشار إليها، وأن يأمر بتصحيحها، وبتغييرها، وإتمامها من قبل واحد أو أكثر من اللاهوتيين المتفوقين في ميادين المعرفة، ممن لا يتطلعون إلى مناصب الأسقفية، ويؤيد هذا القانون الأوغسطيني، ذلك أن الشهوة تفسد وتشوه الحكم المنطقي، وإذا ما جرى الأخذ بالمقترحات الواردة في تلك الرسالة، سيكون من الواضح تماماً أن المقترحات المتقدمة يمكن بسهولة وسرعة وضعها موضع التنفيذ، وينبغي أن تكون ذات ديمومة، حتى يكون بإمكان السيد الملك، بهذه الطريقة، تأمين الإمدادات إلى

الأرض المقدسة من خلال ميناء صغير وبنفقة ضئيلة، وما أن يجري تأمين الإمدادات هكذا بشكل جيد، وبأن تدوم — بعون الرب — أبداً دائماً، سيكون ذلك بالنسبة إلى المستقبل، له فائدة أعظم لجميع بني البشر، روحياً ودنيوياً، ولكي يعيشوا بسلام ووثام، أعظم من كل ما قرأنا حوله، أو جرى تنفيذه، أو تصوره منذ بداية الدنيا، ولسوف تدوم ذكرى ذلك الأمير الذي أثار، ونفذ مثل هذا المشروع الواسع جداً، وستبقى إلى الأبد من خلال صلوات المؤمنين.

١٠ : وبات من السهولة بمكان أن يرى كل إنسان أعطي تقديرًا للأحداث الممكنة في المستقبل، أن التخلص من الممتلكات التي منحت، إلى الداوية لهدف لم يتحقق، أمراً مسوغاً، ولهذا السبب إنها منحة يتوجب إبطالها، ولا يجوز تحويل هذه المنحة إلى استخدامات مدنية، بل ينبغي أن تستخدم بدون تردد في سبيل غرضها الأصلي، وسيكون هذا له منفعه إلى الأساقفة، وإلى جميع الناس عن طريق تعويض النفقات التي تحملوها لدى قيامهم بتنفيذ مشروع إزالة الطائفة ومعاقبة أفرادها، وإن فحوصاً للعشور وللمساعدات الخيرية، مع القيام بالتقدير المعتاد للقيام بحملة صليبية، يري أن مشروع معونة الأرض المقدسة سيمتلك وقتها الوسائل لدفع المرتبات، أو تأمين ما هو ضروري للعساكر، ولن يحتاج الأمراء الكاثوليك من بلدان نائية إلى الارتحال إلى هناك، وبالتالي إهمال إدارة أراضيهم، وتقصير حيواتهم، وذلك كما يحدثنا التاريخ، وكما وقع مراراً، وقد تحملت مملكة فرنسا نفقات هائلة على مثل هذه الحملات، التي أنجزت قليلاً، لأن أعمال احتلالاتهم الجزئية لم تدم، هذا وإن المبالغ التي سوف تجمع من وقت إلى وقت، من أجل الأرض المقدسة، في ظل الخطة المقترحة، سوف تكون ذات فائدة إلى الأمراء المحليين، فإذا ما كانوا بحاجة إلى المال، عندما تتفجر الحرب بشكل مفاجئ، يمكنهم الاعتماد على المبالغ المجموعة والسحب منها، وعليهم

أن يكونوا متيقظين أنه عندما يطلب منهم إعادة الدفع، يدفعون، وسيكون إرسال الجند إلى جيرانهم من دون تكاليف، وستكون هناك مساحات تفريج ومجالات للشباب الذين لم يجدوا مجالاً للقيام بحياة شريفة في البلدان التي ولدوا فيها.

وسيكون من الممكن بسهولة، بوساطة الطريقة المقترحة، تحويل أفراد الشعب المصري إلى العقيدة الكاثوليكية، وبذلك يتحررون من العبودية ويرتقون إلى الحرية، فمن خلال نشاط يوسف وبصيرته — الذي جمع الحبوب خلال سبع سنوات خصبة — كان فرعون قادراً بوساطة خزنه للحبوب، أن يضع الآباء والأبناء على أرضية متساوية، ومن ثم أنزلهم إلى مرتبة العبيد، ولهذا السبب يتسلم الناس كمية ضئيلة فقط من الأطعمة والألبسة، من بين الكميات الوافرة لمنتجات لتلك البلاد الخصبة، وقال الذين كانوا هناك بأن السلطان يتسلم من الشعب، كل سنة أكثر من ستمائة ألف دينار ذهبي، كل دينار منها يساوي قيمة ستة فلورينات.

وبعدما يجري الاستيلاء على أرض الميعاد من قبل الكاثوليك، وبعد حكمها بكفاءة من البديهي إمكانية حراسة مصر بعدد قليل من الرجال، وبنفقات معتدلة في غياب صاحبها، لأن العدو سوف يكون قادراً فقط على دخول البلاد بوساطة البحر قرب القاهرة، نظراً لحصانة القلاع في الصحراء، وحسبما جرى التبيان في الرسالة، عندما يجري إقامة السلام بين الأمراء الكاثوليك، ويتم تأمين مساعدات متبادلة ونجدات في وقتها، ما من أحد سوف يتجرأ على شن أية حرب ضدهم، وإذا ما فعل أحد ذلك، سوف يحاصر، ويرغم على الفرار بوساطة عدد كبير من الحملات من أماكن مجاورة له، وسوف يحصل ملك مصر على العون من طائفة الرهبان الملكيين ومن الأمراء الآخرين، وسوف تتدفق عليه حشود من العساكر الجبارة من أجل الحصول على الثروة، لأنه بانعدام

الحروب في الوطن سوف يجلسون بلاعمل في أراضيهم المحلية، غير قادرين على العيش بشرف، بدون فقر، وسوف يتمكن — بعون الرب — من أن يضع تحت إشرافه الشعوب الشرقية، حتى الذين يعيشون فيما وراء البحر المتوسط حتى الغرب، وأن يجذبهم إلى العقيدة المسيحية، هذا وإن إيجاد العلماء الذين تقدم ذكرهم في الرسالة المتقدمة، سوف يكون له فائدة كبيرة في هذا المجال.

وبسبب التأثير الطيب للوثام السماوي، فإن الذين حمل بهم، وولدوا، ونشأوا في مملكة فرنسا، خاصة في أحواز باريس، سيكونون بشكل طبيعي متفوقين بالسما، وبالشجاعة، وبالقوة، وبالأخلاق، وبالجمال، على الذين ولدوا في بلدان أخرى، وعلى هذا ينبغي بقاء ابن ملك فرنسا — الموهوب طبيعياً والمتفوق على جميع الآخرين — في فرنسا بشكل دائم، حتى يكون، قبل مماته، قد ترك عدداً كبيراً من الأولاد، من أجل تنشئتهم وتدريبهم هناك، وقبل أن يموتوا يكونوا أيضاً بدورهم قد فعلوا مثل متقدميهم، وبهذه الطريقة من الممكن حمل، وولادة، وتنشئة، وتعليم ملكي عكا ومصر، وامبراطور القسطنطينية — إذا توفرت الرغبة بوجود خلفاء للامبراطور الحالي — في فرنسا، ولسوف يحظون بشكل دائم بحصة من الأجواء الرائعة لملك فرنسا، ومن شجاعة وجمال السكان المحليين، ولسوف يحبون ملك فرنسا، وأميرها الرئيسي، وأولاده، وجميع الفرنسيين من بارونات وشعب، ولسوف يبذلون أقصى جهودهم لتأمين البضائع الشرقية الثمينة وتجهيز المملكة كلها بها، ولهذا قيل يمكن للابن أن يعود إلى السيد الأب، دون التعرض لمزيد من المخاطر، ويمكن لحفيد أن يخلف أباه في قيادة الجيش، وبناء عليه سوف تحظى شعوب الشرق بأن يكون حاكمها في ريعان شبابه وجماله الطبيعي، وسيرغبون فوق كل شيء برؤيته، ولسوف يخافون منه عندما يرون الشاب المتألق يقوم بحملة شجاعة مثل رجل بالغ تماماً.

١١ : وإذا ما قال إنسان : « ربما سيرفض ملك قبرص الأخذ بالمقترحات المتقدمة أعلاه »، يمكن إجابته بأن هذا مستبعد تماماً، بما أن ليس لديه لا زوجة ولا ولد، وهو يعيش مثل راهب في بيته، وقد اعتاد على ممارسة حياة التأمل، وأخوه وخليفته المتوقع إذا ما مات ملفوظ وليس له وصية، لأنه سرقة، ونهب الثروات التي جمعها ذلك الملك من أجل استرداد الأرض المقدسة، وقد بذل دوماً أقصى جهوده من أجل غزو تلك المملكة ومن أجل انتزاعها وسرقتها، جاعلاً بذلك نفسه أثماً، وغير مؤهل شرعياً لخلافة أخيه، فقد تأمر مراراً من أجل إماتة ذلك الملك، وحاول أن يتدبر اغتياله، وبناء عليه سوف يكون مفيداً أن يتم الاتصال بملك قبرص هذا، بسرعة وبسرية لصالح السيد البابا، بواسطة رجل عاقل مع وكيل الملك الموجود داخل هيئة الكرادلة الرومان، الذي اسمه الفارس بومندوس Bomundus الذي يدعى بونين Bonin ، وهكذا من الممكن صنع كل شيء باتفاق عام، مع تجنب كامل للخلاف، وبعد دخول الملك في الطائفة والتخلي عن ملكه، سيكون مفيداً منح أخو الملك منطقة جيدة في أرض الميعاد أو في مكان آخر، حتى يبقى هادئاً، وإذا ما رفض ملك قبرص الدخول في هذا المشروع، يمكن وقفها لملك صقلية أن يمارس حقه، أو أن يحوّله إلى إنسان آخر، أو أن يقوم كونت أوف بريين بالسعي وراء حقه الذي قيل بأنه يمتلكه في مملكة قبرص، إذا كان ما يزال موجوداً، ففي ذاكرة الناس منذ وقت طويل أن مملكة قبرص حق لهذا الكونت لو أنه ذهب إلى هناك، وبعد الاستيلاء على مملكة القدس من قبل ملكها والكاثوليك الآخرين — إن شاء الرب — وبمعونة ملك صقلية، يمكن لملك صقلية هذا، بالإضافة لنيله ثمن مملكة القدس، أن ينال وعداً بنيل مملكة تونس، القائمة على مقربة كبيرة من صقلية، إلى حد أنه لا بد لواحد من هذين البلدين من الاستيلاء على الآخر.

وبعد وضوح ردة وكفر الداوية، الأمر الذي كان ظاهراً منذ تأسيس هذه الطائفة، ولهذا يبدو أنه سيكون عملاً مشرفاً جداً، وله فوائد دائمة وعظيمة لمملكة فرنسا ولملكها — الذي برهن بنفسه وبأعماله أنه أكثر المسيحيين دعماً للكنيسة — أن يقوم بشكل شرعي وقانوني بإزالة الهرطقة الفاسقة للبابا بونيفيس، ولا يمكن لخليفة بونيفيس أن يعلن بوضوح بأن بونيفيس هذا كان مهرطقاً، إلا من خلال مجمع عام، وبناء على نصيحة ذلك المجلس وموافقته، ويبدو أن هذا الإجراء لا يمكن اتخاذه قانونياً بطريقة أخرى، لذلك يبدو من المناسب عقد مجمع لهذه الغاية، وسيكون في الوقت نفسه مفيداً إعدادا للشهود، ومواد الشكوى التي ينبغي برهنتها، لأنه بذلك عندما يكون كل شيء قد جرى تحضيره بشكل جيد ويات جاهزاً، من الممكن التوصل إلى محصلة بكل سرعة، وسيغدو مثل هذا الظلم مرعوباً من قبل الجميع، أما المحرض على تدمير الهرطقة فسيكون محموداً في كل مكان، ومن قبل كل إنسان، ويمكن بسهولة أكبر تحقيق مطالبه، مهما كانت نوعية هذه المطالب.

وقد قيل أنه بينما كان بونيفيس المذكور يلفظ أنفاسه، كان هناك أربعة رهبان يتولون رعايته، وقد قال أحدهم له على مسمع من الآخرين: «أبانا المقدس، أودع روحك في أيدي العذراء مريم المباركة»، فأجابه: «الزم الصمت أيها الشقي، نحن لا نثق بتلك الأتان ولا بفلوها».

ويحكى أنه تلقى خمسين ألف فلورين حتى يلزم الصمت تجاه خطيئة الداوية، التي كان على دراية بها، ولذلك ينبغي قبل أن يموت الداوية، أن يجري إحضارهم واتخاذهم شهود عيان على ذلك، خشية أن يختفي البرهان معهم، أي مع الذين على دراية بهذه المسألة وبمسائل أخرى.

ولأن البابا [كليمنت الخامس] يقترح الانسحاب من السيد الملك، لعله يرضي ذلك السيد الملك أن يجعل نفسه على الفور عارفاً بالحقائق المقدمة هنا، وهكذا إذا ما رأى مناسباً يمكنه أن يتحاور مع البابا

ويتشاور حول هذه القضايا، وليكن ذلك بينهما على انفراد، وعلى شكل
معلن، تماشياً مع كلمة ربنا يسوع الذي قال: «سيروا ما دام لكم
النور» [يوحنا : ١٢ / ٣٥].

جريدة المصادر المعتمدة

List of Works Cited

I. THE WRITINGS OF PIERRE DUBOIS

[1300] *Summaria brevis et compendiosa doctrina felicitis expeditionis et abbreviationis guerrarum ac litium regni Francorum.*

From the Cod. Lat. No. 6222C, fols. 1-34, in the Bibliothèque nationale. Edited by Hellmut Kämpf. Leipzig and Berlin: Teubner, 1936. 'Quellen zur Geistesgeschichte des Mittelalters und der Renaissance,' ed. W. Goetz, Vol. IV.

Summary: The first part deals with the art of war, to which the author's attention was attracted by the disastrous expedition of Philip III against Aragon in 1285. After suggesting improved war tactics, he points out the advantages of his new method to the king and people of France. By following the precedent of Charlemagne the king might make himself master of Italy, assume the temporal power now wielded by the pope, and then go on to make himself master of Germany, eastern Europe, and the Greek Empire.

The second and longer part is devoted to a discussion of various reforms. Ecclesiastical infringements on civil jurisdiction should be halted; specific suggestions are made for accomplishing this. Considerable space is devoted to improved and shorter methods of court procedure. These reforms may readily be effected by royal decree, models for which are included. Ecclesiastics are scolded for their hypocrisy; their lives are in sharp contrast to their moral preaching. If the king will only enforce the suggested reforms, the French people will enjoy peace and prosperity.

[1302] *Rationes inconvincibiles.* Lost.

Known only through a brief summary in chapter III of the *De recuperatione*. Written at Paris 'on the Sabbath day preceding the Sunday of the publication of the papal iniquity [the bull *Ausculta fili*],'¹ and entrusted to Richard Lencveu, bishop of Béziers, for transmission to the king.

Summary: The Supreme Judge, because of the wickedness and avarice of the Romans, will withdraw the papacy from them and grant it to a man of high character who will not emulate his predecessor (Boniface VIII) by snatching at others' liberties. For similar disobedience to divine precepts King Saul was punished by the loss of his kingdom.

¹ The bull *Ausculta fili* was dated December 5, 1301, but did not reach France for formal publication there until 1302. Its bearer, the archdeacon of Narbonne, sought to present it formally to Philip IV on February 10, but was interrupted. From this chronology of events it seems fair to assign the composition of the tract to 1302.

Works Cited

The title appears in the manuscript, but in another ink and another hand. Lizerand entitled it *Populi Franciae ad regem supplicatio*.³

Summary: A difference has arisen between the king and the pope in the matter of punishing the Templars. Certain laws have been cited in support of the papal position, but these laws apply only to those who with some show of reason are separated from the Roman Church, such as the Greeks, and not to manifest heretics. Moses followed the proper procedure when, without the consent of the high priest Aaron, he put to death twenty-two thousand for worshipping the golden calf. The king should follow his example. The Templars are all homicides, guilty of consorting with apostates and assassins; by apostolic example all should be punished so that the punishment of one may rouse fear in others. Moses was a lawgiver, not a priest, for a priest would not have put the people to death. The Lord forbade David to build the temple, because he was a man of blood. One should not listen to those who pervert Scripture for their argument; one should rather apply to the most Christian king the beatitude, 'Blessed are they that keep judgment and do justice at all times' (Ps. 105:3).

[1308] [A revised version of the *De recuperatione*.]- Lost.

It was addressed to the pope and forwarded to Philip IV during his stay at Chinon. Dubois referred to it briefly in chapters 2 and 9 in the document translated as an Appendix in the present volume, and also in the *Pro facto Terre Sancte*.

Summary: Repeats the suggestions in the *De recuperatione* for the recovery and maintenance of the Holy Land, the establishment of peace among Christians, and the foundation of schools for the training of prospective colonists. The only new point is the recommendation for the unification of the military orders under the headship of the king of Cyprus.

[1308] [*Pro facto Terre Sancte*].

From the MS Lat. 10919, fol. 109v, in the Bibliothèque nationale. Edited

³ There is some question about the tracts against the Templars. Langlois, in his Introduction, p. xii, refers to three tracts of 1308 against the Templars, citing Boutaric's article in *Notices et extraits*, XX, 175-81, as his source. But these pages contain only two tracts, the *Remontrance* and the *De facto Templariorum*. *Pro facto Terre Sancte* (pp. 186-89, Document No. XXX), the third tract which Boutaric attributed directly to Dubois, makes no mention of the Templars. These three tracts are found in the MS Lat. 10919. Boutaric also edited another tract of 1308 against the Templars (pp. 182-86, Document No. XXIX), which he entitled *Quaedam proposita pape a rege super facto Templariorum*. This is not found in the MS Lat. 10919, but in a manuscript which Boutaric identified as Or. Arch. de l'emp. J 413, No. 34. It purports to be a letter addressed by Philip IV to the pope, but is obviously not by Philip, for it speaks of the king in the third person, and does not close with the date and provenance as a genuine letter would. Renan (*Histoire littéraire*, XXVI, 483 f.) ascribed it to Dubois; Boutaric is noncommittal. In my opinion it is not by Dubois, despite the fact that it includes Dubois' favorite reference to *Leviathan testiculi*. The style is terse and direct, well organized, unlike the diffuse style characteristic of Dubois. I have therefore concluded to reject it.

Works Cited

by Boutaric in *Notices et extraits*, XX (1862), Part II, 186-89, Document No. XXX.

Written during the interregnum between the death of Emperor Albert I (May 1, 1308) and the election of Henry VII (October 28, 1308).

Summary: The king of France, with the support of the pope and the cardinals, might readily gain the Empire for himself and his heirs. The pope could suspend the power of the electors; they should be punished for having elected emperors hostile to the Church, just as the imperium was taken from Constantinople and given to Charlemagne. The archbishops can be coerced by the pope, who has the right to withdraw the elective power from the other electors; their goodwill may be secured by the grant of lands and money from the tithes of German churches. The electors would probably not refuse such terms; the new Emperor could recover any losses from Lombardy, Genoa, and Venice. This would give him a land route to the Holy Land, necessary because of the shipping shortage. The establishment of universal peace through the means suggested elsewhere by the author would make it possible for the French king to govern both France and the Empire. He ought also to take over the papal patrimony, thereby gaining suzerainty over the pope's vassals. The proud Italians would be humbled. Germany, teeming with people, would populate the Holy Land and Greece with loyal citizens. If conquered, the Holy Land can be maintained only by a large influx of people; for such an influx the land route through Germany, Hungary, and Greece is necessary.

[1308] [*Oppinio cujusdam suadentis regi Franciae ut regnum Jerosolimitanum et Cipri acquireret pro allero filiorum suorum, ac de invasione Egipti.*]

From the MS Lat. 10919, fols 82r to 86r, in the Bibliothèque nationale. First published, with an omission, by Baluze, *Vitae paparum Avenionensium* (Paris, 1693), II, 186-95, from which Langlois republished it, with further omissions, as an Appendix to the *De recuperatione*. It is given complete in Mollat's edition of Baluze (Paris, 1914-27), III, 154-62.

The title is in a fifteenth-century hand and is therefore not contemporaneous with the manuscript. The tract is translated in its complete form as an Appendix to the present volume.

[1313] *De torneamentis et justis.*

From the MS Reg. Lat. 1642, fols. 41v to 42v, in the Vatican Library. Analyzed and edited in part by C. V. Langlois, 'Un Mémoire inédit de Pierre Du Bois, 1313: *De torneamentis et justis*,' *Revue historique*, XLI (1889), 84-91.

Summary: A bull has recently been issued prohibiting tournaments under pain of excommunication. The royal family and the nobility ask for its temporary suspension. If not suspended, grave scandal will arise, for the French knights will ignore the prohibition and others will follow their example. The projected crusade will fail if led by men under

Works Cited

the ban. Of two evils, choose the lesser. Tournaments should be permitted, just as excessive eating is permitted on the approach of Lent. Ecclesiastical discipline should aim to chastise and heal rather than to precipitate into error; those who have concubines are not required to abjure them lest they may, at the devil's instigation, return to fornication and thus become perjurers. The Church should make exceptions; kings are not to be treated like other men. If an unbearable burden is placed on a youth's shoulders, he either drops it or breaks under the strain. The prayers of a king should be listened to, for the wrath of a king is the messenger of death. Tournaments are not *per se* illicit, and the prohibition is not founded on canon law. Tournaments prepare the knights to fight the infidel; why not reserve the privilege for prospective crusaders? Let the penalties remain in force as a caution against killing men or injuring souls. The pope need not fear to change his mind; God changed much in the New Testament which He had commanded in the Old. Even St. Paul changed his mind on circumcision of the Jews.

II. WORKS ON DUBOIS AND HIS TIMES

Adamson, John William. 'The Illiterate Anglo-Saxon' and Other Essays on Education, Medieval and Modern. New York: Macmillan, 1947.

A sprightly summary of Dubois' ideas, pp. 77-91.

Aegidius Romanus. *De ecclesiastica potestate*. Ed. Richard Scholz. Weimar: H. Böhlau Nachfolger, 1929.

— *De regimine principum*. Ed. Jerome Samartanius. Rome: Bartholomaeus Zannettus, 1607.

A thirteenth-century French version has been edited by Samuel P. Molenae (New York and London: Macmillan, 1899).

Alexander de Villa-Dei. *Das Doctrinale des Alexander de Villa-Dei*. Kritisch-exegetische Ausgabe, mit Einleitung, Verzeichnis der Handschriften und Drucke nebst Registern. Ed. Dietrich Reichling. Berlin: Hofmann, 1893. 'Monumenta Germaniae paedagogica,' Vol. XII.

One of the textbooks recommended by Dubois.

Andrieu-Guitrancourt, Pierre. *Eudes Rigaud et la vie de l'église au XIIIe siècle, d'après le Registrum visitationum*. Paris: Librairie du Recueil Sirey, 1938.

Atiya, Aziz S. *The Crusade in the Later Middle Ages*. London: Methuen, 1938.

A significant contribution to the history of the later crusades and of the theorists who proposed new crusades.

Bacon, Roger. *Opera quaedam hactenus inedita*. Ed. John S. Brewer. London: Longman, Green, Longman & Roberts, 1859. 'Rolls Series,' No. 15.

Includes the *Opus tertium*, the *Opus minus*, and the *Compendium studii philosophiae*.

Works Cited

- The *Opus majus* of Roger Bacon. Ed. John H. Bridges. New ed. 3 vols. London: Williams & Norgate, 1900.
Vol. III of the new edition contains a revised text of the first three parts as they appeared in the Oxford edition of 1897, with corrections, emendations, and additional notes. The English translation by Robert Belle Burke (2 vols.; Philadelphia: University of Pennsylvania Press; London: Humphrey Milford, Oxford University Press, 1928) is based on the revised text. My citations are to the edition of 1900 and to Burke's translation.
- Baeumker, Clemens: *see* Siger de Brabant.
- Baluze, Etienne. *Vitae paparum Avenionensium; hoc est, Historia pontificum Romanorum qui in Gallia sederunt ab anno Christi MCCCIV usque ad annum MCCCXCIV*. Ed. Guillaume Mollat. 4 vols. Paris: Letouzey et Ané, 1914-27.
Originally published in 1693. Mollat consulted the original manuscripts, which enabled him to rectify certain errors and omissions in the original edition.
- Baudouin, Adolphe: *see* Philip IV.
- Beazley, Charles Raymond. *The Dawn of Modern Geography: A History of Exploration and Geographical Science*. 2d ed. 3 vols. London: H. Froude; Oxford: Clarendon Press, 1905-6.
Originally published in two volumes (London: J. Murray, 1897-1901). Volumes I and II of the second edition were published by Froude; Volume III was published by the Clarendon Press.
- Beck, Henry J. G. 'William Hundleby's Account of the Anagni Outrage,' *Catholic Historical Review*, XXXII (1946), 190-220.
William of Hundleby served as procurator at the Roman *curia* for John Dalderby, bishop of Lincoln, 1300-20. He wrote this letter September 27, 1303. Latin text with English translation.
- Berthier, André. 'Les Ecoles de langues orientales fondées au XIII^e siècle par les Dominicains en Espagne et en Afrique,' *Revue africaine*, LXIII (1932), 84-103.
- Beugnot, Arthur A., Comte, ed. *Les Olim, ou registres des arrêts rendus par la cour du roi sous les règnes de saint Louis, de Philippe le Hardi, de Philippe le Bel, de Louis le Hutin, et de Philippe le Long*. 3 vols. Paris: Imprimerie royale, 1839-48. 'Collection de documents inédits sur l'histoire de France,' No. 65.
- Bientinesi, Giuseppina. 'Vincenzo di Beauvais e Pietro Dubois considerati come pedagogisti,' *Atti della reale accademia delle scienze di Torino*, LI (1915-16), 1411-30; LII (1916), 191-207.
- Bigwood, Georges. 'La Politique de la laine en France sous les règnes de Philippe le Bel et de ses fils,' *Revue belge de philologie et d'histoire*, Brussels, XV (1936), 79-102, 429-57; XVI (1937), 95-129.
A thorough study of export dues, a chapter in the financial history of the reign of Philip IV.

Works Cited

- Boase, Thomas S. R. Boniface VIII. London: Constable, [1933]. 'Makers of the Middle Ages.'
- Bongars, Jacques. *Gesta Dei per Francos sive orientalium expeditionum et regni Francorum Hierosolimitani historia*, a variis, sed illius aevi, scriptoribus, litteris commendata. 2 vols. in 1. Hanover: John Aubrius, 1611.
- Although almost wholly superseded by the magnificent *Recueil des historiens des croisades*, there are still a few writers whose works are not available in any edition later than that of Bongars. Copy in the New York Public Library.
- Borrelli de Serres, Léon. *Les Variations monétaires sous Philippe le Bel et les sources de leur histoire*. Paris: Picard, 1902.
- Boutaric, Edgard Paul. *La France sous Philippe le Bel: étude sur les institutions politiques et administratives du moyen âge*. Paris: H. Plon, 1861.
- 'Les Idées modernes chez un politique du XIV^e siècle: Pierre Du Bois,' *Revue contemporaine*, sér. 2, XXXVIII (1864), 417-47. (Whole number, Vol. LXXIII.)
- A reprint of his paper read before the Académie des inscriptions et belles-lettres on February 5, March 4 and 11, 1864, which appeared under a different title in the Academy's *Comptes rendus*, VIII (1864), 84-106. Dubois' ideas are discussed in the light of contemporary events in Italy and the Near East.
- *Institutions militaires de la France avant les armées permanentes, suivies d'un aperçu des principaux changements survenus jusqu'à nos jours dans la formation de l'armée*. Paris: H. Plon, 1863.
- 'Mémoire sur la vie, les œuvres et les doctrines politiques de Pierre Dubois, légiste du quatorzième siècle,' *Comptes rendus de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, VIII (1864), 84-106.
- An analysis, with historical background, of the *De recuperatione*.
- 'Notices et extraits de documents inédits relatifs à l'histoire de France sous Philippe le Bel,' *Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque nationale et autres bibliothèques*, XX (1862), Part II, 83-237.
- Includes the earliest, and sometimes the only, edition of certain minor pamphlets by Dubois.
- Brandt, Walther I. 'Pierre Dubois: Modern or Medieval?,' *American Historical Review*, XXXV (1930), 507-21.
- Contends that nearly all of Dubois' ideas may be found in the writings of his contemporaries or near predecessors.
- Bréhier, Louis. *L'Eglise et l'Orient au moyen âge: les croisades*. 4th ed. Paris: Lecoffre, 1921. 'Bibliothèque de l'enseignement de l'histoire ecclésiastique.'
- Useful for an account of the later crusading efforts. The edition of 1928 was not available.
- Brocard. *Directorium ad passagium faciendum per Philippum* [VI]

Works Cited

- regem Franciae in Terram sanctam anno 1332. Ed. Kohler, in *Recueil des historiens des croisades, documents arméniens*, II, 367-517.
- Callery, Alphonse. 'Les Premiers États Généraux: origine, pouvoirs et attributions,' *Revue des questions historiques*, XXIX (1881), 62-119.
- Holds that summoning the estates was a recognition of feudalism, not a denial of it.
- Capitanovici, Georgius J. Die Eroberung von Alexandria durch Peter I von Lusignan, König von Cypern, 1365. Berlin: R. Heinrich, 1894.
- Carlyle, Sir Robert W., and Alexander J. Carlyle. A History of Mediaeval Political Theory in the West. 6 vols. Edinburgh and London: Blackwood & Sons, 1903-36.
- Carter, Thomas F. The Invention of Printing in China and Its Spread Westward. Rev. ed. New York: Columbia University Press, 1931.
- Cato. The Distichs of Cato: A Famous Medieval Textbook. Translated from the Latin by Wayland W. Chase. Madison, Wis.: University of Wisconsin Press, 1922. 'University of Wisconsin Studies in the Social Sciences and History,' No. 7.
- One of the textbooks recommended by Dubois.
- Chartularium universitatis Parisiensis. Ed. H. Denifle and E. Chatelain. 4 vols. Paris: Delalain, 1889-97.
- The standard collection of source material on the medieval University of Paris.
- Chénon, Emile. Histoire générale du droit français public et privé, des origines à 1815. 2 vols. Paris: Recueil Sirey, 1926-29.
- Relies heavily upon the earlier work of Tardif.
- Christensen, Heinrich. Das *Alexanderlied* Walters von Châtillon. Halle: Buchhandlung des Waisenhauses, 1905.
- Chronicles and Memorials of the Reign of Richard I. Ed. John S. Brewer. 2 vols. London: Longman, Green, Longman & Roberts, 1864-65. 'Rolls Series,' No. 38.
- Chronicles of the Crusades, Being Contemporary Narratives of the Crusades of Richard Cœur de Lion, by Richard of Devizes and Geoffrey de Vinsauf, and of the Crusade of St. Louis, by Lord John de Joinville. London: H. G. Bohn, 1848.
- Colonna, Egidio: *see* Aegidius Romanus.
- Corpus chronicorum Flandriae. Ed. J. J. de Smet. 2 vols. Brussels: M. Hayez, 1837-65. 'Collection de chroniques belges inédites,' ed. J. H. Borgnet *et al.*, No. 3.
- Corpus juris canonici. Editio Lipsiensis secunda post Aemilii Ludouici Richteri curas ad librorum manu scriptorum et editionis Romanae fidem. Ed. Aemilius Friedberg. 2 vols. Leipzig: Tauchnitz, 1879-81.
- My citations are from the 1928 reprint.
- Corpus juris civilis. Ed. P. Krüger, T. Mommsen, *et al.* 3 vols. Berlin: Weidmann, 1872-95.
- This standard edition of Roman civil law comprises the *Institutiones*,

Works Cited

- the *Digesta*, the *Codex*, and the *Novellae*. It has frequently been reissued in whole or in part.
- Coulton, George G. *Five Centuries of Religion*. 4 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1923-50.
- Crowley, Theodore. *Roger Bacon: The Problem of the Soul in His Philosophical Commentaries*. Louvain: Institut supérieure de philosophie, 1950.
- Written in 1939. See especially chap. i, 'Roger Bacon's Life and Works,' pp. 17-78.
- Curley, Sister Mary Mildred. *The Conflict Between Pope Boniface VIII and King Philip IV, the Fair*. Washington, D.C.: Catholic University of America, 1927.
- A useful feature is the English translation of a number of documents not otherwise readily accessible.
- Delaville le Roulx, Joseph M. *La France en Orient au XIV^e siècle: expéditions du maréchal Boucicaut*. 2 vols. Paris: E. Thorin, 1886. 'Bibliothèque des Ecoles françaises d'Athènes et de Rome,' fasc. 44-45.
- Valuable for the later crusading movement. Based in part on manuscript materials as yet unedited.
- Delhay, Philippe: see Siger de Brabant.
- Delisle, Léopold Victor. 'Le Clergé normand au XIII^e siècle, d'après le *Registrum visitationum archiepiscopi Rothomagensis*; Journal des visites pastorales d'Eude Rigaud, archevêque de Rouen, 1248-1269,' *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, sér. 2, III (1846), 479-99. (Whole number, Vol VIII.)
- 'Mémoire sur les opérations financières des Templiers,' *Mémoires de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, XXXIII (1889), Part II, 1-246.
- Pages 95-246 comprise documents, with brief explanatory notes.
- Sets forth the important role played by the order in the public finances of France in the thirteenth century.
- Della Vigna, Piero: see Piero della Vigna.
- Devic, Claude, and Jean J. Vaissete. *Histoire générale de Languedoc*. Ed. Edouard Dulaurier *et al.* 16 vols. Toulouse: E. Privat, 1872-1904.
- Digard, Georges A. L. *Philippe le Bel et le Saint-Siège de 1285 à 1304*. Ouvrage posthume publié par Françoise Lehoux. 2 vols. Paris: Recueil Sirey, 1936.
- Sums up the results of a generation of research.
- Documents historiques inédits tirés des collections manuscrites de la Bibliothèque royale et des archives ou des bibliothèques des départements*. Ed. [J. J.] Champollion-Figeac *et al.* 4 vols. Paris: Firmin Didot frères, 1841-48. 'Collection de documents inédits publiés par ordre du roi et par les soins du ministre de l'instruction publique. Mélanges historiques.'
- Donatus. *The Ars minor of Donatus: For One Thousand Years the Leading*

Works Cited

Textbook of Grammar. Translated from the Latin by Wayland J. Chase. Madison, Wis.: University of Wisconsin Press, 1926. 'University of Wisconsin Studies in the Social Sciences and History,' No. 11.

One of the textbooks recommended by Dubois.

Dupuy, Pierre. Histoire de la condamnation des Templiers, celle du schisme des papes tenans le siège en Avignon et quelques procès criminels. Ed. M. Gurtler. 2 vols. Brussels: Foppens, 1713.

Copy in the Library of Congress.

[—]. Histoire du différend d'entre le pape Boniface VIII et Philippes [*sic*] le Bel, roy de France, où l'on voit ce qui passa touchant cette affaire, depuis l'an 1296 iusques en l'an 1311 sous les pontificats de Boniface VIII, Benoist XI & Clement V; ensemble le proces criminel fait a Bernard évesque de Pamiez l'an MCCXCIV; le tout iustifié par les Actes et mémoires pris sur les originaux qui sont au Tresor des chartes du Roy. Paris: Sebastien Cramoisy, 1655.

This compilation is not readily accessible, but it is nevertheless indispensable for a study of the period. It includes the only edition of two of Dubois' pamphlets. The pagination is confusing. It begins with a narrative account of the affair in French and in Latin, each pagged separately. This is followed by an elaborate table of contents, of ten unnumbered pages. The all-important Actes et preuves begins with a third separate numbering, which extends through the sources for Boniface VIII, Benedict XI, and Clement V, and continues unbroken through the sources for the trial of Bishop Guichard and the *Quaestio de potestate papae*, at one time attributed to Dubois. It is generally catalogued under 'Dupuy,' although his name does not appear on the title page. Copy in the Harvard Library.

— Traitéz concernant l'histoire de France; sçavoir la condamnation des Templiers, avec quelques actes; l'histoire du schisme; les papes tenans le siège en Avignon; et quelques procesz criminels. Paris: Dupuy, 1654.

Copy in the New York Public Library.

Duval, Frédéric Victor. De la paix de dieu à la paix de fer. Paris: Paillard, 1923. 'Gesta pacis. Etudes historiques sur la question de la paix.'

Easton, Stewart C. Roger Bacon and His Search for a Universal Science: A Reconsideration of the Life and Work of Roger Bacon in the Light of His Own Stated Purposes. Oxford: Basil Blackwell; New York: Columbia University Press, 1952.

Eberhard of Béthune. Eberhardi Bethuniensis Graecismus. Ad fidem librorum manu scriptorum recensuit lectionum uarietatem adiecit indices locupletissimos et imaginem codicis Melicer sis photolithographicam. Ed. Joh. Wrobel. Breslau: Koebner, 1887. 'Corpus grammaticorum medii aevi,' Vol. I (no more published).

One of the textbooks recommended by Dubois. Copy in the Columbia University Library.

Works Cited

- Ehrle, Franz. 'Ein Bruchstück der Acten des Concils von Vienne,' *Archiv für Literatur- und Kirchengeschichte des Mittelalters*, hrsg. von H. Denifle und F. Ehrle, IV (1888), 361-470.
Includes a number of pertinent documents illustrating the jurisdictional strife between the secular and ecclesiastical authorities.
- Esmein, Adhémar. *A History of Continental Legal Criminal Procedure, With Special Reference to France*. Trans. John Simpson. Boston: Little, Brown, 1913. 'Continental Legal History Series,' [Vol. V].
- Le Mariage en droit canonique. Ed. Robert Génestal and Jean Dauvillier. 2 vols. Paris: Recueil Sirey, 1929-35.
Originally published in 1891.
- Fawtier, Robert. 'L'Attentat d'Anagni,' *Mélanges d'archéologie et d'histoire* (Ecole française de Rome), LX (1948), 153-79.
Contends that Nogaret was not responsible for the violence at Anagni. Fawtier's position is challenged by M. Melville, 'Guillaume de Nogaret et Philippe le Bel.'
- Les Capétiens et la France: leur rôle dans sa construction. Paris: Presses universitaires de France, 1942.
- L'Europe occidentale de 1270 à 1380: première partie, de 1270 à 1328. Paris: Presses universitaires de France, 1940. 'Histoire générale, publ. G. Glotz; Histoire du moyen âge,' Vol. VI, No. 1.
Integrates English, French, and Spanish history. Criticizes the chief theories as to the origins of national assemblies. Contends that Philip himself was the directing force in French policy, that Philip actually considered Boniface VIII to be a usurper, and that the Templars were guilty as charged.
- Figgis, John N. 'A Forgotten Radical [Pierre Dubois],' *Cambridge Review*, XXI (1900), 373-74.
- Finke, Heinrich. *Acta Aragonensia: Quellen zur deutschen, italienischen, französischen, spanischen, zur Kirchen- und Kulturgeschichte, aus der diplomatischen Korrespondenz Jaymes II, 1291-1327*. 3 vols. Berlin: W. Rothschild, 1908-22.
An invaluable collection of documents, mostly from the archives of Barcelona. Vols. I and II are paged continuously, Vol. III separately.
- Aus den Tagen Bonifaz VIII: Funde und Forschungen. Münster: Aschendorff, 1902. 'Vorreformationsgeschichtliche Forschungen,' Vol. II.
Useful for the number of documents printed in full.
- Die Frau im Mittelalter; mit einem Kapitel, 'Die heiligen Frauen im Mittelalter,' von Dr. Lenné. Kempten: J. Kösel, 1913.
- Papsttum und Untergang des Templerordens. 2 vols. Münster: Aschendorff, 1907.
Hans Prutz took issue with some of Finke's conclusions, and a lively

Works Cited

- literary controversy ensued. Bibliography in E. Zeck, *Der Publizist Pierre Dubois*, pp. xi-xvi.
- 'Die Stellung der Frau in Mittelalter,' *Internationale Wochenschrift für Wissenschaft, Kunst und Technik*, IV (1910), 1243-58, 1285-1302.
Based on lectures delivered by the author in Freiburg-im-Breisgau during the winter of 1909-10.
- 'Zur Charakteristik Philipps des Schönen,' *Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung*, XXVI (1905), 201-24.
- Fliche, Augustin. *Etudes sur la polémique religieuse à l'époque de Grégoire VII: les prégrégoriens*. Paris: Société française d'imprimerie et de librairie, 1916.
- Fournier, Paul. 'Guillaume du Breuil, juriste.' In *Histoire littéraire*, XXXVII (1938), 120-46.
- *Le Royaume d'Arles et de Vienne (1138-1378): étude sur la formation territoriale de la France dans l'est et le sud-est*. Paris: Picard, 1891.
- Funck-Brentano, Frantz. 'Mémoire sur la bataille de Courtrai (1302, 11 juillet) et les chroniqueurs qui en ont traité, pour servir à l'historiographie du règne de Philippe le Bel,' *Mémoires présentés par divers savants à l'Académie des inscriptions et belles-lettres de l'Institut de France*, sér. 1, X (1893), 235-325.
- *Les Origines de la guerre de cent ans: Philippe le Bel en Flandre*. Paris: Champion, 1897.
Extensive bibliography, pp. xi-xxii.
- Funke, Paul. *Papst Benedikt XI*. Münster: H. Schöningh, 1891. 'Kirchengeschichtliche Studien,' hrsg. von Knöpfler *et al.*, Vol. I.
- Gautier de Châtillon. *Alexandreis*. Ed. Friedrich A. W. Müldener. Leipzig: Teubner, 1863.
An older edition is reprinted in Migne, *Pat. Lat.*, CCIX, 463-572.
From this poem Dubois derived much of his knowledge of ancient history.
- Gewirth, Alan. *Marsilius of Padua: The Defender of Peace*. Vol. I. New York: Columbia University Press, 1951. 'Records of Civilization, Sources and Studies,' No. XLVI.
A detailed analysis of Marsilius' ideas in the light of medieval philosophy; a supplementary volume will comprise the translation of the *Defensor pacis*.
- Gilles de Rome: *see* Aegidius Romanus.
- Giordano, Carlo. *Alexandreis*, poema di Gauthier de Châtillon. Naples: Federico & Ardia, 1917.
- Gmelin, Julius. *Schuld oder Unschuld des Tempelordens. Kritischer Versuch zur Lösung der Frage*. Stuttgart: Kohlhammer, 1893.
- Goldast, Melchior, ed. *Monarchia s. Romani imperii*. 3 vols. Hanover and Frankfurt: Conrad Biermann, 1611-14.
This excessively rare publication is still the only source for editions

Works Cited

- of a number of treatises illustrative of late medieval political thought.
Copy in the Columbia University Library.
- Gotttron, Adam. Ramon Lulls Kreuzzugsideen. Berlin and Leipzig: W. Rothschild, 1912. 'Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXXIX.
- Grabmann, Martin. 'Neu aufgefundene Quaestiones Sigers von Brabant zu den Werken des Aristoteles (Clm. 9559).' In *Miscellanea Francesco Cardinale Ehrle*, I, 103-47.
- 'Neu aufgefundene Werke des Siger von Brabant und Boetius von Dacien,' *Sitzungsberichte der bayerischen Akademie der Wissenschaften, philosophisch-philologische und historische Klasse*, Jahrgang 1924, Part II, 1-48.
- Graefe, Friedrich. Die Publizistik in der letzten Epoche Kaiser Friedrichs II: ein Beitrag zur Geschichte der Jahre 1239-1250. Heidelberg: C. Winter, 1909. 'Heidelberger Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXIV.
- Grauert, Hermann. 'Aus der kirchenpolitischen Traktatenliteratur des 14. Jahrhunderts,' *Historisches Jahrbuch*, XXIX (1908), 497-536.
- A detailed discussion of the anonymous *Tractatus de iurisdictione imperatoris et imperii*, also known as *Determinatio compendiosa de iurisdictione imperii*.
- 'Dante und die Idee des Weltfriedens,' *Historisch-politische Blätter für das katholische Deutschland*, CXLI (1908), 112-38.
- Originally a 'Festrede' delivered before the Academy on December 14, 1907. Also issued separately in revised form: Munich: K. b. Akademie der Wissenschaften, 1909.
- [A lengthy critical review of Langlois' edition of the *De recuperatione*], *Historisches Jahrbuch*, XII (1891), 807-15.
- Grosseteste, Robert. Roberti Grosseteste episcopi quondam Lincolnensis epistolae. Ed. Henry R. Luard. London: Longman, Green, Longman & Roberts, 1861. 'Rolls Series,' No. 25.
- Grundmann, Herbert. Alexander von Roes, *De translatione imperii*, und Jordanus von Osnabrück, *De prerogativa Romani imperii*. Leipzig: Teubner, 1930. 'Quellen zur Geistesgeschichte des Mittelalters und der Renaissance,' Ed. W. Goetz, Vol. II.
- Jordanus von Osnabrück expressed a German patriotism quite as blatant as the French chauvinism of Dubois.
- Gualterus ab Insulis: see Gautier de Châtillon.
- Guilhiermoz, Paul E. 'De la persistance du caractère oral dans la procédure civile française,' *Nouvelle revue historique du droit français et étranger*, XIII (1889), 21-65.
- Enquêtes et procès: étude sur la procédure et le fonctionnement du Parlement au XIV^e siècle. Paris: Picard, 1892.
- Guillaume le Maire. Livre de Guillaume le Maire. Ed. Célestin Port. In *Mélanges historiques*, II, 189-537. 'Collection de documents inédits sur l'histoire de France,' No. 52.

Works Cited

- Guillaume le Maire, bishop of Angers, died in 1314. The volume includes his *De reformandis in ecclesia*.
- Guillaume de Nangis. Chronicon, et continuator prior. In *Recueil des historiens des Gaules et de la France*, ed. Bouquet, XX, 544-646.
- Habel, Edwin. 'Johannes de Garlandia, ein Schulmann des 13. Jahrhunderts,' *Mitteilungen der Gesellschaft für deutsche Erziehungs- und Schulgeschichte*, XIX (1909), 1-34, 118-30.
- Haller, Johannes. Papsttum und Kirchenreform: vier Kapitel zur Geschichte des ausgehenden Mittelalters. Berlin: Weidmann, 1903.
- Planned as a longer work, but only Vol. I appeared.
- Hamilton, George L. 'Theodulus, a Medieval Textbook,' *Modern Philology*, VII (1910), 169-85.
- Haskins, Charles H. Studies in the History of Mediaeval Science. Cambridge: Harvard University Press, 1924.
- Hauréau, Jean B. 'De recuperatione Terrae Sanctae: traité de politique générale par Pierre Dubois, publié par Ch. V. Langlois, 1891,' *Journal des savants*, 1894, 117-23.
- A lengthy review of Langlois' edition of the *De recuperatione*.
- 'Richard Leneveu, évêque de Béziers.' In *Histoire littéraire*, XXVI, 539-51.
- Hearnshaw, Fossey J. C.: see Power, Eileen.
- Heber, Max. Gutachten und Reformvorschläge für das Viennener Generalconcil, 1311-1312. Leipzig: Fischer & Wittig, 1896.
- Hefele, Karl Joseph von. Conciliengeschichte: nach den Quellen bearbeitet. 2d ed. 9 vols. Freiburg-im-Breisgau: Herder, 1873-90. Vols V and VI edited by A. Knöpfler; Vols. VIII and IX by Cardinal Hergenröther.
- Heidelberger, Franz. Kreuzzugsversuche um die Wende des 13. Jahrhunderts. Berlin and Leipzig: W. Rothschild, 1911. 'Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXXI.
- Henri d'Andeli. Battle of the Seven Arts. Ed. and trans. Louis J. Paetow. Berkeley: University of California Press, 1914. 'Memoirs of the University of California,' Vol. IV, No. 1.
- This thirteenth-century trouvère lists a number of the textbooks which Dubois recommended for his 'modern' curriculum.
- Henry, Abel. 'Guillaume de Plaisians, ministre de Philippe le Bel,' *Moyen Age*, V (1892), 32-38.
- Hervieu, Henri. Recherches sur les premiers états généraux et les assemblées représentatives pendant la première moitié du XIVe siècle. Paris: Thorin, 1879.
- Heyck, Eduard. 'Moderne Gedanken im Mittelalter,' *Die Grenzboten*, LI (1892), Part II, 18-27.
- A popular and superficial analysis of the *De recuperatione*.
- Heyd, Wilhelm von. Histoire du commerce du Levant au moyen-âge. Edition française refondue et considérablement augmentée par l'au-

Works Cited

- teur, publiée sous le patronage de la Société de l'Orient latin, par Fourcy Raynaud. 2 vols. Leipzig: Harrassowitz, 1885-86.
Reprinted in 1923.
- Hill, Sir George: A History of Cyprus. 3 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1948.
- Histoire littéraire de la France. Paris: Imprimerie nationale, 1733—. Vol. XXXVIII appeared in 1949. Title and imprint vary.
- Höfler, Constantin R. von, 'Die romanische Welt und ihr Verhältnis zu den Reformideen des Mittelalters,' *Sitzungsberichte der kaiserlichen [Wiener] Akademie der Wissenschaften, philosophisch-historische Klasse XCI* (1878), 257-538.
- A brief summary of Dubois' ideas, pp. 318-22.
- Holtzmann, Robert. *Französische Verfassungsgeschichte von der Mitte des neunten Jahrhunderts bis zur Revolution*. Munich and Berlin: R. Oldenbourg, 1910. 'Handbuch der mittelalterlichen und neueren Geschichte,' Vol. III.
- 'Philipp der Schöne von Frankreich und die Bulle *Ausculta fili*,' *Deutsche Zeitschrift für Geschichtswissenschaft*, Neue Folge, II (1897), 16-38.
- Contents that the bull was publicly burned.
- Wilhelm von Nogaret: Rat und Grosssiegelbewahrer Philipps des Schönen von Frankreich. Freiburg-im-Breisgau: J. C. B. Mohr, 1898.
- A detailed and well documented account of the part played by Nogaret in his royal master's struggle with the papacy.
- Huberti, Ludwig. *Studien zur Rechtsgeschichte der Gottesfrieden und Landfrieden*. Ansbach: C. Brügel & Sohn, 1892.
- One of the best treatments of the general subject.
- Humbertus de Romanis: see Michel, Karl.
- Jacobus de Voragine. *The Golden Legend of Jacobus de Voragine*. Trans. and adapted from the Latin by Granger Ryan and Helmut Ripperger. 2 vols. New York and London: Longmans, Green, 1941.
- This late thirteenth-century author was recommended by Dubois for study in his proposed schools.
- Jarrett, Bede. *Social Theories of the Middle Ages, 1200-1500*. London: Benn, 1926. 'The Library of European Political Thought,' ed. Harold J. Laski.
- Reprint: Westminster, Md.: Newman Book Shop, 1942.
- John of Garland. *Morale scolarium* of John of Garland (Johannes de Garlandia), a Professor in the Universities of Paris and Toulouse in the Thirteenth Century. Ed. Louis J. Pactow. Berkeley: University of California Press, 1927. 'Memoirs of the University of California,' Vol. IV, No. 2.
- Includes a prose paraphrase in English, which is virtually a translation. The Introduction and wealth of footnotes provide much information about schools and textbooks of the thirteenth century.

Works Cited

- John of Paris. *Tractatus de potestate regia et papali: Interdum contingit*, In M. Goldast, ed., *Monarchia s. Romani imperii*, II, 108-47.
Brief selections from this pamphlet by a contemporary of Dubois are translated in Carlyle, *Mediaeval Political Theory*, V, 428n, 434n.
- Jordanus von Osnabrück. 'Des Jordanus von Osnabrück Buch [*De prerogativa Romani imperii*] über das römische Reich, herausgegeben von G. Waitz,' *Abhandlungen der königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen, historisch-philologischen Klasse*, XIV (1869), 1-91.
Text and Introduction.
- Jourdain, Charles. 'Un Collège oriental à Paris au treizième siècle,' *Revue des sociétés savantes des départements*, sér. 2, VI (1861), 66-73.
- 'Mémoire sur les commencements de la marine militaire sous Philippe le Bel,' *Mémoires de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, XXX (1881), Part I, 377-418.
- 'Mémoire sur l'éducation des femmes au moyen âge,' *Mémoires de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, XXVIII (1874), 79-133.
Reprinted in his *Excursions historiques et philosophiques à travers le moyen âge* (Paris, 1888), pp. 463-509.
- Kämpf, Hellmut. *Pierre Dubois und die geistigen Grundlagen des französischen Nationalbewusstseins um 1300*. Leipzig: Teubner, 1935.
'Beiträge zur Kulturgeschichte des Mittelalters und der Renaissance,' hrsg. von W. Goetz, Vol. LIV.
The title is a misnomer. Actually, it is a study of the rise of French national consciousness, illustrated by numerous citations from contemporary writers, among them Dubois.
- Keil, Heinrich G. T.: see Priscian.
- Kelsen, Hans. *Die Staatslehre des Dante Alighieri*. Vienna and Leipzig: F. Deuticke, 1905. 'Wiener staatswissenschaftliche Studien,' Vol. VI, No. 3.
- Kern, Fritz, ed. *Acta Imperii, Angliae et Franciae ab anno 1267 ad annum 1313: Dokumente vornehmlich zur Geschichte der auswärtigen Beziehungen Deutschlands, in ausländischen Archiven gesammelt*. Tübingen: J. C. B. Mohr, 1910.
- *Die Anfänge der französischen Ausdehnungspolitik bis zum Jahr 1308*. Tübingen: J. C. B. Mohr, 1910.
- *Grundlagen der französischen Ausdehnungspolitik*. Leipzig: Hirschfeld, 1910.
- Kervyn de Lettenhove, Joseph B. M. C. 'Etudes sur l'histoire du XIIIe siècle,' *Mémoires de l'Académie royale des sciences, des lettres et des beaux-arts de Belgique, classe des lettres*, XXVIII (1854), 1-105.
A lengthy footnote on p. 84 comprises the text of the false bull *Quia nonnulli*, in which Boniface VIII is supposed to have abolished the principle of clerical celibacy.
- *Histoire de Flandre*. 6 vols. Brussels: Vandale, 1847-50.
There is a fifth edition: 4 vols. Bruges: Ch. Beyaert, 1898.

Works Cited

- Memoirs of the Crusades, by Villehardouin and Joinville. Trans. Sir Frank Marzials. London and Toronto: J. M. Dent; New York: E. P. Dutton, 1908. 'Everyman's Library,' No. 333.
- Merriman, Roger Bigelow. The Rise of the Spanish Empire in the Old World and in the New. 4 vols. New York: Macmillan, 1918-34.
- Meulen, Jacob ter. Der Gedanke der internationalen Organisation in seiner Entwicklung. 2 vols. in 3. The Hague: Nijhoff, 1917-40.
I, 101-07 on Dubois. Cites a few passages of the *De recuperatione* in German translation.
- Meyer, Emil H. Die staats- und völkerrechtlichen Ideen von Peter Dubois. Marburg: Adolf Ebel, 1908. 'Arbeiten aus dem juristisch-staatswissenschaftlichen Seminar der königlichen Universität Marburg,' hrsg. von Walter Schücking, Vol VII.
Despite its title, of minor importance.
- Meyer, Hermann. Lupold von Bebenburg; Studien zu seinen Schriften: ein Beitrag zur Geschichte der staatsrechtlichen und kirchenpolitischen Ideen und Publizistik im 14. Jahrhundert. Freiburg-im-Breisgau: Herder, 1909. 'Studien und Darstellungen aus dem Gebiet der Geschichte,' Vol. VII, Nos. 1, 2.
— Textkritische Studien zu den Schriften von Lupold von Bebenburg. Munich and Freiburg-im-Breisgau: Herder, 1908.
Lupold von Bebenburg was a doctor of canon law, who became bishop of Bebenburg in 1353; died 1363.
- MGH: see Monumenta Germaniae historica.
- Michel, Karl. Das *Opus tripartitum* des Humbertus de Romanis, O.P.: Beitrag zur Geschichte d. Kreuzzugs-idee und d. kirchliche Unionsbewegung. 2d ed. Graz: Universitätsbuchdruckerei, 1926.
This is the *Libellus* written for the use of the council of Lyons (1274).
- Migne, J. P., ed. Patrologiae cursus completus. Series latina. 221 vols. Paris: J. P. Migne, 1844-64. Cited as Migne, *Pat. Lat.*
- Mirbt, Carl. Die Publizistik im Zeitalter Gregors VII. Leipzig: Hinrichs, 1894.
One of the earliest studies of pamphleteering during the Middle Ages.
- Miscellanea Francesco Ehrle: scritti di storia e paleografia pubblicati sotto gli auspici di S. S. Pio XI in occasione dell'ottantesimo natalizio dell' e.mo Cardinale Francesco Ehrle. 5 vols. Rome: Biblioteca apostolica Vaticana, 1924.
- Möller, Richard. Ludwig der Bayer und die Kurie im Kampf um das Reich; Forschungen. Berlin: E. Ebering, 1914. 'Historische Studien,' Vol. CXVI.
- Mohler, Ludwig. Die Kardinäle Jacob und Peter Colonna: ein Beitrag zur Geschichte des Zeitalter Bonifaz' VIII. Paderborn: F. Schöningh, 1914. 'Quellen und Forschungen aus dem Gebiete der Geschichte,' Vol. XVII.

Works Cited

- Mollat, Guillaume. 'Guichard de Troyes et les révélations de la sorcière de Bourdenay,' *Moyen Age*, sér. 2, XII (1908), 310-16 (whole number, Vol. XXI).
- Les Papes d'Avignon, 1305-1379. 2d ed. Paris: Lecoffre, 1912. 'Bibliothèque de l'enseignement de l'histoire ecclésiastique.'
- A ninth edition appeared in 1950.
- Monumenta Germaniae historica. Deutsche Chroniken, 1877—; Leges, 1835—; Scriptores, 1826—; Scriptores rerum Germanicarum, nova series, 1922—.
- Moranvillé, Henri. 'Les Projets de Charles de Valois sur l'empire de Constantinople,' *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, LI (1890), 63-86.
- A group of documents bearing on the subject.
- Moser, Max. 'Der Brief *Realis est veritas* aus dem Jahre 1304,' *Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung*, XXIX (1908), 64-87.
- Material on Richard Leneveu, pp. 84-87.
- Müller, Eugen. Beiträge zur Kenntnis der öffentlichen Meinung während des Interregnums. Heidelberg: C. Winter, 1912.
- Part of his longer work on Peter of Prezza, below.
- Peter von Prezza, ein Publizist der Zeit des Interregnums. Heidelberg: C. Winter, 1913. 'Heidelberger Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXXVII.
- Müller, Ewald. Das Konzil von Vienne, 1311-1312: seine Quellen und seine Geschichte. Münster: Aschendorff, 1934. 'Vorreformationsgeschichtliche Forschungen,' Vol. XII.
- Müller, Karl. [Review of Francesco Scaduto, *Stato e chiesa negli scritti politici dalla fine della lotta per le investiture sino alla morte di Ludovico il Bavaro, 1122-1347*, and of Baldassare Labanca, *Marsilio da Padova*], *Göttingische gelehrte Anzeigen*, 1883, Part II, 901-26.
- Discusses the authorship of certain pamphlets attributed to Du Bois.
- Mullally, Joseph P.; see Peter of Spain.
- Neumann, Wilhelm A. Ueber die orientalischen Sprachstudien seit dem 13. Jahrhunderte, mit besonderer Rücksicht auf Wien. Vienna: A. Holder, 1899.
- Norden, Walter. Das Papsttum und Byzanz: die Trennung der beiden Mächte und das Problem ihrer Wiedervereinigung bis zum Untergange des byzantinischen Reichs, 1453. Berlin: B. Behr, 1903.
- Notices et extraits des manuscrits*: see Boutaric.
- Oman, Charles W. C. A History of the Art of War in the Middle Ages. 2d ed. 2 vols. Boston: Houghton Mifflin, 1924.
- Palestine Pilgrims Text Society. The Library. 13 vols. London: Committee of the Palestine Exploration Fund, 1897 [1890-97].
- English translations of accounts by western travelers to Palestine during the Middle Ages.

Works Cited

- Pasolini, Pier Desiderio. *I tiranni di Romagna e i papi nel medio evo*. Imola: Galeati, 1888.
- Peers, Edgar Allison, trans. *A Life of Ramón Lull, Written by an Unknown Hand About 1311*. Translated from the Catalan with Notes and an Appendix. London: Burns, Oates & Washbourne, [1927].
- Ramon Lull: A Biography. London: Society for the Promotion of Christian Knowledge, 1929.
- Peter of Spain [Pope John XXI]. *The Summulae logicales of Peter of Spain*. Ed. J. P. Mullally. Notre Dame, Ind.: University of Notre Dame, 1945. 'Publications in Mediaeval Studies,' Vol. VIII.
- Edition and translation of the seventh and final tract.
- Petit, Joseph. *Charles de Valois (1270-1325)*. Paris: Picard, 1900.
- Philip IV (the Fair). *Lettres inédites de Philippe le Bel*. Publiées par l'Académie des sciences, inscriptions et belles-lettres de Toulouse. Ed. Adolphe Baudouin. Paris: Champion, 1887.
- Picot, Georges 'M. R., ed. *Documents relatifs aux états généraux et assemblées réunis sous Philippe le Bel*. Paris: Imprimerie nationale, 1901, 'Collection de documents inédits sur l'histoire de France,' No. 35.
- Piero della Vigna. *Petri de Vincis iudicis aulici et cancellarii Friderici II imperatoris epistolarum, quibus res gestae ejusdem imperatoris aliaque multa ad historiam ac jurisprudentiam spectantia continentur libri VI*. Ed. Joh. Rudolphus Iselius. 2 vols. Basle: Joh. Christ, 1740.
- This collection of letters left by the chancellor of Frederick II was available in the French royal archives in Dubois' day, and may possibly have offered hints to Philip's propagandists. Copy in the Columbia University Library.
- Pirenne, Henri. 'La Version flamande et la version française de la bataille de Courtrai,' *Bulletins de la Commission royale d'histoire de Belgique*, sér. 4, XVII (1890), Part I, 11-50.
- Also printed separately. Brussels: Hayez, 1890.
- Poole, Reginald Lane. *Illustrations of the History of Mediaeval Thought*. 2d ed. New York: Macmillan, 1920.
- First published in 1884.
- Portable Medieval Reader, The. Ed. James B. Ross and Mary M. McLaughlin. New York: Viking Press, 1949.
- Includes English translation of chapters 1-4, 13, 27, 101, 104-07, 111, of the *De recuperatione*. Confuses Edward I with Philip IV by ignoring the fact that the work is in two parts.
- Potthast, August, ed. *Regesta pontificum Romanorum inde ab anno post Christum natum 1198 ad annum 1304*. 2 vols. Berlin: R. de Decker, 1874-75.
- Power, Eileen. 'Pierre Du Bois and the Domination of France.' In F. J. C. Hearnshaw, ed., *The Social and Political Ideas of Some Great Mediaeval Thinkers* (London: G. Harrap, 1923), pp. 139-66.

Works Cited

- An otherwise excellent essay, marred by the contention that Dubois' ideas were 'modern' and not in harmony with his age.
- Powicke, Frederick M. 'Pierre Dubois, a Medieval Radical.' In Thomas F. Tout and James Tait, eds., *Historical Essays* (Manchester: Manchester University Press, 1907), pp. 169-91.
- An excellent essay, conceding that many of Dubois' ideas were not original with him.
- Priscian. *Institutiones grammaticae*. In H. Keil, ed., *Grammatici latini* (Leipzig: Teubner, 1857-80), Vols. II and III.
- Prutz, Hans Georg. *Entwicklung und Untergang des Tempelherrenordens*. Berlin: G. Grote, 1888.
- Die geistlichen Ritterorden: ihre Stellung zur kirchlichen, politischen, gesellschaftlichen und wirtschaftlichen Entwicklung des Mittelalters. Berlin: Mittler & Sohn, 1908.
- 'Zur Genesis des Templerprozesses,' *Sitzungsberichte der Bayerische Akademie der Wissenschaften zu München, Philosophisch-philologischen und der historischen Klasse*, [XXIV] Jahrgang 1907, 5-67.
- Raoul Glaber: see Rodulphus Glaber.
- Rashdall, Hastings. *The Universities of Europe in the Middle Ages*. Ed. F. M. Powicke and A. B. Emden. 3 vols. Oxford: Clarendon Press, 1936.
- Originally published in 1895. Powicke and Emden preserved the original organization, making their revisions and corrections principally by means of footnotes.
- Recueil des historiens des croisades. Documents arméniens. 2 vols. in 3. Paris: Imprimerie impériale, 1869-1906.
- Recueil des historiens des Gaules et de la France. Ed. Dom Martin Bouquet *et al.* 24 vols. Paris: Aux dépens des librairies associées, 1738-1904.
- Some volumes have been reprinted from time to time. Publisher varies. The work is sometimes cited by its Latin title, *Rerum Gallicarum et Francicarum scriptores*.
- Registres de Boniface VIII, Les: Recueil des bulles de ce pape publiées ou analysées d'après les manuscrits originaux des Archives du Vatican. Ed. Georges Digard *et al.* 4 vols. Paris: Boccard, 1904-39. 'Bibliothèque des Ecoles françaises d'Athènes et de Rome,' 2 sér., Vol. IV.
- Issued in 16 fascicles. Fasc. No. 1 of Vol. I was issued in 1884. Publisher varies.
- Reinach, Salomon. 'L'Enigme de Siger,' *Revue historique*, CLI (1926), 34-46.
- Renan, Ernest. 'De divers pièces relatives aux différends de Philippe le Bel avec la papauté.' In *Histoire littéraire*, XXVII, 371-81.
- Some of this material is on Pierre Flotte.
- Etudes sur la politique religieuse du règne de Philippe le Bel. Paris: C. Lévy, 1899.

Works Cited

- A reprint of the author's articles on William of Nogaret, Pierre Dubois, and Bertrand de Got, in *Histoire littéraire*, Vols. XXVI, XXVII, and XXVIII.
- 'Guillaume de Nogaret, légiste.' In *Histoire littéraire*, XXVII, 233-371.
- 'Pierre Du Bois, légiste.' In *Histoire littéraire*, XXVI, 471-536.
A long and brilliant study, with detailed summaries of several of Dubois' pamphlets. Dubois' authorship of a few of the treatises here attributed to him has been repudiated by later scholars.
- 'Un Publiciste du temps de Philippe le Bel, 1300-1308 [Pierre Dubois],' *Revue des deux mondes*, XCI (1871), 620-46; XCII (1871), 87-115.
A reprint, without citation of authorities, of the article in *Histoire littéraire*, XXVI.
- Ribbeck, Walter. 'Gerhoh von Reichersberg und seine Ideen über das Verhältniss zwischen Staat und Kirche,' *Forschungen zur deutschen Geschichte*, XXIV (1884), 3-80.
- 'Noch einmal Gerhoh von Reichersberg,' *Forschungen zur deutschen Geschichte*, XXV (1885), 556-61.
Gerhoh von Reichersberg, who lived ca. 1150, had ideas on the confiscation of ecclesiastical property which resemble those of Dubois.
- Richard, Jules M. Une Petite-Nièce de saint Louis, Mahaut, comtesse d'Artois et de Bourgogne (1302-1329): étude sur la vie privée, les arts et l'industrie en Artois et à Paris au commencement du XIVe siècle. Paris: Champion, 1887.
Dubois spent his last years in the service of the countess.
- Rigaud, Eudes. Registrum visitationum archiepiscopi Rothomagensis [1248-69]: Journal des visites pastorales d'Eude Rigaud, archevêque de Rouen. Ed. Th. Bonnin. Rouen: A. le Brument, 1852.
Presents a picture of monastic life in the thirteenth century which affords some justification for the criticisms leveled against monasticism by Dubois.
- Rigault, Abel. Le Procès de Guichard, évêque de Troyes, 1308-1313. Paris: Picard, 1896. 'Société de l'Ecole des chartes, mémoires et documents,' Vol. I.
- Rivière, Jean. Le Problème de l'église et de l'état au temps de Philippe le Bel: étude de théologie positive. Louvain: Spicilegium sacrum Lovaniense bureaux, 1926. 'Spicilegium sacrum Lovaniense; études et documents,' fasc. 8.
- Rocquain, Félix. La Cour de Rome et l'esprit de réforme avant Luther. 3 vols. Paris: Thorin & fils, 1893-97.
- 'Philippe le Bel et la bulle *Ausculta fili*,' *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, XLIV (1883), 393-418.
Contents that the story of the burning of the bull lacks adequate documentary evidence.

Works Cited

Rodulphus Glaber. Raoul Glaber: Les cinq livres de ses histoires, 900-1044. Ed. Maurice Prou. Paris: Picard, 1886. 'Collection de textes pour servir à l'étude et à l'enseignement de l'histoire.'

An account of the Peace of God in France in 1034 is found in iv, iv, v.

Ross, J. B., and M. M. McLaughlin: *see* Portable Medieval Reader.

Rymer, Thomas, ed. Foedera, conventiones, litterae, et cujuscunque generis acta publica inter reges Angliae et alios quosvis imperatores, reges, pontifices, principes, vel communitates: ab ingressu Guilelmi I in Angliam A. D. 1066 ad nostra usque tempora habita aut tractata. Ed. Adam Clarke and Fred. Holbrooke. 4 vols. in 7. London: G. Eyre & E. Strahan, 1816-69.

Sandys, John Edwin. A History of Classical Scholarship. 3 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1903-8.

Vol. I, which covers the Middle Ages, is in a third edition (1921).

Sanudo, Marino, senior. Secreta fidelium crucis super Terrae Sanctae recuperatione et conservatione. In J. Bongars, *Gesta Dei per Francos*, II, 1-288.

Part xiv of Book III is translated in Palestine Pilgrims Text Society, *The Library*, XII, 2-70.

Sarti, Mauro, and Mauro Fattorini. De claris archigymnasii Bononiensis professoribus a saeculo XI usque ad saeculum XIV. Ed. C. Albicinius and C. Malagola. 2 vols. Bologna: Merlani fratres, 1888-96.

Originally published 1769-72.

Sarton, George. Introduction to the History of Science. 3 vols. Baltimore: Williams & Wilkins, 1927-48.

Schlauch, Margaret. Medieval Narrative: A Book of Translations. New York: Prentice-Hall, 1928.

Includes a version of the Alexander legend, pp. 281-331.

Schnürer, Gustav. 'Das Projekt eines internationalen Schiedsgerichts aus den Jahren 1307/8,' *Historisch-politische Blätter für das katholische Deutschland*, CXXI (1908), 279-84.

Quotes chap. 12 of the *De recuperatione* in German translation.

Scholz, Richard. Die Publizistik zur Zeit Philipps des Schönen und Bonifaz, VIII. Stuttgart: F. Enke, 1903. 'Kirchenrechtliche Abhandlungen,' Vols. VI-VIII.

The outstanding study of pamphleteering during the reign of Philip IV. Pp. 32-129 were published separately under the title *Aegidius von Rom* (Stuttgart, 1902).

'Studien über die politischen Streitschriften des 14. und 15. Jahrhunderts,' *Quellen und Forschungen aus italienischen Archiven und Bibliotheken*, XII (1909), 112-31.

Includes some unedited material on William of Ockham.

Unbekannte kirchenpolitische Streitschriften aus der Zeit Ludwigs des Bayern (1327-1354). 2 vols. in 1. Rome: Loescher, 1911-14. 'Bib-

Works Cited

- liothek des kgl. preuss. historischen Instituts in Rom,' Vols. IX-X.
Schottmüller, Konrad. Der Untergang des Templer-Ordens. Mit urkundlichen und kritischen Beiträgen. 2 vols. Berlin: Mittler & Sohn, 1887.
Schraub, Wilhelm. Jordan von Osnabrück und der *Tractatus de praerogativa Romani imperii*. Heidelberg: C. Winter, 1909.
 An extract from his longer work, published in 1910.
—— Jordan von Osnabrück und Alexander von Roes: ein Beitrag zur Geschichte der Publizistik im 13. Jahrhundert. Heidelberg: C. Winter, 1910. 'Heidelberger Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXVI.
Schücking, Walther. Die Organisation der Welt. Leipzig: Alfred Körner, 1909.
 Chap. iii deals with Pierre Dubois and George Podiebrad as forerunners of pacifism.
Schulte, Johann Friedrich von. Die Geschichte der Quellen und Literatur des canonischen Rechts von Gratian bis auf die Gegenwart. 3 vols. Stuttgart: F. Enke, 1875-80.
 A work of fundamental importance.
[Scott, Samuel P.]. The Civil Law, Including the Twelve Tables, the Institutes of Gaius, the Rules of Ulpian, the Opinions of Paulus, the Enactments of Justinian, and the Constitutions of Leo. Translated from the Original Latin, Edited and Compared with All Accessible Systems of Jurisprudence, Ancient and Modern. 17 vols. in 7. Cincinnati: Central Trust Co., [1932].
Siger de Brabant. Die *Impossibilia* des Siger von Brabant: eine philosophische Streitschrift aus dem 13. Jahrhundert. Ed. Clemens Baeumker. Münster: Aschendorff, 1898. 'Beiträge zur Geschichte der Philosophie des Mittelalters; Texte und Untersuchungen,' Vol. II, No. 6.
—— Questions sur la Physique d'Aristote, texte inédit, par Philippe Delhay. Louvain: Edition de l'Institut supérieure de philosophie, 1941.
 The complete commentary on Books I-IV and VIII of the *Physics*.
 Comprises a total of 141 questions.
Souchon, Martin. Die Papstwahlen von Bonifaz VIII bis Urban VI und die Entstehung des Schismas 1378. Brunswick: Goeritz, 1888.
 Useful for lists of the promotion of cardinals.
Steenberghen, Fernand van. Siger de Brabant d'après ses œuvres inédites. 2 vols. Louvain: Editions de l'Institut supérieur de philosophie, 1931-42.
 Based on the materials discovered by Grabmann in 1923.
Strayer, Joseph R. 'The Laicization of French and English Society in the Thirteenth Century,' *Speculum*, XV (1940), 76-91.
Strayer, Joseph R., and Charles H. Taylor. Studies in Early French Taxation. Cambridge: Harvard University Press, 1939. 'Harvard Historical Monographs,' Vol. XII.

Works Cited

- 'Consent to taxation under Philip the Fair,' pp. 3-105, discusses the various financial expedients adopted by the crown.
- Stubbs, William. *The Constitutional History of England in Its Origin and Development*. 3 vols. Oxford: Clarendon Press, [1926-29].
A new impression of a work originally published 1874-78. Each volume has gone through several editions.
- Tardif, Adolphe. *Histoire des sources du droit français: origines romaines*. Paris: Picard, 1890.
— *La Procédure civile et criminelle aux XIIIe et XIVe siècles, ou procédure de transition*. Paris: Picard, 1885.
These studies by Tardif are useful in judging the significance of Dubois' proposed legal reforms.
- Taylor, Charles Holt. 'Some New Texts on the Assembly of 1302,' *Speculum*, XI (1936), 38-42.
- Taylor, Henry Osborn. *The Mediaeval Mind: A History of the Development of Thought and Emotion in the Middle Ages*. 3d (American) ed. 2 vols. New York: Macmillan, 1919.
- Theodulus. *Theoduli Ecloga*. Ed. Joannes Osternacher. Urfahr: Verlag des bischöflichen Privatgymnasiums am Kollegium Petrinum, 1902.
'Jahresbericht des bischöflichen Privat-Gymnasiums am Kollegium Petrinum in Urfahr,' Vol. XV.
One of the textbooks recommended by Dubois. Theodulus wrote in the ninth century.
- Thorndike, Lynn. *A History of Magic and Experimental Science*. 6 vols. New York: Macmillan, (Vols. I-IV), Columbia University Preco (Vols. V-VI), 1923-41.
— *University Records and Life in the Middle Ages*. New York: Columbia University Press, 1944. 'Records of Civilization, Sources and Studies,' No. XXXVIII.
Includes English translation of chapters 60-63, 71-76, 79, 83-88, of the *De recuperatione*, which deal with education.
- Throop, Palmer A. *Criticism of the Crusade: A Study of Public Opinion and Crusade Propaganda*. Amsterdam: Swets & Zeitlinger, 1940.
A study of the loss of papal prestige from the failure of the crusades. Limited to the thirteenth century. Has neither bibliography nor index.
- Tosti, Luigi, conte. *History of Pope Boniface and His Times*, with Notes and Documentary Evidence, in Six Books. Trans. Eugene J. Donnelly. New York: Christian Press Association Publishing Co., [1911].
Originally published in 2 vols. (Paris, 1854). The translator has made no attempt to bring the scholarship up to date.
- Tout, Thomas F. *The History of England from the Accession of Henry III to the Death of Edward III (1216-1377)*. London: Longmans, Green, 1905. 'The Political History of England,' ed. William Hunt and Reginald L. Poole, Vol. III.
- Tout, Thomas F., and James Tait, : *see* Powicke, Frederick M.

Works Cited

- Vehse, Otto. Die amtliche Propaganda in der Staatskunst Kaiser Friedrichs II. Munich: Verlag der Münchner Drucke, 1929. 'Forschungen zur mittelalterlichen und neueren Geschichte,' Vol. I.
- Verdier, Fernand. 'Origine et influence des légistes,' *Mémoires de l'Académie de Nîmes*, sér. 7, XVIII (1895), 179-201.
- Traces the origin and rise of the lawyer class to the time of Louis IX.
- Vesnitch, Milenko Radomir. 'Deux précurseurs français du pacifisme et de l'arbitrage internationale,' *Revue d'histoire diplomatique*, XXV (1911), 23-78.
- Compares Pierre Dubois with Emeric Crucé, author of *The New Cyneas*, published 1623.
- Vigne, Pietro delle: see Piero della Vigna.
- Villani, Giovanni. La cronica di Giovanni Villani annotata ad uso della gioventù. Ed. Celestino Durando. 5 vols. Turin: Libr. Salesiana, 1879.
- Selections from the first nine books have been translated by Rose E. Selve (2d ed. London: Constable, 1906).
- Vinogradoff, Sir Paul. Roman Law in Mediaeval Europe. London and New York: Harper, 1909. 'Harper's Library of Living Thought.'
- Wailly, Joseph Natalis de. 'Mémoire sur un opuscule anonyme intitulé *Summaria brevis et compendiosa doctrina felicitis expeditionis et abbreviationis guerrarum ac litium regni Francorum*,' *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, sér. 2, III (1846), 273-315 (whole number, Vol. VIII).
- A paper read before the Academy at the séances of February 5 and 12, 1847. The same paper also appeared in *Mémoires de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, XVIII (1849), Part I, 435-94. Marks the nineteenth-century 'discovery' of Dubois.
- Walter of Châtillon: see Gautier de Châtillon.
- Wenck, Karl Robert. Clemens V und Heinrich VII; die Anfänge des französischen Papstthums: ein Beitrag zur Geschichte des XIV Jahrhunderts. Halle: Niemeyer, 1882.
- 'Französische Werbungen um die deutsche Königskrone zur Zeit Philipps des Schönen und Clemens' V,' *Historische Zeitschrift*, LXXXVI (1901), 253-69.
- Philipp der Schöne von Frankreich: seine Persönlichkeit und das Urteil der Zeitgenossen; im Anhang, urkundliche Beiträge zur Geschichte der Erwerbung Lyons für Frankreich. Marburg: Elwert, 1905.
- [Review and comment on Langlois' edition of the *De recuperatione*], *Historische Zeitschrift*, LXXI (1893), 151-56.
- 'Staat und Kirche am Ausgang des Mittelalters,' *Zeitschrift für allgemeine Geschichte*, I (1884), 592-606.
- Wieruszowski, Helene. Vom Imperium zum nationalen Königtum: vergleichende Studien über die publizistischen Kämpfe Kaiser Friedrichs II und König Philipps des Schönen mit der Kurie. Munich and Berlin: R. Oldenbourg, 1933. 'Beiheft der Historischen Zeitschrift,' No. 30.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
توطئة	٧
مدخل — ترجمة بيير دوبوا	١١
خلفية تاريخية	٢٣
الخلاف مع بونيفيس الثامن	٢٨
قضية الداوية	٤٢
أفكار في كتاب استرداد الأرض المقدسة	٥٢
تقويم نقدي لدوبوا	٦٠
سوابق لأفكار دوبوا	٦٩
مكانة دوبوا وأهميته	٨٢
مخطوطات وطبعات استرداد الأرض	٨٤
استرداد الأرض المقدسة (النص)	٨٧
القسم الأول	٨٩
القسم الثاني	٢٠٣
ملحق	٢٤١
جريدة المصادر	٢٥٧

Bibliotheca Alexandrina



0414610